

رواية

إمراة تحت سيف الأقدار

إدوارد فيلبس جرجس

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : امرأة تحت سيف الأقدار

المؤلف : إدوارد فيليبس جرجس

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠١٧ / ٧٢٠٥

الترقيم الدولي : 3 - 378 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

نماذج من شخصيات وسلوكيات قد تكون منفردة
لكنني جمعتها في روايتي، موجودة في الواقع ولا يخلو
منها الزمان منذ بدايته وحتى نهايته .

المؤلف

oboiikan.com

استيقظ الشارع الضيق وفتح عينيه مبكراً كالعادة، بدأت الدكاكين المتراسة على الجانبين ترفع أبوابها محدثة حشجة متتابعة، بحيث لا تدع سبيلاً لعودة النعاس الهارب مرة ثانية، كان هذا إيذانا ببدء الصخب الذي اعتادت عليه الشوارع الشعبية عامة، وهذا الشارع بصفة خاصة، الذي يمتد كثعبان زاحف تبدأ رأسه من كورنيش النيل، وينتهي ذيله في الجهة الأخرى، على الطريق الرئيسي الذي يتجه يمينه لوسط المدينة ويساره للطريق المتجه للصعيد، تمرح بين جانبيه كل أنواع المركبات في فوضى عجيبة.

سكان الشارع المستديمون تركيبة غير متناسقة من البشر، جمعت بين المتعلمين وأنصافهم، ومن لم تخطو قدماء باب العلم بالمرّة. أما غير المستديمين فهم أصحاب العيادات والصيدليات ومكاتب المحاماة وبعض الدكاكين ذات النشاطات المختلفة .. اختاروا أن تكون أعمالهم في المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة، حيث العمارات والبيوت متحدة بقوه لا يفصل بينها سوى دروب صغيرة، تفتح على حارات مكتظة بسكانها . لم

يعد غريباً أن تشاهد في الشارع خليطاً من الملابس الإفريقية والملابس الشعبية والموضة وأزياء القرن الماضي، يسرون جميعهم في قلق متفادين الاصطدام بجميع أنواع المركبات . ولا بأس من بضع بقرات لا يمنعها الحياء أن تترك روثها في منتصف الطريق، كما لا يمنع الحياء البعض من التراشق ببعض الألفاظ التي تخدش الأذان، تزداد حدة في المشاجرات التي لا تنقطع فأصبحت من معالم الممارسات اليومية.

على الجانب الأيسر من الشارع كان أول من يفتح الضوضاء هو «توبه» صاحب محل الكشري، الذي اعتاد أن يبدأ مع أذان الفجر حتى يتمكن من إعداد أطباقه للمبكرين إلى العمل، اعتاد البعض على تدشين معدتهم بطبق من الكشري مع صلصته الحريفة ليصمد فيها لحين العودة لمنزله . انقسم السكان حول دكانه لفريقين، منهم من توقظه رائحة الصلصة والبصل المقلي في الزيت، ومنهم من يستيقظ على صوت المسجل الذي يطلق صوته بمجرد أن يرفع باب الدكان . الدكان الذي يليه « فاضل » الحلاق الذي لا يفوته التبكير، لا يخلو الأمر من البعض الذين يستصعبون إزالة لحياتهم في المنزل قبل الذهاب إلى العمل، يلي دكان فاضل دكان المعلم « عطوه » الجزار وصبيه عكوه الذي يزن عدة قناطر، تمكنه من رفع الذبيحة وكأنه يرفع دجاجة ليعلقها في الخُطاف الذي يتصدر باب الدكان، فتكون مصدر سرور لمن يملك الشراء، ومصدر تعاسة لمن يراها من بعيد وينظر إليها كحلم بعيد

المنال، كانت الذبيحة في ذلك اليوم مكتنزة باللحم مما دعى المعلم عطوه أن يرفع صوته قائلا :

— من يأكل من هذا اللحم لن يطرق باب الطبيب ولن يحتاج لوصفة العطار .

قهقه «فتوح» تاجر الأدوات الكهربائية الذي يقع دكانه في الجهة المقابلة وقال:

— لا تنسى أن تقطع لنفسك قدرا كبيرا، حتى يغنيك عن وصفة العطار الذي أراك واقفا ببابه كل ليلة.

قال المعلم عطوه مغتاظاً لاكتشاف سره :

— يا صاحب البيت الزجاجي لا تقذف بيوت الناس بالأحجار..
أليس هكذا يقولون .. أنسيت أنك تظل لاصقا بي كل يوم ولا تتركني حتى تفوز بخصية الذبيحة لتمنحك بعض القوة.

قال فتوح ولم تنقطع قهقهته بعد :

— لا أنكر هذا .. زوجتي عندما تراني منتفشا كالديك تقول لا تنسى أن تشكر المعلم عطوة.

نظر «منصور» الميكانيكي الذي يجاور فتوح إلى جاره سليم صاحب محل شرائط الفيديو وصفق بيديه مهلا:

— ألا تسمع يا أستاذ سليم، يبدو أننا نجاور جيرانا ودعوا رجولتهم مبكرا.

لم يعلق سليم، جميع حواسه منطلقة بعيدة عن أحاديثهم، ساكن فوق مقعده، لا تبدر منه حركة سوى عيني قلقتين تراقبان الطريق .. يفتح دكانه مبكراً وهو يعلم أن عملائه لا يتوافدون عليه إلا بعد منتصف النهار .. ينتظرها كل يوم بقلب تملو دقاته على ضوضاء الشارع، لا يحتسب يوم الجمعة من أيام الأسبوع، يوم عطلتها، يتمنى أن تكون الدراسة متصلة طوال أيام الأسبوع. ينهض صباح السبت مبكراً على غير العادة ليسرع إلى دكانه، بالرغم من تأكده بأنها لن تهل على الطريق قبل الساعة الثامنة والنصف ككل يوم مدفوعاً بحرمانه من رؤيتها يوم الجمعة، لم ينتبه لما قاله منصور الميكانيكي، أغلق أذنيه التوتر الذي يبلغ أشده في تمام الساعة الثامنة والنصف وقت مرورها، لم يفر سوى على صوت المعلم عطوة وهو يقول متهمكاً:

— هل أحضر لك السكين لتعدو خلفها وتشق ثيابها، لتكمل عينك جولتهما يا أستاذ سليم .

اشترك فاضل وعطوه وفتوح ومنصور في قهقهة عالية، أقلقت نشوة سليم، نهض مبتسماً وهو يهز رأسه هارباً للدخل ليخفي توهج وجهه، عاد ثانية إلى مقعده أمام الدكان حتى لا يفوته أن يتنفس بعض عطرها، الذي يترك عبقه عالقا بالهواء لفترة طويلة، تجتاحه الدهشة دائماً، كيف لهذا العطر وصاحبته أن يسكنا مثل هذا الشارع .

لمحت عين سليم « ناديه » لأول عندما أتى إلى الشارع
المزدحم بعد تخرجه مباشرة من كلية التجارة يصحبه
قرار العمل الحر، افتتح دكانا لبيع وتأجير أجهزة الفيديو التي
كانت تلقي رواجاً في الأحياء الشعبية في ذلك الوقت . تسالت
إلى أنفه وهو داخل دكانه نفحات من عطر يستبعد تماماً
وجوده في مثل هذا الشارع، أسرع بالخروج، لم يتمكن من
مشاهدة صاحبة العطر إلا من الخلف، كانت قد تعدت بابه
ببضع خطوات، تاركة خلفها شذاً أثار في داخله إحساساً
غامضاً، تجمدت عيناه على الخلف الرائع المشحون بأنوثة
يبرزها الثوب الملفت بدقة حول كل ثناياها، شيعتها عيناه
إلى أن غابت عن بصره، ما تبقى من عطرها ظل يدغدغ
حواسه لفترة ليست بالقصيرة . تطلع إلى ساعة معصمه
وسجل في ذهنه تمام الثالثة بعد الظهر، انتظرها في اليوم
التالي أمام الدكان وبكر في الخروج حتى يحظى برويتها من
الأمم وتشيعها نظراته من الخلف، رصدت عيناه ما فاق
كل توقعاته وخيالاته، صاحت كل أحاسيسه صيحة العشق
البكر . خليط لا ينفصل من الإعجاب وعريضة القلب المتوثب

للانطلاق من قفصه، تاهت العينان في محاولة للملئة كل ما
تقع عليهما، لتحفر صورة في ذاكرته لا يمكن لأي قوة أن
تمحوها، ما نُقش في لحظات اجترته ذاكرته في ساعات،
غابت عن عينيه لكنها مرسومة بكامل حلاوتها في وجدانه،
غافله قلبه وانطلق من أسره ليعدو خلفها ولم يعد، هجره
وسكن بجانبها، ترك صاحبه دون دقات، أكثر من مرة سمع
دقاته مع خطواتها، حاول أن يستعيده من بين قدميها، فشل
ويئس، أظهر له لسانه وهو يزداد تشبثاً بهما، تركه وعاش
بخياله المحمل بوجه لا يصلح لوصفه حتى شعراء الغزل،
فمهما بلغ إبداع القلم أحياناً يقف صامتاً أمام روعة الجمال،
وجه يحتاج لقلم يكتب بكل حواسه وقد فاق كل الوجوه منذ
حواء، كل جزء من ملامحه تعزف نغمة منفردة، اتحد الجميع
ليخرجوا معزوفة رائعة لعازف يعشق الجمال، وجه ماهر ينقلك
دون أن تدري من رفقة الملائكة إلى أتون من نيران الإشارة
يقذف بسعيه عن بعد، البدر الحالم وشمس الظهيرة اجتمعا
معاً، الجسد الفائر الذي يضخ الأنوثة المجنونة، لا يمكن أن
يكون إلا جزء من لهب يشعل النار في كل من يقترب منه،
الكامنتان أسفل القميص المفتوح من أعلى مظهرًا منبتهما
يقولان ذلك، تتحدثان بصمت عن ثورة تدفعهما ليمزقا كل ما
يعوقهما للانطلاق إلى عالم اللا أسر . إذا بدأت لن تستطيع
الفكاك، كل فتنة ستسلمك إلى التي تليها، تصعد وتهبط وفي
كل مرة يزداد الاشتعال، وأمنية حتى ولو بقطرة واحدة فوق

طرف اللسان . في لحظات تم كل شيء وانتقل سليم من عالم الحرية إلى عالم الأسر، أسر كان يظنه في البداية أنه خطا إليه بكامل إرادته، لكن لم تمض عدة أيام حتى أقر واعترف أنه أجبر عليه، أسر قاس يعد عليه حتى أنفاسه المتلاحقة عندما يقترب موعد ذهابها أو عودتها، لم يكفه أن يتمتع بلحظات رؤيتها مرة واحدة عند عودتها مساء كل يوم، بكر يوما عن آخر في فتح دكانه، حتى ضبط مواعده في تمام الساعة الثامنة، ليستقبل وجهها في تمام الساعة الثامنة والنصف . فاحت من عينيه رائحة العشق فأنكشف وتعرى حبه المجنون أمام فاضل الحلاق والمعلم عطوه الجزار وفتوح ومنصور الميكانيكي، كثر الغمز واللمز والتعليق . ذات يوم فاق سليم من خيالاته عقب الحفل اليومي لمرورها على صوت فاضل الحلاق :

— أبعد عن الهوى وغني له يا أستاذ سليم .

قال سليم متعجباً :

— أي هوى يا عم فاضل ؟ !

أجاب فاضل غامزاً بعينه :

— الهوى وما يخفيه .

قال سليم مراوفاً :

— لست أفهم ما ترمي إليه !!

علق منصور الميكانيكي قائلاً :

— دعك من نكد فاضل ومتع نظرك كما تشاء يا أستاذ سليم،
شباب الشارع كله يعرف موعد ذهابها وأيابها وينتظرونها
كل يوم في الشرفات، لكن إياك وأن تقفز أكثر من النظرات.

وزج فتوح بلسانه في الحديث :

— نحن نتابع حالتك كل يوم منذ مجيئك إلي الشارع يا أستاذ
سليم، نتابع عينيك وهما يقفزان خلفها خطوة بخطوة،
وعلى العموم قد يكون كل ما قيل عن «ناديه» شائعات.
وقال المعلم عطوه الجزار مهاجماً كعادته :

— رآها منصور وهو يجرب سيارة أحد الزبائن، كانت برفقة
خنفس يقود سيارة مرسيدس، هل هذه شائعات!!.

وقال فاضل مدافعاً :

— إن بعض الظن أثم يا اخوانا، دعوا الخلق للخالق يا عالم،
ولا تنسوا أنها بنت المعلم «جاد» النقاش .

سأل سليم مندهشاً :

— هل والدها يعمل في مهنة النقاشة ؟ .

أجاب فتوح :

— نعم أبوها كان نقاشاً، لكنه الآن أصبح « جاد» بك .

سأل سليم ثانية وقد اختلطت الدهشة بالفضول :

— وهل من السهل أن ينتقل الإنسان من عامل نقاشة لرتبة البكوية ؟ .

وتولى فاضل الإجابة :

— اختفى فترة وعاد بعدها يحمل رتبة البكوية .

قال سليم :

— هذا السبب غير كاف لأن يصبح جاد بك كما تقولون .

قال منصور الميكانيكي غامزاً بعينه :

— اختفى واختفت معه زوجته الجميلة .

علق فاضل مستاءاً :

— استغفر الله العظيم، يا خواناً لا تذبحوا سير الناس .

قال منصور الميكانيكي :

— نحن لا نذبح سير الناس يا فاضل ولكن فقط نردد ما

سمعناه من أحد العمال كان يعمل معه، أن زوجته الجميلة

لعبت دورا كبيرا في جمع هذه الثروة .

وعلق المعلم عطوه الجزار :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. إذاً لا نستبعد المثل الذي

يقول .. اكفي القدرة علي فمها تطلع البنت لأمها .

وقال سليم والأمل يعتصره :

— حتى لو كان ما تقولونه حقيقة، ليس من المحتم أن تكون البنت مثل أمها يا معلم عطوه .

وقال فاضل :

— كلامك مضبوط يا أستاذ سليم، واعتقد أنه من الأثم لأن نخوض في الظنون ونرتكب الكبائر .

وقال سليم في محاولة لنفي التهمة :

— وإذا افترضنا صحة ما تقولونه، فكيف بعد أن قفزوا لهذا الثراء يقطنون هذا الحي الشعبي .

أجاب فتوح :

— أقسم والدها ألا يخرج من هذا الحي إلا على قصره الذي شيده في منطقة الأهرامات، كل من شاهد هذا القصر الذي قارب على الانتهاء، يقول أنه يشبه قصور ألف ليله وليله .

وقال منصور والحسرة تأكله :

— نسمع أنهم يستعدون للانتقال إليه .. وسنخسر متعتنا اليومية في انتظار نأديه وعطرها .

وسأل سليم متجاهلاً تعليق منصور :

– وهل حتى الآن أبواها متغيبان .

أجاب فتوح :

– متغيبان وغير متغيبان، يختفيان ثم يظهران لفترة ثم يعودان للاختفاء . عندما اختفيا لأول مرة تركا خلفهما ثلاثة ذكور أكبرهم كان في سن المراهقة ونادية التي لم تزد في ذلك الوقت عن عامها التاسع .

سأل سليم ثانية :

– ولماذا لم يعودا وقد انتقلا لرحبة الموسرين ؟!.

قهرقه المعلم عطوه الجزار وقال :

– يا أستاذ سليم ألم تسمع بأن من يستهويه جمع المال، يصبح كمن يشرب من ماء البحر لا يشعر بالارتواء أبدا .

فقد سليم شهيته للاستمرار في هذا الحوار الذي نغص عليه أفكاره . استأذن وانسحب إلي داخل الدكان ليجتز كل ما قيل عن فاتنة الصباح والمساء . أصبحت بالنسبة له كجرعة المخدر، إن لم يتعاطاه في وقته يشعر باختلال يكاد يفقده توازنه .

جلس مسندا رأسه الثقيل الممتلئ على كفه، يحاول أن يعيد النظام إلى أفكاره المشوشة، يدافع عن عشقه بتحويل الاتهامات عن طريقها ويلقيها فوق طريق عطوه الجزار ومن معه، لا يجدون وسيلة للتسلية سوى الخوض في سير

الناس، والاتهامات الزور النابعة من حقدهم على المعلم جاد النقاش الذي قفز قفزة لاعب سيرك ماهر تخطى بها حاجز الفقر وتعداه بمراحل، ليصل إلى طبقة غير طبقتهم. نبتت في داخلهم غيرة سوداء جعلتهم يفقدون الشهامة، يطعنون الرجل في شرفه، لم تكفهم الزوجة فانتقلت ألسنتهم تلوك في سيرة الابنة أيضا. الحقد والغيرة وراء كل ما تحدثوا به عن جاد وعائلته، لا يُستبعد أيضا غيرتهم منه هو شخصيا، المتعلم الوحيد الذي يحمل شهادة عليا وسط هذه الزمرة، استكثروا عليه أن ينال بعض النظرات من ناديه، من يعلم قد تتطور العلاقة إلى زواج ويفوز ببنت شارعهم الثرية، التي تحرك شهواتهم الجاهلة لتقفز إلى عيونهم بمجرد أن يلمحوا طرفها. عطوة الجزار يقسم جسدها بعينيه كما لو كان يعمل سكينه بالذبيحة، هذه هي الحقيقة. هدأت نفسه بعد هذا الدفاع المستبسل، انقشعت الغمامة السوداء التي التفت حول عقله وخنقت أنفاسه، اتخذ قراره لتكون له خطوة واضحة نحو فاتنة الصباح والمساء.

«جاء الكومي» نزح من إحدى قرى الصعيد، أغواه أحد معارفه علي ترك العمل في أرض أبيه التي لا تتعدى النصف فدان، ليعمل ضمن طائفة المعمار بالقاهرة. سلبت ليه أفلام الفيديو التي كان يشاهدها في المقهى الوحيد بالقرية، أحضر صاحبها الفيديو معه بعد انتهاء عمله في أحد البلاد بالخارج، يتربح من الأفلام التي تجذب القرويين بعد ثقل النهار في عمل شاق. جاء الكومي على رأس القائمة، يأكل الأفلام ونسائها بعينية، يعود بعدها إلى داره ساخطاً على نفسه وقريته والعرق الذي يستنزفه بدنه كل يوم في العمل بالأرض لقاء لقمته هو وزوجته وطفليه. يقيم في دار أباه الذي يجمعه هو وأخوته وبعض المواشي، لم يكن له من صفات الدار سوى جدران من الطين وتقاسيم داخلية تفصله لأجزاء صغيره، يغلقها باب من الخشب القديم، يوقظ صريره المستغرق في نعاسه. نصيبه واحدة من هذه التقاسيم، يحشُر فيها جسده هو وزوجته وأطفاله. لا يستنشق داخلها سوى رائحة العرق وبول الأطفال. يتحملة على مضض في أشهر الشتاء ومع أول بادرة للربيع يلوذ بسطح المنزل حيث

الهواء الطلق . يعود من المقهى كل ليلة ويصعد مباشرة إلى أعلى ليريح جسده المنهك من جهد النهار والسهرة، يحلم بما امتلأت به عيناه من الأفلام التي أدمن على مشاهدتها، خاصة نساء هذه الأفلام . كثيرا ما كان يسأل نفسه هل توجد فعلا نساء تحمل هذا اللحم الأبيض الشهي ! هل كتب على أمثاله الحرمان من كل أنواع اللحم لا يأكله ولا يحضنه .. اللحم الذي يكسو بدن زوجته لا يعتبر لحما .. يختلف تماما، هل يتساوى طبق الفول مع طبق المهلبية البيضاء.. يخشى أن تلمسه كعب قدمها إذا جمع بينهما الفراش، خشنة كالمبرد تتخللها شقوق ووديان .. قهقهه عاليا عندما شاهد بعض حشرات النمل تتسلل خارجة من أحد هذه الشقوق . نساء الأفلام تبدو كعوب أقدامهن من الأحذية المفتحة من الخلف كثمرة حمراء، لو تمكن منها سيقضمها بأسنانه، بإنجابه لطفليه اعتبر أن مهمته الزوجية انتهت، الزوجة القروية لم تقبل أن تفرط في حقها، تظل منتبهة لحين عودته من المقهى، تتسلل خلفه إلى سطح المنزل لتمارس حقها عنوة . حتى الهواء النقي الذي يستنشقه فوق سطح المنزل حُرِم منه، عنفه أبوه وأمره ألا يرقد أعلى المنزل، بعد أن اشتكى إليه بعض الجيران أنهم شاهدوه أكثر من مرة مع زوجته، يخشون على بناتهم أن تنفتح أعينهن مبكرا . هذه الواقعة كانت المنعطف الذي غير حياته بأكملها أو كما يقولون القشة التي قسمت ظهر البعير . تسلل ذات يوم دون وداع ليقفز داخل

إحدى عربات الدرجة الثالثة للقطار المتجه إلى القاهرة، وفي
نيته البحث عن معرفته الذي دأب على غوايته للعمل في
طائفة المعمار. ترك خلفه كل شيء، لم يتردد لحظة، تقياً من
جوفه كل ما يربطه بقريته، حتى الشهامة والشرف اللذان
يولدان مع أبناء الصعيد ويلازمونهم حتى الموت .

- حبيبتي .. الحب في عينيك له لون آخر .
- حبيبي.. الهمس بين شفتيك كقيثارة الغروب .
- لا تقاطعيني أرجوك، ودعيني أغوص في أعماقهما
لأكتشف سر هذا الطيف الغريب، الذي لم يره أحدا من
البشر من قبل .
- لا تكن أنانيا، ودعني أنا أيضا أستمع بسماع روعي
وهي تناجيك.
- مُجبر على الأنانية يا حبيبتي .. لأنني أخشى أن ينقضي
العمر ولم انته من البوح بما يخفق به قلبي .
- أشعر بالمرارة والغيرة يا حبيبي، أستمع لهمساتك تنسكب
كلحن عذب في أذني، ولساني يعجز أن يُخرج طوفان
حبي لك .
- تواضعك عجب يا حبيبتي .. تدعين على لسانك العجز..
وكلماتك يمكنها أن تنبض قلب الحجر .

- يقولون يا حبيبي بأن الحب يمكن أن يصنع من الإنسان فنانا أو شاعرا أو حتى بطلا . لم أكن أتخيل أن يحولني لحالمة في اللحظة والمنام .. أحيانا أظن أنني نائمة وأنا أسير وأتخيلك تسير بجانبى، وأحيانا أخرى أظن أنني أسير وأنا نائمة، ألتقي بك وأرتمي في غيبوبة لذيدة بين ذراعيك.
- أرجوك ألا تلهي دماء قلبي، أخشى أن أقفز الآن وأحملك فوق كتفي وأطير لنسكن كوكب بعيد، لم أعد أتحمل الانتظار حتى نتزوج .

سأل النادل بصوت هامس وكأنه رق لحالهما :

هل أحضر لكما عصير البرتقال كالعادة ؟، لم يشأ أن يوقظهما من أحلام الملائكة .. أوما «عادل» بابتسامة للنادل الذي يعرفهما حق المعرفة، اعتاد على رؤيتهما دائما في جلستهما الهادئة التي تطل على زرقة النيل، يشعر بالقلق إذا تغيبا بضعة أيام . رؤيتهما معا تبشر بأن قلب الحب لا يزال ينبض . فقهقهت «ميرفت» والخجل ينثر على وجهها بعض من أوراق زهرة حمراء، همست بصوت ملفوف بنعاس الحب :

هل تظن أن النادل كان يقف بجوارنا منذ فترة ولم نلاحظه ؟

لا أستطيع أن أجيبك بنعم أو لا .. فأنا لم أفق إلا على صوته.. ابتسامته تقول بأنه كان يقف منذ برهة ليست بالقصيرة، لا تطاوعه نفسه أن يزجج همساتنا.

عادل وميرفت بسطت لهما الدنيا جناحيها، تطير بهما إلى
سمااء الجمال .. تقابلا قبل أن يتقابلا في زمن الحب الصادق،
عندما كان يركع العاشق أسفل نافذة الحبيبة، يبثها همسات
قلبه وكأنها ممزوجة بالخمير، تتسلل إلى روحها تدفنها بخدر
لذيذ، يسكب على وجهها وهجا يزيد حلاوة، وشعاع فضي
أتى من لدن القمر المتطفل.. يحرس عشقهما النقي كزهرات
بيضاء نبتت في حضان الربيع . لم يخف كلاهما حبه منذ
أول لحظة تعانقت فيها العيون، طرعا في ضوء النهار أمام
الجميع . الفضل في لقائهما الأول يرجع للأمنية الشعرية
التي نظمها طلبة وطالبات كلية الآداب على مسرح الجامعة
. اجتذبت عادل طالب كلية الطب، يرى في الشعر مفتاحا
للأحاسيس كلها، يروي المشاعر ويجعلها رطوبة دائما .. لا
يفوته محفل شعري .. يبكر في الذهاب ليكون في الصفوف
الأولي . في تلك الليلة ذهب وهو يمني نفسه بتذوق أبيات
من الشعر الجميل .. لم يستمع إلا لبعض منها بدأت بها
الأمسية، همست بها شفتا ميرفت، تاه بعدها في كل بحور
الشعر .. تجاذبته في مد وجذر.. ترك نفسه للماء ينقله لرمال
الشاطئ، ثم يعود به لليم في ليونة ورخاوة دون أن يجهد
ذراعيه في العوم . التقت عيناه بعينيها وهي تغرد بكلماتها
الرفيقة :

سمعت صوت نداءك

مع القمر

كحضن أُمي الحنون

مع الشمس

يبث الدفء في قلبي

مع النجوم

يبعث كعددها قبيلات

مع القمر والشمس والنجوم

سمعت صوت الحب يا حبيبي

نالت ميرفت حزمة كثيفة من التصفيق عقب انتهاء
قصيدها، لم ينتظر عادل كثيرا، انتقل من فوره ليجلس
بالمقعد الخالي بجانبها، همس في رقة وبسطة متناهية :

— هل أعددت هذه القصيدة خصيصا من أجلي ؟

— نعم .. أجابت ميرفت ببساطة أكثر ووجهها مزدان بابتسامة
رائعة وحمرة تشربت بها وجنتاها .

قال عادل وهو يلتهم قسما من وجهها :

— هذه أول مرة تريني فيها .

قالت ميرفت وهي تغرق في نظراته العميقة :

— من يصادق الشعر يرى ويحس بخياله ما لا يراه ويحسه الآخرون. وأعتقد أيضا أنها المرة الأولى التي تراني فيها، وبالرغم من هذا أحسست بعينيك تفرضان حصارا حولي وأنا ألقى بقصيدتي حتى لا يراني أحد غيرك .

قال عادل ونبرات صوته تضمها إلى صدره :

— أنتِ على حق .. عشقي للشعر كان يهمس في أذني دائما بأنني سأعثر على فاتنتي مخبأة في قصيدة رائعة وها هو قد حدث.

قالت ميرفت وشعور تملكها بأنها تعرفه منذ زمن بعيد :

— هل تظن أن الملائكة سجلت اسمينا في قاموس الحب منذ ولادتنا، وهي التي دبرت هذا اللقاء .

— هذا مؤكد.. كفى ودعينا نغادر المكان لأستمع بصفاء عينيك في مكان هادئ.

— ألن ننتظر حتى تنتهي الأمسية .

— أشعر أنني استمعت لكل أشعار العالم في قصيدتك.

يومان حالكان واصل فيهما الليل سطوته على النهار ..
 لم تشرق شمسهما لتخفف عن سليم كآبة التفت حول عنقه،
 وكادت أن تزهق أنفاسه، يجلس أمام دكانه ينتظر الأمل في
 أن تزغرد رائحة عطرها فينقلب الشارع كله إلى حديقة يغرد
 فيها قلبه بشجي الألحان .. مع تسرب الأمل لم يسمع من
 قلبه سوي دقات حزينة، ألبيت كل شئ من حوله سواد ليلة
 غاب فيها القمر، هربت النجوم فأسدلت عتمتها القاتمة أمام
 عينيه . حسب اللانحة اليومية لمرور فانتته، كان المفروض
 أن تشرق عليه خلال هذين اليومين أربعة مرات، عقب المرة
 الأولى أحس بإحباط، الثانية قفز الحزن فوق كتفيه، الثالثة
 افتрشت الكآبة قلبه، وفي الرابعة انتزع اليأس روحه وطار
 بها بين الخرائب . طار شعاع عقله في كل اتجاه .. ماذا
 حدث ؟ لماذا تستكثر الدنيا على البشر لحظات السعادة، ما أن
 تشاهدهم يلمسون طرفها حتى تنتزعها من أمامهم بجبروت
 الطغاة، من المخطئ الدنيا أم هو . ثلاثة أسابيع مضت منذ
 أول مرة استنشق حلاوتها. وبالحساب تكون خطرت من أمامه
 ست وثلاثين مرة، كل يوم مرتان، باستثناء يوم الجمعة

الذي أطلق عليه اليوم الميت حيث لا انتظار ولا رؤية. لماذا لم يبادر باتخاذ خطوة نحوها ؟ لماذا لم يلق أمامها بقلبه ويصرخ انظري ماذا فعلت به ؟ حاولي أن تنسحي من داخله، إذا نجحت فلن أكون جديراً بأن أقف أمامك ثانية . من أول رؤية نفذت بقوة سحريه داخله، آه.. جبت ولم أفعل، تسمرت قدماي ولم أعدو خلفها، خشيت أن أفقد حتى هناء انتظارها . امتطاني الخوف المقيت، بالرغم من شبه الابتسامة التي كانت تطل من بين شفتيها عندما تلتقي نظراتي بسحر عينيها، قبع في مكاني مثل فتوح ومنصور وعطوه وفاضل تلهث نظراتي خلفها، فقط أنتظر ذهابها وإيابها . كنت على وشك استجمع شجاعتي، وأطلق لساني يبعثر كل ما في قلبي تحت قدميها . تعجلت بالاختفاء . مصيبة أن تكون سافرت لأي مكان . حتى الآن لا أعلم عنها أي شيء. اكتفيت بالعنوان ولم أنفذ للـب الموضوع . انتهى كل شيء، سأظل في هذا المكان أجتر الحسرة . لم يدر سليم بالزفرات المحترقة، التي كان يقذف بها من وقت لآخر تائهاً في أفكاره، صوته الفت نظر فاضل الحلاق وفطن لسرها، أخذ مقعده وانتقل إلى جانب سليم ومال نحوه قائلاً:

— زفرات الهوا نادتنني، فهل تحبها ؟

أجاب سليم سريعاً وقد فطن لمقصده :

— من هي ؟

قال فاضل مبتسماً :

- صورتها مرسومة في عينيك فلماذا المداراة ؟
- هل كنت تراقبني ؟
- الموضوع غير محتاج لمراقبة، جميعنا كنا ننتظر قدومها، شعاع عينيك فضحك وباح بما في داخلك، نحن لا نملك سوى النظرات، أنت لديك ما يُمكنك من مد حبل الوصال بينك وبينها .
- ماذا تقصد يا فاضل ؟
- القصد واضح .. نحن لا نستطيع الاقتراب منها ،لكن أنت شاب ومتعلم مثلها ووسامتك لا تخطئها أعين الفتيات .
- سأل سليم بلهفة :
- وهل تظن أن ما تقوله كاف لكي يداعب قلبها .
- أجاب فاضل مطمئناً :
- أعتقد أن المداعبة بدأت .. كثيراً ما كنت أحسدك وأنا أشاهد على وجهها إنفراجة الرضا عندما تمر بجانبك، توقعت أن أراك يوماً في أعقابها لكنك لم تفعل .
- قال سليم وقطرات من الندم تناوش عينيه :
- خشيت صدها .

— لا يفوز بالحب إلا من يعرف الاقتحام .

سأل سليم والأمل يراوده :

— الحب ينتهي بالزواج .. فهل تظن أنها ستوافق بي كزوج .

قال فاضل وهو ينهض ضاحكاً :

— سأجيبك على هذا يا صديقي بعد انتهائي من الزبون الذي
دخل إلى الدكان الآن .. الحب يمكن أن ينتظر، لكن أكل
العيش لا ينتظر.

عبر فاضل للجهة الأخرى من الشارع حيث دكانه وزبونه
المنتظر، وعبر سليم بأفكاره لواد الحب والزواج وليالي
وردية مع فانتته .

يده تقبض على يدها، يخشى أن تفلت منه، تأملت ميرفت روعة الحديقة المترامية الأطراف التي تحتضن فيلا بيضاء، تتوه العين بين أرجائها، تُبَيِّء عن ذوق التصميم . بجانب أحد أضلاع حمام السباحة، تجلس سيدة فوق أحد المقاعد الملتفة حول منضدة مستديرة، أمامها فنجان ممتلئ بالشاي، لم تخف الأمطار الفاصلة بينهما المهابة التي تحيط بوجهها، جمال هادئ وقور وأناقة متميزة . ابتسمت السيدة، نظرت إلى عادل وقالت بصوت رقيق :

— هذه المرة الأولى التي تعود إلينا وفي يدك شيء جميل يا عادل، اعتدنا أن يصحبك زملاء من الجنس الخشن .
ضحك عادل وقال ونظرة مبتهجة تطل من عينيه :

— أقدم لك ميرفت يا أمي .. جُنْيَة قفزت من بحور الشعر، فتلقفتها قبل أن تغوص ثانية .

لم تدر «سميحة» والدّة عادل ما الذي دعاها لأن تنهض،
لتأخذ ميرفت بين ذراعيها وتقبلها .. انجذبت إليها كغراشة
نحو الضوء، قهقهه عادل قائلاً :

– يبدو أن هذه الجنية ستأسر قلوب الجميع من النظرة
الأولى .

قالت والدّة عادل وهي تحتضن ميرفت بعينيها :

– لست أعرف بحور الشعر، لكن أعتقد أن هناك بحراً يسمى
بحر الرقة والجمال، هو الذي قفزت منه هذه الجنية .

قالت ميرفت بصوت ممتلئ بشعور حقيقي :

– إحسست وأنا في حضنك يا سيدتي بأنني في حضن أمي،
بالرغم من أن هذه المرة الأولى التي أتشرف برويتك .

قال عادل وهو ينفذ بينهما ويحيط خصريهما بذراعيه :

– حديثكما أثار في نفسي الندم على إحضاري لجنيتي هنا،
تبعثران العواطف بينكما ولا ينالني منها حتى الفتات .

عادت السيدة سميحة لمقعدها وعيناها لا تزالان ترمقان
وجه ميرفت برقّة وقالت :

– لكم تمنيت أن أنجب ابنة مثلك .

تولى عادل الأجابة ضاحكاً:

— إذا اشكريني يا أمي فلقد حققت لك أمنيتك .

— لست أنا وحدي الذي سأشكرك.. عندما يعود والدك بعد قليل، ويشاهد جنيتك التي قفزت من بحور الشعر سيشكرك أيضا . تطلعت والدة عادل إلى السماء وبدا على وجهها ابتسامة رائعة هي صدى لذكريات جميلة، نظرت إلى ميرفت ووجهها لا يزال يحمل نفس الابتسامة .. رحل عقلها للماضي تلمس حلاوته في كل مناسبة وقالت :

هل تعلمين أنني تقابلت مع الدكتور « عزيز علوي »، بنفس أسلوب تعارفكما .. ليلتها كنت في عرس ابنة عمتي وكان هو صديق لإخيها .. في وسط الزحام التقت أعيننا، سار كلانا نحو الآخر وكأننا في حلم، أمسك بيدي وهمس في أذني :

— لا أرى أي طاقة في السقف، من أين هبطت يا ملاكي الجميل .. انتظرتك طويلا، لم أكن أعلم أن مواعيدي معك هذه اللحظة التي ستكون عنوان لحياتي القادمة، ما قرأه داخل عيني كان فيه الكفاية، أمسك بيدي قائلا : هذا الحفل لا يهم سوى العروسين فدعينا نستنشق نسيمات الحب الوليد في هواء الحديقة . لم نتحدث كثيرا، لم نكن في حاجة للحديث، في نفس الليلة خطبني عزيز، أجمل أمنية أهداها لي القدر الذي لم يلق علينا سوى بثوب السعادة، أنجبنا سامي الذي يدرس دكتوراه في الطب في أمريكا

ثم عادل، أمنيته التي لم تتحقق في أن أنجب ابنة، أبنى
أن يحرمني القدر منها، وأرسلك إلى عادل لتكوني ابنتي
التي انتظرتها .

كادت دموع السعادة تقفز من عيني ميرفت، لا تصدق ما
حدث.. كالحلم خفق قلبها لعادل .. كالحلم وجدت نفسها في
حضان أمه الدافئ، ليعوضها عن حضان أمها التي فقدتها،
لتعيش وحيدة مع أبيها الكاتب الكبير ناجي عنايت . رفض
الزواج ثانية من أجلها، كان لها كل شيء . اكتملت سعادة
عادل، الكاتب ناجي عنايت الذي يعشق قلمه، هو والد فتاته
التي كان يحلم بها، فقفزت أمامه كجنية من بحور الشعر كما
أطلق عليها .

لا يصدق أحد أن هذا القصر الذي يشبه قصور السلاطين ملكاً لـ «جاء الكومي»، أو المعلم جاد النقاش كما أطلق عليه أهل الشارع سابقاً، أو جاد بك الآن . انفرج فم جاد بك عن ابتسامة عائمة وبدا ركنا شفتيه كقطبي مغناطيس متنافرين، أحدهما يجنح نحو العظمة والمباهاة، والآخر يجنح نحو الذل والهوان، عظمة ومباهاة بما خلفهما من ثروة لا تحصى ولا تعد، وذل وهوان وخلفهما قصة بدأت برحيله عن قريته .

رحل جاد الكومي ذات ليلة في سكون وصمت عن قريته التي ولد وتربي بها في صعيد مصر . لم تخطو قدماه خارجها منذ ولادته، حتى تلك الليلة التي خرج فيها كالعادة وهم يظنون أنه ذاهب إلى مقهى القرية كعادته اليومية . انحرف عن طريقه ليسلك الطريق المؤدي إلى محطة القطار، لا يشغل رأسه سوى كيفية بلوغ هدفه إلى القاهرة . يكتسحه شعور هيمن على عقله تماماً بأنه يجب أن ينسلخ عن جلده كما ينسلخ الثعبان . خلبت لبه مناظر القاهرة ونساءها والعيش بها، طالما حلم بها عقب مشاهدته لأفلام الفيديو .

اتخذ قراره بترك زوجته وطفليه وأرضه وأبيه وأمه، دون أن يحرك هذا القرار نبضة واحدة من نبضات قلبه . تضافرت عليه أنانيته وكبت أبيه وزوجته المهملة في نفسها، ترى في الماء وباء يمكن أن يقتلها، لا تقربه من جسدها إلا إذا زجرها . كل هذا دفعه لأن يلقي بكل شيء خلفه . هرب من القرية بجلبابه الذي لم يكن يمتلك غيره، وبضعة جنيهاً جمع بعضها من لعب الورق على المقهى والبعض الآخر كان يختلسه من أبيه الذي كان يوكل إليه بيع محصول البرسيم . كان عليه أن يتدبر أمره للمعيشة بالقاهرة بما يتبقى بعد أن ينتقص منه ثمن تذكرة القطار بعربة من عربات الدرجة الثالثة . دوت دقات قلبه مع صفير القطار، هذه هي المرة الأولى التي ستطأ قدماه هذه المركبة، كان يراها من بعيد تتلوى كالثعبان على القضبان وهو يعمل في الأرض ويحسد من بداخلها . دلف إلى إحدى عربات الدرجة الثالثة، القطار بأكمله مخصص لنقل ركاب الدرجة الثالثة فقط، يتلأأ في سيره ويقف علي كل مركز ليتلقف بعض الركاب في جوفه ضارباً بالوقت عرض الحائط ليقطع المسافة إلى القاهرة في اثنتي عشرة ساعة . لم يكن يتخيل أنه سيجد هذه الحياة الكاملة داخل العربة، لا ينقصها سوى بعض الأسرة صنعت من جريد النخيل، لتتحول إلى بيت متحرك كبيوت القرية التي تركها خلفه، كل شيء داخل العربة يعطيه إحساس بأنه لم يترك القرية بعد . موقد الجاز الذي وضع فوقه بكرج (إبريق)

تنطلق منه أبخرة تحمل رائحة الشاي المغلي، التف حوله في جلسة أرضية زمرة من المسافرين يقطعون الوقت في دردشة ساذجة، لتنطلق بين الوقت والآخر ضحكات أكثر ساذجة، مثيرين عداوة صامتة بينهم وبين بائع الشاي المتجول . في زاوية أخرى تربع مسافران فوق أرض العربية وأمامهما قفة مملوءة بأعواد القصب، تم تجزئته حتى يمكن حشره داخل القفة، تمتد أيديهم في حركة مستمرة لتلتقط عقله من داخل القفة يعملون فيها أسنانهم، ليضيفوا طبقة أخرى من القشور التي استنزفت عصيرها لأخر قطرة . منزل قروي متحرك حتى في نوافذه الغائبة أو المهشمة أجزائها، تزف الهواء المحمل بالأتربة داخل العربية، تكسب فتحتي الأنف للمسافرين شكلا يشبه فوهات المداخل، روائح مختلطة لأطعمة شعبية تندمج مع بعضها، يكون ناتجها رائحة مشتركة تتفتح لها الشهية بالرغم من بساطتها . ابتسم جاد وقد خاب أمله في أن تبدأ رحلته بشيء يختلف عن القرية وما فيها، بدرت منه أول بادرة ذكاء، كان مستتراً خلف جدران فرضتها عليه العقول الضيقة التي كان يتعامل معها في قريته، حينما ابتسم للنصاب الذي يجلس بجانبه وقد قادته حاسته إلى جاد، يظن فيه ساذجة القرويين، لعبته انكشفت من اللحظة الأولى، فضل الفرار قبل أن يتجمهر المسافرون عندما ارتفع صوت جاد قائلاً:

— لا أملك سوى الجلباب الذي أرتديه، فهل تريد أن أخلعه لك ولن تجد به سوى بضعة قروش .

اثنتا عشرة ساعة ونصف استغرقتها الرحلة للقاهرة، لم يغمض له جفن، تنازعت الأفكار بين الحقيقة التي خلفها وراءه، والمجهول الذي ينتظره، وبدا وهو يهرول تائها على رصيف المحطة كجمل انسل من وسط القطيع في شوارع المدينة .

القلق ينتفخ داخل سليم، ينتظر فاضل الحلاق حتى ينتهي من الزبون الذي بكر في الحضور، قطع عليه حبل الحديث الذي غاص فيه حتى أذنيه مع فاضل . آس لفاضل وأصبحت قصة عشقه لناديه مشتركة بينهما، لم يدر لماذا أحس براحة نحو فاضل أكثر من باقي جيرانه، ربما لتقارب السن بينهما ففاضل يكبره بثمانية أعوام فقط، وقد يكون لبعض التعليم الذي ناله بحمله لشهادة متوسطة . السبب الأرجح أنه كان يرى فيه المتعاطف الوحيد مع ناديه، مع كل جولة من جولات الهجوم على سلوكها يفتتحها عتوة الجزار وتنتقل إلى فتوح ثم منصور، يُهدأ فاضل من سعيها، تصل إلى عتوه ثانية فتزداد اشتعالاً . كان يجلس صامتاً يشعر بسهامهم المسمومة التي يطلقونها على شرفها تصيب كبده، يكظم غيظه حتى لا يفتن أحد منهم إلى ولعه المستتر بها . بعض الارتياح وهو يرمق فاضل وقد انفذ من زبون الصباح عائداً لمقعده بجانبه .

قال سليم والقلق ينبض مع كلماته .

- لماذا تأخرت ؟
- أجاب فاضل مازحا .
- ماذا ترى ؟ هل كنت تريدني أطلب من الرجل أن يعود في يوم آخر لأكمل له قص شعره .
- ليس بالضبط، لكنك استغرقت وقت يكفي لقص شعر رأسين .
- قال فاضل ضاحكا :
- في هذه عندك الحق .. فالرجل لا يوجد برأسه أكثر من عشر شعرات ويظن أن الحلاق قادر أن يملأ بهم رأسه !!
- قال سليم متلهفا ليوصل ما انقطع من الحديث عن نأديه :
- دعنا من الرأس العارية ولنعد إلى حديثنا .
- سأل فاضل وهو يتأمل وجه سليم بعطف :
- أين انتهينا ؟
- لقد توقف الحديث عند إشارتك بأن أقترحها وأعرض عليها حبي، وقلت لك بأن الحب يعقبه الزواج فهل أعرض عليها الزواج أيضا .
- قال فاضل ناصحا :
- مسألة الزواج هذه تعود إليك.. يجب أن تعرف كل شيء

عنها، الزواج يا صديقي ليس بالأمر الهين.

قال سليم والقلق يساوره :

— ماذا تقصد ؟ !!

قال فاضل وهو ينظر للأرض :

— إن بعد الظن أثم.. لكنهم يقولون أن الثراء الذي يسبحون فيه الآن، حصيلة السلوك المعوج للأُم، وللأسف تُمادت الشائعات في أن كل شيء كان يتم تحت سمع وبصر الزوج !!

سأل سليم وأمل يراوده أن يستمع لإجابة بالنفي :

— هل تصدق هذا ؟

أجاب فاضل هارباً من قول قد يؤلم سليم :

— الله أعلم .. بدأت الحديث بقولي إن بعد الظن إثم .

سأل سليم وقد لمس في فاضل حرصه على أن يكون محايداً :

— وماذا أيضاً عنهم ؟ ..

— هل تعلم أن ناديهِ في السنة النهائية بمعهد السينما ؟ يقولون أنها تعمل الآن في الإعلانات، ولست أعلم إذا كان يناسبك وضعها هذا كزوجة أم لا .

.. قال سليم بصوت يعلن عن الدهشة، أفلقتة صعوبة
جديدة اعترضت طريقه :

— هذه المرة الأولى التي تقفز هذه الحقيقة أمامي، كنت
أظنها تدرس في إحدى كليات الجامعة.

— أقدر ما أنت فيه، لاحظتك منذ اليوم الأول ولمحت قلبك
وهو يعدو خلفها، أهاك هذا عن السؤال عنها، كنت
أشاهد الضيق يقهر وجهك عندما كنت تسمع أحد يخوض
في سيرتها .

قال سليم وكأنه يستنجد برأيه :

— أشعر بثقة كبيرة وارتياح نحوك يا فاضل، بماذا تنصحنني ؟
قال فاضل ضاحكا ليدفع الجراءة إلى داخله :

— هل سمعت عن المثل العامي الذي يقول.. «أقطع عرق
وسيح دم» .. هذا هو المطلوب منك، المجابهة .. قابلها
وناوش قلبها، إذا استجابت، من السهل بعد ذلك أن تتخذ
الخطوة التالية. أسألك أن توضح لك كل شيء بصراحة .
وإذا لم تستجب عد إلى مقعدك واقنع بالتغزل في عطوه
الجزار .

سأل سليم حائراً :

— كيف سيتم هذا وقد اختفت منذ يومين ؟ .

- لا أعتقد أنك بهذه السذاجة .. الحل سهل، إن لم تظهر خلال الأيام القادمة، اذهب إلى معهد السينما، وإن صعبت عليك مقابلتها هناك، سأبذل جهدي لكي أحصل لك على عنوانها الجديد، بعدها أعتقد أنك ستعرف كيف توجه قدميك للخطوة التالية .
- سأعمل بنصيحتك يا فاضل، أشكرك على ما أبديته نحوي من تعاون .
- قال فاضل وهو يعبر الشارع عائداً إلى مجلسه أمام الدكان :
- أتمني لك التوفيق وانتظر أخباراً سعيدة.

الحديث ينتقل في سلاسة ويسر بين عادل ووالدته وميرفت بجانب حمام السباحة، في انتظار حضور أبيه ليقدّم له ميرفت كما قدمها لوالدته، الانتظار طال على غير المتوقع، مما دفع عادل لمهاافته يستعجله العودة . أخبروه أنه يجري عملية جراحية لن يفرغ منها قبل ثلاث ساعات على الأقل، ألقت ميرفت بنظرة إلى الساعة التي تزين معصمها، نهضت مبتسمة :

– تأخر بي الوقت ومضطرة للاستئذان .

قالت والدّة عادل وهي تقبلها :

– بودي لو أمسك بك ولا أدعك تذهبين، لكم أحببتك .

وقالت ميرفت ومسحة من الحزن اكتسى بها وجهها:

– بالرغم من أنني لم أتعرف على حضرتك سوى من وقت قصير، إلا أنني أشعر نحوك كما لو كنتِ أمي التي لم أرها .

قال عادل محتجاً :

— بدأت أغار من حديثكما، أشعر بأنني طردت خارج دائرتكما..

قالت والدته :

— ستشعر بالغيرة أكثر عندما تتزوجان بإذن الله، وتأتي ميرفت للإقامة بيننا وأدللها كطفلة صغيرة أنجبتهـا .

— لست أخشى من هذا فأنا متأكد من أن مستودع حنانك على الجميع لا ينضب .

— هيا تصحبكما السلامة قبل أن يشعر والدها بالقلق لتأخرها .

— عندك الحق يا أمي فمن لديه ابنة مثل ميرفت، لا بد وأن يشعر بالقلق عندما تبعد خارج نطاق عينيه ولو لبضعة خطوات .

قالت ميرفت ضاحكة :

— لا تكن مبالغاً يا عادل فأنت لم تلتق بي سوى اليوم .

قال عادل :

— هيا بنا فأنا في اشتياق لأن أتقابل مع حما المستقبل وكاتبتي المفضل الذي أعشق كتاباتهـه .

توقفت ميرفت ونظرت نحوه وعلى وجهها ابتسامة حائرة وقالت:

— إنك تمزح .. هل تود مقابلة والدي الآن ؟

قال عادل وهو يقبض على يدها :

— ولما لا ؟ .. إذا لم تسمع أُنْذائي موافقته على ارتباطنا لن يغمض لي جفن :

— وماذا سأقول لأبي ..؟ هل أقول له سامحني يا أبي فأني لم أكن أعلم أنني سأقابل مجنون جميل اليوم .

قال عادل وهو يحدق في عينيها وضوء القمر ينسكب فوق وجهيهما :

— لا تخشى شيئاً .. أنا الذي سأتولى الإجابة بالنيابة عنك، وأقول له ..الحب نوع من الخمر الحلال، صنعه الله ليستقي به من رضى عنهم، ليدخلوا في غيبوبة جميلة لا تخضع لأي قياسات، وتتوقف عندها الأزمنة والمواقيت .. أليس هذا قولك أيها الكاتب الكبير .. من المؤكد أنه لن يستطيع التملص من قوله وسيمسك برأسينا ويقول .. بارككما الله ولتنعما بهذه الغيبوبة الجميلة..

همست ميرفت ونظرة ملائكية تطل من عينيها :

— لو قرأ أبي ما قرأته في عينيك الآن، فإنه سيضعنا في غرفة ويغلق علينا الباب قائلاً : امكثا بها وعيشا ما بقى لكما من العمر، فلستما في حاجة لأي شيء من احتياجات البشر .

دفعها عادل برقة وهو يقول حالما :

— أرجوكِ قودي سيارتك فوراً وسأتابعك بسيارتي فأنتي
أشعر بالغيوبة الجميلة تلفنا، وأخشى أن نضل في مكاننا
للأبد نتاجي حيث لا شمس ولا قمر .. الفجر فقط .

قالت ميرفت ضاحكة :

— أخطر فقد أروغ منك في الطريق، حتى تضل الوصول إلى
منزلي .

قهقهه عادل قائلاً :

— كلانا سيقود السيارة بقلبه، وبين قلبينا رباط لا تستطيع
قوة أن تفصله .

كما توقع عادل كيف سيكون اللقاء بينه وبين الكاتب
«ناجي عنايت»، لم تبدو في عينيه سوى نظرة عتاب رقيقة،
يسأل ميرفت عن سبب تأخرها، استطاعت بقبلتها الرقيقة
وابتسامة حلوة أن تمحوها سريعاً، لتمتلئ عينيه بنظرة حنان
وحب فيحتويها بين ذراعيه كطفلة صغيرة، ضحكت وهي
تشير نحو عادل وتقول :

— إذا كان هناك من يستحق العقاب فهو هذا المختطف يا أبي .

— كيف أصدر حكماً بالعقاب عليه ولم تعرفيني به بعد ؟!

أجابت ميرفت بحب خط على وجهها أروغ لوحة فنية للجمال :

— إنه عادل ابن الدكتور عزيز علوي الطبيب المعروف يا

أبي، هو أيضا سيصبح طبيباً العام القادم بإذن الله .

سأل ناجي عنايت والابتسامة لم تفارق شفثيه؟

– وما الذي جمع طالب الطب مع طالبة الآداب

– يقول عادل أنني جنينة خرجت من بحور الشعر .

– إذا فالشعر هو الذي جمع بينكما .

قالت ميرفت وقد التحمت نظراتها مع نظرات عادل :

– نعم يا أبي شعرنا بأن أبياته التفت حولنا، لم نستطع

منها فكاك، ذهبنا سوياً وقدمني إلى أمه الطيبة، ثم أصر

أن يأتي معي لأقدمه إلى كاتبه المفضل .

قال ناجي وعيناه تتفحصان عادل بإعجاب :

– ألن تدافع عن نفسك يا فتى قبل أن أصدر حكمي .

– ليس لديّ ما أقوله يا سيدي، سوى إنني لم أذق الشهد

طوال حياتي، كما تذوقته في أبيات الشعر وهي تناسب

من بين شفثيها، خريير المياه العذبة في الجداول،

انجذبت للحديث معها، دون أن أدري كبلت قلبي بخيوط

حريرية، قالت حاول الفكك، لم أحاول، استسلمت للأسر

بكامل إرادتي .

قال ناجي عنايت مبتسماً وهو يربت فوق كتف عادل :

- دفاع قصير جدا لكنه أقوى دفاع سمعته في حياتي .
- قال عادل ببساطة :
- أفهم من هذا أنك ستنظر إلى قضيتي بعين الرحمة يا عمي .
- قال وفي عينيه نظرة تفهمها ميرفت جيدا :
- لن أنطق بالحكم قبل أن نحتسي الشاي من يد ميرفت .
- قالت ميرفت وهي تنسحب من الغرفة :
- أمرك يا سيادة القاضي ..، تعلم أن أبيها يقصد أن يبعدها ليكون له حديث خاص مع عادل، ميرفت لا تعد الشاي، لديهم خادم خاص للمضيفات.
- نظر ناجي عنایت نحو عادل مدققا ثم قال :
- فوجئت بك الليلة، ميرفت لم تخبرني بأي شيء عنك من قبل، منذ متى كان تعارفكما ؟
- قال عادل وهو يعد نفسه للدفاع عن حبه :
- تعارفنا ولید ساعات قليلة يا عمي .
- قال ناجي عنایت مندهشا :
- منذ ساعات قليلة وأتيت لتخطبها يا عادل !؟
- أجاب عادل :

– شرارة الحب الطاهر تتولد في ثوان، وإذا تولدت من المستحيل أن تنطفأ .. قرأت لك كثيراً عن الحب يا عمي وقولك هذا إجابة كافية لسؤالك .

– سعيد باستماعي لإجابتك، لكن هناك أشياء لا بد أن أحدثك بها، من حقك أن تعرفها علي أن تكون سرا بيني وبينك فقط ولا تُعلم بها ميرفت، سأحدد لك موعداً لنتقابل فيه على انفراد دون علم ميرفت .

قال عادل وقد انتابه بعض التوجس :

– رهن إشارتك يا عمي ..

قطع رصيف المحطة جينة وذهاباً، المرة الأولى له خارج قريته، أفرغ القطار حمولته من الركاب، مُخلفين وراءهم عرباته وقد امتلأت بفضلات الطعام وقشر القصب، لتزيدها بشاعة فوق بشاعتها . نسى جاد الكومي أو تناسى كل شيء عن القطار، وجد نفسه تائها حتى عن باب الخروج للطريق . الناس حوله تسلك في كل اتجاه، لا يدرى أي مجموعة يسير في ركابها حتى تطأ قدمه الطريق، بعدها يتدبر أمر مواصلة تقله إلى معرفته الذي يعمل في طائفة المعمار . لا يعرف عنه سوى أنه يجلس بعد انتهاء يومه من العمل الشاق على أحد مقاهي شبرا، لم يكن الأمر بالسهولة التي كان يتوقعها، سأل أحد المارة عن كيفية الوصول إلى المقهى التي يرتادها عمال البناء في شبرا . سخر منه وقد رأى فيه القروي الساذج .. بطل من أبطال النكت التي تطلق على أبناء الجنوب .. مازحه قائلاً : يمكنك أن تجلس مكانك، سأرسل لك المقهى برواده حتى لا تتحمل مشقة الذهاب، فطن جاد الكومي إلى مزحة الرجل السخيفة، كاد أن يطلق يده في وجهه، تراجع خشية مشكلة ولم تمض عليه سوى لحظات في القاهرة . لم يتلق جاد سوى

نظرات السخرية إجابة عن سؤاله الساذج، لا يعلم أن حي شبرا توجد به مئات المقاهي التي تمتلئ بالعمال كل ليلة . غربت الشمس وهو لم يزل يسأل، شعر بالألم يمزق قدميه اللتين لم تتوقفا لحظة واحدة عن السير، خشي أن يستقل الحافلة فتأخذه إلى جهة لا يعرف كيف يخرج منها ثانية، علاوة على حرصه أن يتدبر كل قرش معه، حتى يضمن على الأقل قوت يومه، إلى أن يعثر على معرفته الذي وعده بالعمل فور قدومه . أجبره الظلام للجلوس في مقهى صادفه في طريقه، أسكت صراخ معدته، أغرته رائحة الفول والطعمية المنبعثة من المطعم الذي يجاور المقهى، بعض الارتياح وهو يرتشف من كوب الشاي بصوت لفت الأنظار إليه، لم يبال بالعيون المحمقة في وجهه بعد أن شعر بالسكينة في معدته، أودع بداخلها أربعة أرغفة ممتلئة بالفول والطعمية، أنسته مؤقتا مشكلة البحث عن معرفته . لم يشعر بالارتياح للنظرات التي يرمقه بها الجالس على المنضدة المقابلة له، أثار جرح قديم يعتلي جبهته، شغل نفسه بالمعركة المحتدمة بين مجموعة تلعب الورق وهم يرمون زميلهم الذين يطلقون عليه القشاش بنظرات نارية، اعتاد أن يسلبهم أموالهم التي يشقون بها طوال النهار، تراودهم الشكوك في أنه يغش في أوراق اللعب، لم يتمكنوا من اثبات التهمة بصفة قاطعة، وإلا كانوا مزقوه كما يحدث بين الوقت والآخر في هذا المقهى الذي تحيط به الشبهات من كل جانب . انتبه جاد إلى صاحب الجرح وقد

انتقل للجلوس على نفس المنضدة التي يجلس عليها، ابتسم
ابتسامة كشفت عن فم ممتلئ بقطع من الأحجار الصفراء،
اعتلى بعضها حفر سوداء نقيبها السوس . بالرغم من قروية
وقدمي زوجته المشقتين لم يشعر بهذا القدر من الاشمزاز
من قبل . جامله القدر ليرى من تقززه، أرسل بسيارة شرطة
داهمت المقهى، هدفها البحث عن صاحب الأسنان المنفرة
وجيبه العامر بالمخدرات . قبل أن يفيق جاد وجد نفسه
مجدولا بين إثنين من المخبرين يتبادلان صفعه بتلذذ واضح،
أرغم على الدخول لداخل سيارة الشرطة ليرافق ذو الأسنان
المنفرة وبضعة أشخاص تحوم حولهم الشبهات . أوقعه حظه
السيئ بانتقال ذو الأسنان المنفرة للجلوس معه على منضدة
واحدة، اعتبروه شريكا معه بالرغم من محاولاته المستميتة
وصراخه لتبرئة نفسه، في النهاية صمت لسانه تحت وطأة
الصفعات الثقيلة . الشعور بالندم على تركه لقريته والإحساس
بالمهانة ويداه رهيئتا القيد الحديدي، أو عزتا لعينيه لترسلا
بدموعهما أمام الضابط، قص عليه خطواته منذ أن حطت
قدماه على رصيف المحطة . حالفه الحظ باعتراف صاحب
الأسنان المنفرة بأنه لم يره قبل هذه اللحظة . اقتنع الضابط
ببراءته وأمر بإطلاق سراحه . توسل إليه جاد أن يبقيه حتى
الصباح لأنه لا يعرف أين يذهب، أشفق عليه الضابط . أبدى
جاد همة في خدمته وتنظيف مكتبه طوال الليل وتسليته في
نوبتيته بحكاياته عن القرية، مما دفع الضابط أن يرسل

معه شرطي يرافقه ليريه المقهى الذي يتخذ طائفة المعمار
مقرأ لهم، يحتسون به الشاي صباحا ويسهرون به ليلا . قفز
الحظ أمام جاد بعد معاناة يومه السابق، ليجد معرفته جالسا
على المقهى يحتسي شاي الصباح، لم يصدق أنه يعرض
عليه ليذهب معه لبدأ العمل فورا، قَبْلَ بالرغم من الشعور
بالتعب والإجهاد طوال ليلتين، منذ أن غادر قريته لم تذق
عيناه النوم، ذهب للعمل وقد فارقه الشعور بالندم على تركه
لمسقط رأسه .

يومان آخران وسليم يجتر الصبر أملا في ظهور ناديه، خرجت ولم تعد .. خرجت من الشارع الضيق لتبدأ حياة رحبة في مكان جديد، لا تُحصى فيه خطواتها ويجهل نشأتها . تشعُر بالمهانة والعيون الوقحة تنزع عنها ثيابها قطعة تلو الأخرى، ينتابها إحساس بأنها تعرت وانكشفت كنوزها، ولولا بعض من صلابة غرستها بيدها، لتعثرت خطواتها وانكفأت على وجهها وهي تقطع الشارع بين صفين من النظرات الفاجرة . ذات يوم نفذت إلى أذنّها كلمات عطوه الجزار، ألقاها خلفها بصوته الأخف قائلا .. «اكفي القدرة على فمها تطلع البنت لأُمها»، لم تأبه له، بصقت عليه في داخلها . في اليوم الأخير لها في الشارع الضيق قبل أن تنتقل إلى القصر الجديد، فكرت أن تلقي بجميع أحذيتها أمامهم وتصرخ .. اقتسموها فيما بينكم وليحتضن كل واحد منكم نصيبه عندما يذهب إلى الفراش ويقضي وطره معها، من المؤكد أنها ستثير النشوة داخلكم أكثر من معاشرتكم لنسائكم . يتقولون بأن ثروتهم ثمناً لشرف أمها .. ما ذنبها هي .. المسنول هو أبوها . هانت عليه رأسه فألقاها في الوحل .. هي مثلهم لم تر شيئا، لم تسمع سوى

الإشاعات التي يرددها أهل الشارع .. ليذهب الجميع للجحيم . ستتحرر من كل هذا وتعيش لنفسها بعد أن تقفز قفزتها .. اختارت الالتحاق بمعهد السينما .. الدراسة ووجه جميل وقوام يتأوه وموهبة هدية من القدر، سيحققون لها طموحاتها في الوصول للنجومية من أقرب طريق . خطوتها كممثلة إعلانات ليست سوى للإعلان عن نفسها .. يجب أن تبدأ من السماء وتستمر في الصعود إلى ما شاء الله .

انتبهت نادية من أحلامها على صوت زميل الدراسة، يناديها كالعادة لينال شرف توصيلها إلى أي مكان تريد الذهاب إليه، تملكته الدهشة وهي تفتح باب السيارة مستجيبة لندائه لأول مرة، الخوف كان يدفعها في السابق من أن يعرف أنها تسكن هذا الشارع الضيق، علاوة على ما يمكن أن يحدث من أقاويل عندما يشاهدون هذه السيارة الفارهة وهي تجلس بجانب هذا الشاب الوسيم . لن تحتاج إلى الركوب بجانبه مرة أخرى، كلها أيام وتبتاع لها سيارة جديدة وعدها بها عند انتقالهم للسكنى في القصر الفاخر . من خلال الزجاج المغلق للسيارة المكيفة لمحت سليم، يختبئ خلف أحد الأشجار داخل معهد السينما، انتابه إحباط كاد أن يفقده توازنه، انتظرها لفترة طويلة، رآها قادمة، غزا الارتباك كل أجزاء جسده، استجمع قواه وأراد القفز ليعترض طريقها، يدها سبقتة إلى مقبض باب سيارة زميلها . احتجب ثانية خلف الشجرة وهبط قلبه إلى قدميه، انطرح ظلام الليل ليقتل شمس الظهيرة، انتابه

شعور بأن يلقي بنفسه أسفل عجلات السيارة، لم يطاوعه
يأسه، ليس رغبة في الحياة لكنه الخوف من الموت منتحراً،
لم يدر أن ناديه لمحته من طرف عينها وابتسمت .

عاد سليم إلى مقعده أمام الدكان، يلحق هزيمة في مرارة
العلقم، أحس بكعب حذائها الرفيع يخترق قلبه ويمزق كل
شرايينه، تجمعت في نظراته كل آلام الشهداء، لم يفت هذا
فاضل الحلاق بعد أن قرب بينهما السر المشترك . فطن أن
الأمر يتعلق بعشقه، صديقه سليم يبدو كمن اخترقت رأسه
رصاصة، لم ترديه قتيلاً لكن تركته يعاني سكرات الموت،
عبر فاضل الشارع ووقف أمامه وابتسم قائلاً :

— هل تشعر بالحاجة لي أم أعود إلى دكاني ؟

أشار له سليم بالجلوس .

قال فاضل وهو يربت فوق ركبته مهوئاً :

— أتيت يدفعني الخوف عليك وليس الفضول، أشاهد ملامحك
تذرف الدموع .

قال سليم بصوت منكسر :

— دموع ملامحي أهون بكثير من دماء داخلي .

— الحياة غير موقوفة على ناديه .. هل رأيتها؟

هز سليم رأسه بالإيجاب .

سأل فاضل :

— هل مزقت حبك وألقت به أسفل قدميها ؟

أجاب سليم بصوت الدفاع :

— مزقته دون أن تدري .

— كيف !!

أجاب سليم بكلمات مهزومة :

— في اللحظة التي وابتني الجرأة للقفز أمامها، دلفت داخل
سيارة زميل لها في المعهد .

سأل فاضل مندهشاً :

— هل هذا كل ما حدث ؟

أجاب سليم ممتعضاً :

— وماذا تريد أكثر من هذا ؟!

— ألم تكن طالباً بالجامعة يا رجل ؟ ألم تشاهد زميلة تركب
سيارة زميل دون أن تربطهما علاقة سوى الزمالة .

— وما أدراني أنها مجرد زمالة !!

قال فاضل مشجعاً :

- هذا ما ستعرفه بنفسك .. لا بد من تكرار المحاولة والتحدث معها فور رؤيتها دون تردد .
- قال سليم وشيء من الأمل عاد إلى داخله :
- هل ترى هذا ؟ .
- أجاب فاضل مقهقهاً :
- بالتأكيد .. أنت لم تواجه تجربة حقيقية حتى الآن .. أخرج من سجنك واقتحمها .

إنتم شعب تتميزون بحرارة العاطفة .. قالت «ساكي» زوجة الدكتور «سامي»، الأخ الوحيد لعادل وابن الدكتور عزيز علوي الطبيب المشهور، وهي في طريقها من المطار إلى منزل أسرته . أدهشتها مجموعة القبلات والأحضان بين سامي ووالده ووالدته السيدة سميحة وبالأخص أخيه عادل، غاب ست سنوات أنهى فيها رسالة الدكتوراه في طب الأطفال .. ازدادت دهشتها حينما تبادل الدكتور عزيز والسيدة سميحة تقبيلها وعناقها عناقاً حاراً وكأنهما تلاقيا من قبل، أما الحفيد كامى الذي لم يتجاوز العامين فقد تخاطفته أذرع الجد والجدة والعم عادل، حظى بعدد من القبلات لم يحظى بمثلها من قبل.. أدهشها تقبل الطفل مسروراً بها وابتسامه لم تفارق شفتيه، يبعثرها على الجميع، وكأن حمى العاطفة انتقلت إليه بمجرد أن تلامس مع أسرة أبيه .. علق عادل على كلماتها بقوله ضاحكاً:

– العاطفة عند الشعب المصري كالتيار الكهربائي، سريع الانتقال في الأجسام جيدة التوصيل، وأنت بانضمامك إلى أسرتنا أنت وكامى أصبحتما كهذه الأجسام .

قالت ساكي وهي تبادله ضحكة رقيقه :

— لكنك لم تخبرني عن شدة الفولت في هذا التيار .

قال عادل ضاحكاً :

— ألم أقل لك .. لقد انتقلت إليك فوراً القفشات التي عُرف بها الشعب المصري .

وعلق سامي :

— ساكي وكامي يمكنك اعتبارهما مصريين خالصين في طباعهما يا عادل .

قال عادل مقهقهة:

— هذا من حيث الطباع، لكن لا أعتقد أن تكون دشنت معدتهما أطباق الفول المدمس .

قالت ساكي بلهجة مضحكة زادت من قهقهة عادل :

— والفلفل أيضاً .

وأضاف سامي مشاركاً في الضحك :

— أضف إليهما الكشري الحار.. ثم أردف .. نعم يا عادل ساكي أحبت الوجبات المصرية، هي التي كانت تطلب مني الذهاب إلى المطاعم المتخصصة في إعدادها .. أكثر ما أحبته هو وجبة الكباب مع سلاطة الطحينة.

قال عادل وضحكاته لا تنقطع :

— إذا دعني أفتح لها اعتماد في أكبر المطاعم الني تعد الكباب حتى تتمكن من زيارته يوميا.

التقى سامي مع ساكي بعد عام واحد من ذهابه إلى أمريكا لدراسة الدكتوراه، تقابل معها في أحد المؤتمرات الطبية التي تنعقد لمكافحة مرض مجهول، لا تزال المعلومات الطبية عنه في بدايتها، وبالرغم من أن تخصص ساكي كان في مجال جراحة التجميل، إلا أنها كانت تهتم بمتابعة تطورات العلاج بالنسبة لهذا المرض اللعين، ربما كان هذا الاهتمام مرجعه لأبيها الطبيب الذي قطع شوطا كبيرا في دراسة هذا المرض، سافرت معه أكثر من مرة إلى بعض البلاد الأفريقية التي ينتشر بها هذا المرض بشدة . ساكي أمريكية من أصل ياباني تعيش في أمريكا وروحها دائما باليابان، لا يمضى عام دون أن تزور مسقط رأسها، تبحث دائما حتى عن الأطراف البعيدة من عائلتها، نشأت صلة قوية بينها وبينهم، يرون فيها الابنة الوفية لماضيها وبلادها وعائلتها.. لم تقف يوما عاجزة عن مد يد المساعدة لمن يحتاجها هناك. تسالت بخفة ورقة إلى قلب سامي أثناء المؤتمر، سقطت عيناه على الشعر الفاحم المنسدل فوق كتفيها، داعب في نفسه عشقه لليل، أحس بتقاطيع وجهها المنمنمة تتسلل دون تكلف إلى قلبه كنسمات الليل المنفلتة من حضن الطبيعة والناس نيام . قوامها رقيق ملتف بحديقة بسيطة من الزهور، جمعت فيها كل الألوان بذوق رفيع، بما عرف عن اليابانيين من حب للزهور،

يرحبون بها في أي صورة، حتى لو كانت مجرد رسوم فوق ما يرتدونه من ثياب . رآها أكثر من مرة، في كل مرة يذهب وفي داخله الإصرار على الاقتراب منها ومحادثتها، ينتهي المؤتمر وينسحب دون أن يتخذ هذه الخطوة، يلوم نفسه طوال طريق العودة وينهيه بتصميم جديد على اتخاذ هذه الخطوة . يتكرر نفس المشهد في المرة التي تليها، تردده ربما كان سببه حياء نما معه منذ الصغر. تصاعد الدم حارا إلى وجهه عندما تقدمت منه في نهاية أحد هذه المؤتمرات، وفوق شفيتها ابتسامة رائعة، لم يصدق نفسه وهي تقول :
— ألن تتحول هذه النظرات إلى حديث.

— نعم .. آسف .. لست أدري .. هل تسببت في مضايقة لك؟..
كلمات متلعثمة نطق بها سامي، لا يدري منها شيئا وقد أذهلته المفاجأة .

— ماذا بك !! ليس الأمر بهذا السوء .. لكي أبرهن لك على ذلك، سأدعوك لتناول مشروب الشيكولاته الساخن الذي يعده المقهى هنا بطريقة لذيذة .

وقعت عليه الكلمات البسيطة، كوقع السحر، ابتسم وانطلقت ضحكاته بصوت لفت الأنظار .

سألت ساكي وهي ترمقه بدهشة :

— ما الذي يضحكك .

أجاب سامي وهو يتأمل وجهها بشغف وإحساس بأن عقدة

لسانه قد انفكت عن آخرها :

— كدت أموت خوفا أن أكون قد تسببت في قلق لهذا الجمال الساحر .

قالت ساكي وضحكة رقيقة تصاحب كلماتها :

— لست أعلم لماذا صمت هذا اللسان الجميل طوال الفترة السابقة !! ألمح نظراتك لا تفارقني منذ دخولك القاعة، في كل مرة أتوقع أن تبدأ الحديث، أفاجأ بك تنصرف بنفس الطريقة، تصل إلى باب الخروج ثم تنظر للخلف لتلقي نظرة أخيرة ثم تهرب، خشيت أن يكون بعينيك حول وأن نظراتك لم تكن موجهة لي .

أجاب سامي وهو يحاول أن يخفض صوت ضحكته :

— عيناى سليمتان وقد يكون الحول بلساني الذي صمت .

انفجرت الضحكات، أمسك بيدها يقودها إلى المقهى القريب، سمعت منه ما اختزنه في قلبه طوال الفترة السابقة، اندمجت بساطتهما معا لتنتهي بالزواج السعيد وكانت ثمرته كامى . تعاهدا أن تكون طباعه وتقاليده مناصفة بين بلادها وبلاده، لم يجد منها سوى كل ترحيب عندما عرض عليها أن يستقرا بمصر، وأن يقضيا عطلتها ببلادها .. توافق جميل بين نغمت الطباع قرب التفاهم بينهما ليسير في ليونة ويسر .

الموعد متفق عليه بين عادل والكاتب ناجي عنايت، ينتظر بقلق لا يجد مبرراً له . حدد الموعد الكاتب ناجي عنايت والد ميرفت جنية بحور الشعر . هذه المقابلة ليتفاهم معه على بعض الأمور، قبل أن يوافق على خطبته من ابنته ميرفت . ترددت في ذهن عادل أفكار غير مستقرة، فكرة تجب فكرة عن سبب هذا اللقاء المنفرد بعيدا عن ميرفت، أوصاه ألا يخبرها عن هذا اللقاء . لم يكن قد تبخر في قلقه كثيراً، عندما جلس أمامه ناجي عنايت بابتسامته الواثقة المريحة ووجهه الذي يوحي بأنه يحمل أسراراً أكثر من أساطير رواياته . نظر إلى عادل وكأنه يقرأ كل ما بداخله دفعة واحدة، سألته بالرغم من أنه سبق وسمع إجابة لسؤاله في أول مرة ذهب إليه عادل في منزله :

— هل يمكنك أن تعيد على سمعي يا عادل كيف التقيت مع ميرفت؟
ضحك عادل قائلاً :

— الآن علمت يا عمي سبب هذا اللقاء، إنها بداية قصة جديدة من قصصك الرائعة .

أجاب ناجي عنايت وعيناه تخترقان سحابة الدخان المنبعثة من غليونه الذي لا يتخلى عنه أبدا.

— ولماذا لا تكون نهاية لقصة بدأت منذ فترة طويلة ؟
قال عادل وعلامة استفهام تدور في رأسه .

— القصة تقول في بدايتها يا عمي، وبالرغم من أن طائر الحب لم يلامس قلب البطل والبطلة إلا منذ فترة قصيرة، إلا أنهما سلما بأن هذا الحب ولد معهما منذ أن رأت أعينهما النور .

قال ناجي عنايت ونظراته لا تزال داخل السحابة :

— هذا بالنسبة لك، أما بالنسبة لي، فأنا أري لمسات طائر الحب لقلبي البطل والبطلة، هي نهاية قصة أحملها في رأسي منذ زمن بعيد، لكن لم أسطر فيها سطر كلمة واحدة .

— إذا كانت بداية قصتي هي نهاية قصتك يا عمي، هذا يسرني فأنا أميل للنهاية السعيدة دائما

قال ناجي عنايت وصوت الارتياح يتخلل نبراته :

— هل تتخيل يا عادل أنني كنت أحلم بأن أجد بطلا لقصتي مثلك ؟، ما سمعته منك الآن يجعلني لا أتردد لحظة في قبولك زوجا لحبيبتي ميرفت، ويؤكد بأن ما سأبوح به لك سيظل طي الكتمان بيني وبينك، لا تبوح به إلا للضرورة القصوى. كان يمكنني ألا أخبرك به، لكن الضمير والأمانة

يقتضيان أن أطلعك على كل شيء عن الفتاة التي تقدمت
لخطبتها، حجب الحقيقة أمر لا يتحمله ضميري .

قال عادل وبعض من قلق يداعب كلماته :

— أعدك يا عمي بأن أي أمر ستخبرني به سيكون سراً
بيننا، أنا أعلم أنك لن تسألني هذا إلا إذا كان في صالح
ميرفت .

هز ناجي عنايت رأسه وكأنه يؤكد على كلمات عادل،
تاھت نظراته ثانية خلال سحب الغليون الكثيفة وقال :

— منذ حوالي ثمانية وعشرين عاماً، لحقت أنا بأخي أو
الأدق بتوأمي» نظمي فكري عنايت «، هاجر قبلي إلى
أمريكا .. حصل على دكتوراه في الطب وحصلت أنا على
الدكتوراه في الأدب من جامعة هارفارد . خلال هذه الفترة
تعرف على فتاة أمريكية رقيقة جميلة، كانت زميلة له،
من أسرة غنية تمتلك ثروة لا بأس بها، تحول ما بينهما
إلى حب جارف انتهى بالزواج السعيد . وشاء القدر أن
تنشأ بيني وبين أختها علاقة حب أيضاً انتهت إلى طريق
الزواج أيضاً . لم يتبق لهذه الأسرة سوى الأخت الثالثة
ماري كان عمرها في ذلك الوقت لا يتعدى السادسة عشر
ربيعاً، عشنا جميعاً في سعادة وبهجة .. أنجب نظمي طفلة
جميلة رقيقة كأمها « كارمن » كانت بهجة لنا جميعاً، كانت
تضحكنا جميعاً وهي لا تزال في الثانية من عمرها عندما

تخلط بيني وبين أبيها نظمي الذي يشبهني تماما . في يوم قرر والد زوجتنا أن نقوم برحلة بطائرته الخاصة، كثيرا ما كنا نفعل هذا في العطلات، ذهبنا جميعا عدا ماري وطفلة نظمي التي كانت متعلقة بخالتها الصغرى، اعتذرت ماري عن الحضور معنا لتتمكن من حضور حفلة عيد ميلاد صديقة لها مصطحبة معها طفلة نظمي . طارت بنا الطائرة الخفيفة وضحكاتنا تعلو على صوت هدير محركها . فوق إحدى الغابات حاول والد زوجتنا الارتفاع بالطائرة ليتفادى الاصطدام بالأشجار المرتفعة، لم تستجب الطائرة، كان آخر شيء وعيته هو الاصطدام الشديد بأشجار الغابة والصرخات المذعورة للجميع .

فتحت عيني بعد غيبوبة لبعض الوقت، كنت في حالة لا أحسد عليها وقد علقت ملابسي أعلى إحدى الأشجار، تمكنت من الهبوط للأرض بالرغم من الآلام التي كنت أشعر بها والدماء تنزف من هذا الجرح الذي لا تزال أثاره باقية فوق وجهي وتذكرني كلما نظرت في المرأة بهذا اليوم المشئوم . اغتابت عيني أشلاء الطائرة المبعثرة على مسافة كبيرة، والدخان ينبعث من بعض أجزائها المحترقة، مشهد يطاردني في نومي ويقظتي حتى الآن، جثث الجميع ما بين متفحمة وممزقة . أدركت بنظرة واحدة أن الجميع تركوا الحياة للآخرة، كنت كمن أصيب فجأة بالبلاهة، أنظر إليهم وكأن الأمر ليس له علاقة بي . توكأت على غصن وجدته ملقى

على الأرض في محاولة للوصول للطريق لطلب النجدة،
أرهفت السمع لصوت أنات خافتة صادرة من بين الأشجار
الكثيفة، تمكنت من الوصول إليها. «كارمن» زوجة أخي لا
تزال تتنفس الحياة. نسيت آلام جسدي واندفعت بأقصى قوة
أزيح الأغصان الكثيفة من طريقي لأصل للطريق أملا في
وهم تملكني، بأنني أخطأت وأن هناك آخرين لا يزال النفس
يتردد داخل صدورهم. عندما حضرت الشرطة والإسعاف
تبين أن الوحيدة التي لا تزال تملك بعض الأنفاس الباهتة هي
كارمن زوجة أخي، تم نقلي وإياها بسرعة بواسطة طائرة
إلى أقرب مستشفى. شفيت من إصابتي، خدوش وجروح
وكدمات، واستدعى الكسر بساعدي أن يضمه برباط الجبس
ولكنه لم يعقني عن مغادرة الفراش. كارمن زوجة أخي
كانت لا تزال في غيبوبتها التي بقيت بها عدة أشهر وعندما
عادت إلى وعيها كانت قد فقدت ذاكرتها تماما، وكل شيء عن
حياتها الماضية حتى طفلتها. ما أوجعني وآلمي، أنه لم يكن
هذا هو الشيء الوحيد الذي أورثته لها الحادثة المشنومة،
ظهرت عليها حالة من الهياج العصبي تنتابها بين الوقت
والآخر فتحاول الاعتداء على أي شخص يقترب منها حتى
طبيبها، شخصها الأطباء بأنها حالة من اللاوعي تكمن في
عقلها الباطن، تصور لها أن هذا الشخص سيحاول الاعتداء
عليها، كان من المستحيل المجازفة باقترباب الطفلة منها،
حاول الطبيب مرة ولم تبد على وجه الأم أي إشارة تقول

أنها تتذكرها، علاوة على نظرة عدوانية بدت في عينيها .
قرر الطبيب إبعاد الطفلة عنها نهائيا وإلى أجل غير مسمى،
انتظرت حوالي العام على أمل أن تتحسن حالتها، لم تحقق
أي تقدم، التقارير أوضحت أن الحالة تزداد تعقيدا . خلال هذه
الفترة كانت الطفلة في رعاية ماري خالتها والمتبقية الوحيدة
من الأسرة وفي رعايتي، كانت الطفلة تندفع نحوى كلما
رأنتي ظانة أنني أبيها . مر عام آخر ولم يلح أي أمل لقرب
شفاء كارمن زوجة أخي وأم الطفلة . خلال هذه الفترة كانت
ماري قد تعرفت على شخص أحبها وأحبته وقررا الزواج، كان
خطيبها شابا متعلما ورفيقا، ساعدني كثيرا في أن أحقق ما
رأيت أنه الشيء المناسب الذي أقدمه لأخي الراحل، للمحافظة
على ابنته التي كانت بمثابة الروح له . استطاع بعد جهد أن
يقنع ماري خالتها لكي تتخلى لي عن الطفلة لتربيتها وفقا
لعاداتنا وتقاليدنا الشرقية، لم يكن الأمر سهلا وخاصة بعد أن
أبدت رغبتي في الرحيل إلى مصر والاستقرار بها . وافقت
ماري بعد أن بذلت لها الوعود الصادقة بأنني لن أحرمها
من طفلة أختها، فتحت لها الباب على مصراعيه لتزورنا في
مصر وقتما تشاء، كما تعهدت بالعودة لأمریکا مع الطفلة بين
الوقت والآخر لتراها في حالة عدم تمكنها هي من الحضور،
وخاصة أن للطفلة إرث كبير لا أعلم عنه أي شيء حتى الآن.
عدت إلى مصر وبصحبتى طفلة أخي التي لم تتجاوز
الأربعة أعوام، اتخذت خطوة رأيت وقتها أنها أصلح شيء،

لتنشأ طفلة أخي نشأة سليمة، لا يشوبها أي عقد أو رواسب نفسية من الماضي، قررت أن أنسب الطفلة لي لتكون ابنتي بالفعل، أتممت هذه الإجراءات في أمريكا واستخرجت لها جواز سفر، ولم يمنع هذا بقاءها في أمريكا مسجلة باسم أخي المتوفى، إذ ساعد تشابه الأسماء أن تتم هذه الإجراءات بدون أي مشاكل، هو أسمه نظمي فكري عنايت وأنا ناجي فكري عنايت، في أمريكا يسجل أسم الطفل متبوعا باسم العائلة وهو عنايت، أما الاسم الأوسط فيكتفي في أغلب الأحوال بكتابة الحرف الأول من الاسم، لم يكن صعبا بهذه البيانات أن أسجلها باسمي هنا . ربما تراودك الشكوك في أنني فعلت هذا طمعا في ميراثها، قد تندهش إذا قلت لك بأنني لم أحاول حتى أن أتعلم عنه . عدت إلى مصر وأقيمت في الإسكندرية حيث مسقط رأسي، كانت هناك مكاتبات منتظمة بيني وبين ماري خالة الطفلة، فجأة انقطعت المكاتبات من جانبها، حاولت الاتصال بها هاتفيا في منزل أسرتها ولم أتلق إجابة . انتهزت قدوم الصيف وذهبت أنا والطفلة إلى أمريكا لأفي بوعدي . لكن عند وصولي لمنزل العائلة وجدته مهجورا، دخلت للدخل مستخدما المفتاح الذي تركته معي ماري، وجدت كل شيء كما تركته، وبسؤال أقرب جار الذي يقع على مسافة بعيدة، لأن المنزل قصر تحيط به مساحة شاسعة من الحدائق، لم يرطب حلقي بأي أخبار عنها، سوى أنها اختفت هي وزوجها فجأة من المنطقة . تركت داخل القصر ورقة

كبيرة في مكان واضح إلى ماري بها رقم هاتفي وعنواني، حتى يمكنها الاتصال بي حينما تعود، لأنني كنت قد قررت أن أترك الإسكندرية إلى القاهرة للإقامة بها. بقي أمامي أمل آخر وهو الذهاب إلى المستشفى الذي كانت تعالج فيه كارمن والددة الطفلة، لم يشفوا غليلي بأي خبر عنها، تسلمتها ماري أختها مصحوبة بتقرير لإيداعها بأحد المصحات النفسية، على أمل أن تشفى من حالتها إذا عاودتها الذاكرة في يوم من الأيام، للأسف فشلت في الاستدلال على عنوان المصححة التي أودعت بها. بعدها بحوالي عام قمت أنا والطفلة بزيارة لأمريكا للمرة الثانية عسى أن أصل لأي معلومة عن أمها أو خالتها، لم تكن رحلتي بأوفق من سابقتها، الورقة التي كنت تركتها لماري في نفس مكانها. منذ ذلك الوقت لم أذهب إلا مرات قليلة ولم أحاول حتى أن افحص الأوراق التي بالقصر للاستدلال على ميراث ابنة أخي .

أعود بك مرة أخرى إلى زواجي من أخت كارمن التي وجدت فيها ما لا يتخيله بشر، والتي كانت من ضحايا الرحلة المشنومة أيضاً، حب وإخلاص وتفاهم تام على كل خطوة من خطوات حياتنا، حط القدر بأكبر مصيبة على رأسي حين فقدتها وفقدت معها طفلي الذي كان بأحشائها، كنا ننتظر قدومه بفارغ الصبر، هناك عواصف لا تخبرك بمقدمها كتلك العاصفة التي حطمت أمامي بكل أحبائي في الحياة . عافت نفسي بعد هذه الزوجة الرائعة الارتباط بأي زوجة أخرى

قد يكون لها من الطباع ما يشوه أحلى صورة للارتباط بين الرجل والمرأة .. هذا الذي كان بيني وبين زوجتي، لن أكون مبالغاً إذا قلت لك أنني أعيش فيه حتى الآن، وهذا ما دفعني لأن أتخذ من طفلة أخي وزوجته الوفية «كارمن» ابنة لي لتكون هي ميرفت، نعم ميرفت جنية بحور الشعر التي سحرت قلبك هي تلك الطفلة.

أغمض الكاتب ناجي عنايت عينيه، لم تنبس شفتا عادل بكلمة واحدة، كقصة خيالية استمع إليها، أحس بمرارة الرجل في حلقه وهو يرى دمعة تنساب من أسفل الجفنين المغمضين، كتم أنفاسه حتى لا يزعج ذكرياته، فتح ناجي عنايت عينيه وعادت ملامحه لطبيعتها، ابتسم قائلاً :

— لم أسمع منك أي تعليق يا عادل ولم تقاطعني أثناء الحديث، أضفت لي جانباً جديداً من شخصيتك، التي تحب فيك من يراك منذ أول وهلة كما حدث معي .

قال عادل وهو يودع عينيه نظرة تفوق الاحترام :

— أشكرك يا عمي على إطراء قد لا يبدو له أثر إذا قارنت نفسي بك، وتأكد من أن ميرفت نظمي عنايت هي ميرفت ناجي عنايت بالنسبة لي، بل أشكرك من كل قلبي على ثقتك الغالية في شخصي، التي دفعتك أن تبوح لي بهذا السر وتأممني عليه، هذا السر سيموت معي إن لم تضطرني الظروف للبوح به لميرفت كما أخبرتني .

قال ناجي :

— لكن هذا لن يعفيك من واجبك في السؤال عن مصير أمها
أو خالتها، في حالة ظهور أمها أرجوك أن تأخذها إليها،
وإذا كنت قد فارقت الحياة، اشرح لها أسبابي التي من
أجلها أخفيت عنها الحقيقة .

قال عادل بنبرة جادة :

— تأكد يا عمي بأن كل ما تقوله لي سيكون بمثابة أمر
واجب التنفيذ .
— انني متأكد من رجولتك يا عادل .
قال عادل مبتسماً :

— أتلهف على سماع كلمة مبروك من شفتي من أنظر إليه
الآن كأب ثان، علاوة علي كونه الأديب المفضل لي .
قال عنايت وعيناه تلمعان :

— قلتها لك في عقلي منذ أول مرة رأيته فيها بمنزلي حين
حضرت مع ميرفت، فطرة الكاتب تتيح له أن يستشف ما
بداخل كل إنسان من أول وهلة، وما رأيته داخلك هو ما
كنت أحب أن أراه في طفلي الذي لم ير النور .

كّرة ثانية بقلب واجف قام بها سليم إلى معهد السينما، متمنيا ألا تخذله شجاعته للتقدم والتحدث مع فئاته نادية كالمرّة السابقة، الحُلم المسيطر على منامه ويقظته، والغموض الغير قادر على اختراقه، أمل يرجوه ولا يعلم إن كان سيسطيع الاقتراب منه أم سيظل يلعبه عن بعد، كشبح يظهر ثم يسارع بالاختفاء من مخبئه خلف الشجرة التي تخفيه ويكشف له عن القادم، كانت عيناه كمصباحي السيارة، يقلب نظراتهما من البعيد للقريب ومن القريب للبعيد، ليتمكن من استخلاص نادية من وسط أفواج فتيات المعهد، المتباريات في كشف ما يمكن كشفه من خلال أحدث تقاليع الموضة، وجوه انسكبت عليها ظلال كل الألوان، لتصنع منها وجوها تقليدية لمثلات عالميات، كل واحدة تظن أنها أصبحت نجمة النجوم لمجرد التحاقها بالمعهد . تزايد ركض الفرس القابع داخل قلبه وهو يراها قادمة، يسبقها نهدان شامخان، وسكرات من عطرها الذي كان يتركه في شبه اغماءة عندما كانت تخطر أمام دكانه . استنفر كل ذرة شجاعة خلقت في بدنه لتعينه على مواجهة العينين النائميتين الثائرتين . خرج من مكنه وهو لا يعلم

عن خطواته شيئاً، كيف يعلم وهو لا يدري أين قدميه، كان يظن أن الإنسان له إرادة التحكم في جميع أجزاء جسده، لكنه الآن يستصعب هذه النظرية وهو يشعر بهما تعلنان معصية أمره، تسحبانه إلى داخل دوامة المياه العميقة، سرعان ما سيدور معها لتبتلعه ويختفي للأبد . إذا أنت النهاية سريعاً ستكون أفضل من العذاب وهو يبتلع الماء من أنفه وفمه ويشعر به يتدفق إلى داخله ليغمر رئتيه طارداً أنفاس الحياة من داخله .. عذاب .. عذاب لا يشعر به سواه والغريق . لن يجرؤ وينزل للسباحة بعد اليوم بعد أن جرب ألام الغرق، هراء .. أين هي القشة التي يقولون أن الغريق يتشبث بها، لا أمل حتى في هذه القشة. فانتته قادمة تهتز لخطواتها الأرض، تتبعثر النجمات الواهيات من حولها، كيف ستستطيع عيناه أن تجابه وهج ضوئها، كان يتحدى أقرانه وهو صغير أن يفتح عينيه عن آخرهما أمام قرص شمس الظهرية، الآن نظراته تتساقط كفج الثمار كلما وقعت على وجهها . أصرخ واستعطف الأرض أن تنفلق أسفل قدميك لتخبئك من خوف نفسك، لا أمل في حدوث ما تتمناه، ليس أمامك سوى أن تجابه وتتلقى الطعنة . كن رجلاً ولا تصرخ، اجري إلى دكانك استكمل فيه نزييف نفسك ومت كالشجاع . اقتربي يا فاتنة الجن والملائكة، ارفعي سيفك واضربي دون رحمة، هيات لك عنقي فانهريه، افعليها لو طاوعتك نفسك، لن تفيدني رأسي بعد اليوم . يقولون أن القلب هو مكن النساء، أشعر بخلاف

البشر، أشعر بأنك الأولى من بنات حواء، التي فضلت أن تدفع يدها داخل جمجمتي، تنتزع كل محتوياتها . اليوم آخر أمل إما أن يعود لي عقلي أو أعيش بعلبة فارغة فوق جسدي لا فائدة منها .

ثلاث خطوات .. خطوتان .. خطوة واحدة، وأروع ابتسامة فوق أروع شفيتين .

— هل لي أنا هذه الابتسامة ؟

— نعم .

— أشعر بأنني لم أفعل الصواب .

— لما؟

— كان المفروض أن أحضر معي خنجرا أسلمه لك وأرجوك أن تغيبني نصله في قلبي .

— لست بقاتلة .

— الموت في هذه اللحظة رحمة ما بعدها رحمة .. أن يكون آخر شيء أراه في الحياة باب الجنة مفتوح أمامي، وخلفه صفان من الملائكة .. هذا أقصى ما تمنيته في الحياة .

قالت ناديه وقد زادت من ابتسامتها :

— فيلسوف الشارع الضيق أنت؟

أجاب سليم كغائب عن الوعي .

— الفلسفة إبداع العقل ولكن كل حرف أنطق به هو إبداع القلب.

قالت نادية ضاحكة :

— دعنا من حديث الفلسفة الآن وخبرني، لماذا لم تتحدث معي في المرة السابقة !! واكتفيت بأن تحملق بعينيك وأنت مختبئ خلف الشجرة؟ ..

أجاب سليم والدهشة تنساب مع كلماته :

— كيف تمكنت من رؤيتي وقد اجتهدت أن اخفي نفسي تماما خلف الشجرة؟ ..

أجابت نادية ببساطة :

— عندما اقتربت من الشجرة أحسست بسعير أنفاسك، ذكرني بالسعير الذي كنت اکتوي به عند مروري أمام دكانك .

قال سليم وأمل في الحياة يتدفق داخله:

— هل كنت تشعرين بي ..؟

أجابت نادية مشجعة :

— نعم .. كنت أستمع لحديث نظراتك، كنت أتوقع أن تتبعني لكن الحياء كبل قدميك!!

— بالضبط هذا ما كان يحدث معي .. الحياء والخوف من صد يكون كحكم الإعدام .. كنت كواحد من منتظريك الكثيرين فما الذي لفت نظرك أليّ .

أجابت نادية وهي ترمق وجهه الحالم :

— لا لم تكن مثل الآخرين .. أبدا لن تتساوى أعين
الملائكة وأعين الشياطين .. الآخرون نظراتهم كنظرات
الكلاب الشرهة لقطعة من اللحم، ينتظرون سقوطها
من يد الجزار لينقضوا عليها بوحشية .. نظراتك
كانت تشبه النسيم أشعر بعبوره السريع يهفـف
فوق جسدي تاركاً قشعريرة جميلة كنت أرتاح إليها .
قال سليم بصدق يغلف كلماته :

— هل تسمحين لي بغفوة فوق هذا الرصيف .. أشعر بحاجتي
للراحة، بعد أن ألقيت من فوق كتفي أحمال كادت أن تقصم
ظهري .

قالت نادية وهي تجذبه من يده كطفل صغير :

— الأفضل أن تغفو فوق مقعد .. تعال لنجلس في مكان هادئ
واحتمسي كوبا من الشاي يفيق نعاسك .

استغاث ظهره تحت ثقل القصعة المحملة بالأسمنت والرمل، يصعد بها فوق السقالة خشبية، منذ السابعة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر كل يوم، وبالرغم من ثقل المجهود كان يشعر بالسعادة وكفه تقبض على أجره آخر اليوم، كان يتلاعب في ثمن محصول البرسيم، ليختلس ما يسمح له بالزيارة اليومية للمقهى، الآن أصبح حراً طليقاً من كل شيء حتى من زوجته وعشرتها الجافة وأقدامها المشققة . استقر جاد الكومي في عمله ضمن طائفة المعمار، تحمل ثقل العمل بصدر رحب، في سبيل البعد عن القرية التي أورثته الكآبة على حد قوله . نسي أن هذه القرية أنجبته أب عن جد في أسرة نبتت في أرضها، أفلام الفيديو التي أدمن على مشاهدتها أطلقت عينيه بعيداً جداً عن حدودها . كمنت الفكرة داخل رأسه حتى ولدتها قدماءه وأبعدته عن القرية نهائياً . ترك ثوب الفلاحة خلفه دون رجعة، لم يتردد عن البصق على ماضي أيامه، اندمج مع زملاء العمل الجدد يصطحبونه كل ليلة إلى مقهى «صابر» الغازية وابنتها «فجر» التي لم تتعد السادسة عشرة من عمرها . سرقت من الفجر نداوته

.. جمال بنات المنصورة انتقل بحذافيره من الأم إلى البنت ..
يضاحكهم الزبائن قائلين أن هذا الجمال، موروث عن أجدادهم
الذين خالطوا عساكر نابليون.. تجيب الأم بغنج .. جمال رباني
من فوق يا اخويا أنت وهو. أصبح مقهى الغازية هو المعين
له على تحمل تعب اليوم الطويل . يترقب مجلسه مع أكواب
الشاي والحلبة وجسد « صابره » الرخص، وهي تتلوى
أمامهم في لدونة الحلقوم، تعلق قلبه بالأم ففيها الكثير من
نساء الفيديو اللاتي عشن في مخيلته، كن سبباً في اقتلاع
جذوره القروية كشجرة ضربتها عاصفة هوجاء . رحلت
صابره وابنتها عن المنصورة لتسدل النسيان على الماضي،
مبتعدة عن عيون تنظر إليها شذراً بعد أن اتهمت بقتل زوجها
صاحب فرن الخبز بالاتفاق مع صديق لها . أراد الصديق أن
يلبس ثوب الفارس، اعترف على نفسه مبعداً أي شبهاً عن
عشيقته، أوهمه المحامي الذي اتفقت معه العشيقة اللعوب
على أن الحكم لن يزيد عن عامين، أمام نظراتها الخضراء
وحلاوة الحرام الذي كان بينهما تحمل الجريمة بمفرده .
كافاته « صابره » على شهامته الغبية بهجره بعد عام واحد
من سجنه . هربت مع ابنتها الوحيدة « فجر » تمتلك ثروة
لا بأس بها، ثمن فرن الخبز الذي أقنعت زوجها المقيم في
هواها أن يكتبه باسمها، ثم طعنته مع عشيقها طعنة الموت
. استثمرت ثروتها في المقهى، يساعدها جمال ونظرات
واعدة لكل من يجزل العطاء، شبت فجر تحمل جمال أشد

ضراوة من جمال أمها وخبرة لا يستهان بها في مداعبة الرجال، تخور قواهم فتدفع بهم لحضن أمها، لم تمكن أحدهم من مجرد لمسها . كل شيء يتم بحذر شديد حتى لا يفتضح أمرهما وتكونان عرضة للقانون . عندما بدأت خطوات جاد نحو المقهى كان يظن فيهما الطهر والبراءة، وأن ما دفعهما للوقوف في المقهى، هو البحث عن لقمة العيش بالعمل الشريف . داعبته فكرة الفتونه التي كان يطرب لها وهو يشاهد فتوة الأفلام يتغلب على جبايرة الرجال، تقمص الدور وابتاع من الثياب ما يؤهله لتقمص هذا الدور، ذهب إلى الحلاق وأصبح في جلسته في المقهى يضاهي عمدة قريتهم، تساعده بشرة سمراء وقوة لا يستهان بها وذكاء فطري . وقع مع نفسه عقداً لحماية صابره وابتها دون أن يخطرهما، رآته صابرة وسجلته في قائمة الرجال الذين يمكن أن يحظون بها، آثرت الانتظار حتى تجمع عنه المعلومات التي تخرجه خارج دائرة الشك فقد يكون عيناً للشرطة، لم تبخل عليه بنظرة أو احتكاكه وهي تتمايل أمامه أثناء رقصاتها، تكاد تسمع دقات الطبول خلف أضلعه . لا يخفى عليها أنفاسه اللاهثة تدفع بها شهوة تتقد كالنار، تزيده ابتسامة أخرى وهي تردد داخلها لم يحن الوقت بعد، لا بد من النار حتى تتذوق الحلوى. لم يكن في الحسبان أن فجر بأعوامها القليلة، لفت نظرها جاد بشاربه المستقيم وشبابه القوي . قررت أن تراقبه من طرف خفي، استتنته من الزمرة الواجب الإيقاع بهم وإرسالهم

لحضن الأم . جاء قرارها سريعا بعد أن انطلقت فكرة الفتونة لحيز التنفيذ، رفع جاد أحد المشاكسين بالمقهى تعرض لها بالمضايقة وألقاه بعيدا، منذ هذه اللحظة امتدت النظرات بينهما . عقد مقارنة بين الجمال الغض كالزهر الذي يتفتح بتؤدة، وجمال أمها الذي تفتح عن آخره وعن قريب سيبدأ في إسقاط وريقاته . جمح قلبه خلف الصبا وفارق خمسة عشر عاما بين عمريهما، ماذا يهم إذا هي وافقت، عيناها تناديان، ينظر إليها كعصفورة طائرة يصعب الإمساك بها، كل أمنيته كانت محصورة في أن يجذب أنظار الأم لتقبل الزواج منه لتدخله إلى عالم نساء الفيديو. الآن تحول القلب لعصفور يحلم أن يطير مع هذه العصفورة، لو أشارت بإصبعها لتدافع نحوها كل من بداخل المقهى وخارجه . الأيام تمضي ونظراتها وابتساماتها التي تختصه بها توحى بأنها تمهد له الطريق، لم يعد شاربه يهتز مع اهتزازة نهدي أمها وهي تتمايل أمامه، حتى يصبح لقمة سائغة في فمها حينما تستدعيه خلف الباب المغلق . نظراته تثب خلف الظبية البرية مختلطة بالخوف والتردد من أن يكون هو الوهم بعينه . وقفت أمامه في أحد الليالي وهمست بصوت خافت .. اتبعني . لم يصدق أذنيه، تأكد أنه غير حالم عندما وجدها تنسل خارج المقهى ترمقه بنظرات أمرة، ظن أن الشلل أصاب قدميه وأنه لن يستطيع الوقوف للحاق بها، تغلب على ضعفه وحبات العرق التي انزلقت من فوق جبهته بالرغم من برودة الليلة فألهبت

عينيه . رآها تقف عند حدود قطعة الأرض التي نبتت بها
أعواد الذرة، إقترب منها وخطواته تحبو كطفل صغير، جذبته
بين أعواد الذرة، وجهها في ضوء القمر يصرخ بالجمال
والصرامة، تطلعت إلى وجهه وقالت بلهجة أمرة :

— ماذا تنتظر ؟

— على ماذا ؟ .. أجب متلعثما.

قالت بنفس اللهجة الأمرة :

— للزواج مني أيها الساذج .

انشقت الأرض تحت قدميه وكاد أن يهوي لكنه تماسك وقال:

— هل تقصدين ما تقولينه فعلا .!؟

قالت فجر ولا تزال الصرامة تنطق فوق وجهها :

— وهل تظن إنني أريدك لأتسامر معك ؟!

تساعل :

— وما الذي دفعك نحوي ؟!

— توسمت فيك الرجل الذي يستطيع أن يخرجني بعيدا عن هنا .

قال وهو يطمع في سماع المزيد .

— ألهذا السبب فقط .!؟

أجابت بصراحة صارمة :

— هل صورت لك سذاجتك بأنني وقعت صريعة هواك ؟!

قال وهو يشعر بصغر حجمه أمام سطوتها :

- كنت تقولينها حتى من باب المجاملة ..
- قالت إمعانا في كسر شوكته :
- كنت أظنك تختلف عن الآخرين، لكن يبدو أنك أسوأ منهم،
أذهب واقبع في مكانك وأطلق للعابك العنان أسفل قدمي أُمي .
- قال بانكسار :
- سامحيني إذا كانت كلماتي أثارت غضبك .. قد يكون دفعني
إليها طمع زاد عن حده، لم أكن أتوقع من صبية الصبايا
أن تعرض على الزواج، ظننت أنني أصبحت فارسا فوق
صهوة جواد .
- سأعطيك أسبوعاً فقط للاستعداد، لا أرى وجهك خلاله في
المقهى، عند عودتك سأهرب معك في نفس الليلة إلى
مكتب المأذون فكن جاهزا بالشهود .
- فغر فاه دهشة وقال :
- ولماذا الهرب ؟ .. ألن تخبري أمك بأمر زواجنا؟! ..
- .. قالت وقد عادت الصرامة لوجهها :
- عدت لغبائك .. لو علمت أُمي بأمر هذا الزواج، لن تعدم
وسيلة لتزج بك في السجن لتتخلص منك فنفذ ما أمرك
به، واعتد من الآن باني سأكون العقل المدبر .
- قال جاد وهو يشعر بأنه قزم ضئيل أمام عملاق :
- سأنفذ لك كل ما تطلبينه يا تاج رأسي، أعشق أن أكون
خاتماً في إصبع الجمال والملاحة .

طرقات فوق الباب تململ لها الراقد كما ولدته أمه فوق الفراش، تتوسد ذراعه عارية مثله، كل شيء حولهما يوحى بما حدث خلال ليلة يمكن أن يُطلق عليها فوق الحمراء . عادت الطرق مرة ثانية، قذف لسان النصف نائم بمجموعة من الشتائم والسباب .. عادت الطرق للمرة الثالثة، تجهم وجه المستيقظ قسرا وهو يري خيوط الشمس تحاول أن تنفذ من فرجة في الستار.. لم يجد الطارق وسيلة سوى أن يدعم الطرق بصوته :

– «حامد» بك الساعة الثانية عشرة، لم يتبق على موعد الاجتماع سوى ساعة واحدة . امتدت يد حامد بك، جذبت الملاءة، ألقت بها فوق جسدها البض، لم يهتم إن كانت الملاءة قد سترت الكثير أم القليل، نادى على الطارق :

– أدخل يا «جوكر».

فتح الجوكر الباب، تسلل إلى الداخل بطريقة من اعتاد على عمله، تسبقه ابتسامة قواد مخضرم، لم تطرف عينه وهو يري الملاءة المرتفعة المنخفضة وخضم الشعر الذهبي

الملقى على الوسادة، نظر إلى الجسد العاري وقد انكمشت
الملاءة إلى أبعد من منتصفه وقال :

— أنا آسف يا باشا .. أنت الذي أكدت بأن أوقظك حتى
لو اضطررت أن أحملك من الفراش، اجتماع اليوم هام،
وسيحضره عدد من الشخصيات الهامة .

— ملعون أبو الاجتماعات وأبو الشخصيات معا .. اعد لي
الحمام وكوب كبير من القهوة .

— سريعا سيكون كل شيء معد يا باشا .

«حامد النجار» شخصية تتكرر في كل زمان، أخطر من
اعتلى المناصب السياسية .. داهية من الدواهي التي ليس لها
حل .. لا يعوقه عن تنفيذ مآربه عائق .. إيمانه في الحياة لا
يخرج عن السلطة والمال والنساء وسهرات الفجور، من أشد
أسرار نجاحه أنه لا يدع يساره تعرف ما تفعله يمينه . ذكاء
يتداعى أمامه الذكاء نفسه، سخره للموبقات وللإيقاع بكل
من يعترض طريقه، ناجح جدا في عمله الغير شريف في
التخلص من خصومه، حتى يكون هو اللاعب الوحيد فوق
المسرح . لا يتورع عن تقديم المعلومات المزيفة إذا اقتضى
الأمر، يخشاه كل من يعمل تحت رئاسته لسببين، أولهما أنهم
يعلمون أن بيده أن يفتح أمامهم صنبور الثروة عن آخره،
وبيده أن يجففه لآخر قطرة، والسبب الأهم أنه يمكن أن يدبر
المصائب كما لو كان يحتسي كأساً من الماء المثلج . الجوكر

شخصية من الظلم جدا لو سقط تدوينها في مزبلة التاريخ، وجد فيه حامد النجار أفضل من يصلح ليكون مديرا لمكتبه، أهم واجباته القوادة وتدبير اللقاءات بين رئيسه ومن يقع اختياره عليهن من النساء، يتبع في ذلك أحط الأساليب من الترغيب والترهيب وتلفيق التهم إذا لزم الأمر، لإجبارهن على الرضوخ للرغبات المنحطة، دون مراعاة إن كان وقع الاختيار على صويحبات الرذيلة أو الفضيلة أو متزوجات الشرف بالنسبة لحامد شيء ممسوخ لا يجب أن يعتد به كثيرا، معاناة من المشهد الذي لا يفارق خياله أبدا، انطبع في ذهنه ولصقت صورة أمه في أحضان عشاقها وفوق فراش والده الذي كان يظن فيها الزوجة الوفية المخلصة، بالرغم من أنه هو نفسه لم يكن مخلصا لها. فاحت رائحة سلوكه الخسيس إلى أن زكمت أنفها، فاتخذت من فراش الزوجية ساحة للإنتقام، مستغلة الأوقات التي يتغيبها عن المنزل سواء في العمل أو مع نزواته. في أسرة منحطة الأخلاق نبت حامد النجار ونبتت في داخله الرذيلة منذ نعومة أظافره. استطاع عن طريق نفوذ أبيه أن يصيب من التعليم ما يؤهله لارتقاء المناصب هذا إلى جانب ذكاء فطري شرير، حتى وصل لمنصب خطير، من خلاله استطاع أن يحقق ما يسر له الانتقام من النساء، يرى فيهن جميعا صورة أمه وشرفها المغطى لقمته بالأحوال. قال عنه أحد أصدقائه المقربين كان على شاكلته، أن الشيطان لو أراد الانجاب فأنه

سيعجز أن يحقق في خلفته بشاعة حامد النجار، ووضاعة الجوكر مدير مكتبه . أسم الجوكر أطلقته عليه شلة الفساد التي تحيط دائما بحامد النجار، تنافقه وتتكسب من ورائه محتمية بنفوذه، أسمه الحقيقي عوض السائس، اعترض أولا على اسم الجوكر، لكنه تقبله عن طيب خاطر، عندما خير في جلسة من جلسات الكيف بين هذا الاسم وبين أسم البهلوان، فرأى أن الأول أفضل . من يراه في مكتبه وقد اكتسى وجهه بالجدية بأنه خلق للإدارة فعلا . دائم السفر لكل البلاد التي يذهب إليها رئيسه لزوم منصبه، ليكون كل شيء على ما يرام حينما يصل الرئيس، يسبقه ليعد لزوم السهرات والنساء حتى لو من بنات الليل، اختار طريق العزوبية كرئيسه، مكتفيا بفتات النساء التي تتساقط من فراش حامد النجار بعد أن يملهن ويبحث عن متعة جديدة . لم ينظر إليه حامد على أنه ينتمي إلى جنس الرجال وقد قبل على نفسه أن يقف على باب مخدعه كخادم دعارة، يحفظ عن ظهر قلب أن أي خطأ في واجباته، قد يكون ثمنه المعتقل أو الاختفاء نهائيا، هذا الشعور كان المهماز الذي يجعل قفزاته دائما تفوق قفزات الجوكر .

قالت نادية بعد أن قادت سليم إلى مكان هادي ء :

— سليم، أنت غير محتاج لتحذثني عن حبك، لأنني واثقة منه، كنت أحس بك وأنت تذوب شوقاً، لمجرد شبهه ابتسامة تراها فوق شفتي .

قال سليم معبراً عن شعور حقيقي نحوها :

— اسمحي لي يا نادية أن أقول لك أنك لم تجيدي التعبير .. بسمة شفئك كانت بالنسبة لي أكثر من هذا بكثير .. كنت أتطلع إليها كباب سينفتح أمامي لألج منه إلى الحياة، إذا أغلق دوني لن أتورع عن صلب نفسي خلفه .

قالت نادية دون تكلف :

— رأيت في عينيك أكثر من هذا يا سليم، لا تظن أنني كنت غافلة عنك، كم شعرت بالحزن في المرة السابقة وأنا أرى الموت في عينيك عندما كنت في السيارة مع زميلي، هو بالفعل بالنسبة لي لا يخرج عن دائرة الزمالة . شعرت وقتها بالأسف، لأنني لم أشاهدك إلا بعد أن بدأت السيارة في التحرك، بادرتك بالابتسامة اليوم حتى أشجعك على أن تلقي

بترددك وأوهامك، التي صورت لك بأني قادرة على صدك .

قال سليم وكلماته تتراقص على شفتيه :

— هل تسمحين لي بأن أسكب هذا الكأس من الماء المثلج فوق رأسي حتى أتأكد أنني لست بحالم ..

— لست بحاجة لأن تبلبل نفسك .. أنظر في عيني فقط لكي تعلم أنني جادة في كل كلمة نطقت بها شفتي .

— لا أستطيع أن أغامر وأحرق في عينيك .. فقد لا أجد من ينتشلني .

— كنت متأكدة بأن عقدة لسانك ستتحل عندما تزول عنك الرهبة وتسمعي كلمات جميلة .. قرأتها في وجهك دون أن تدري، وأنت تقف أمام دكانك تنتظر ذهابي وأيابي .

— لم أكن أنا المنتظر الوحيد .. كل رجال الشارع الضيق كانوا يرقبون مرورك كل يوم .. كنت أتمنى أن تواتني الشجاعة وألقي بثيابي فوق أوجههم حتى لا تنهبك عيونهم .

— لا تساوى نفسك بجهالة السفلة، نظراتك كنت أشعر بها كالنسيم الحاني فوق جسدي، أما نظراتهم فكانت سهام سمومة، تنفذ داخله فتخضب ثيابي ببقع الدماء الحمراء .. ما يحيرني هو اختيارك لهذا المكان وأنا أرى في وجهك أنك بعيد كل البعد عنه.

— كما تقولين أنا خريج الجامعة، أسرتي لها مكانتها، أسكن في حي راق .. ولكني رفضت أن استغل نفوذ والدي في أن

التحق بوظيفة وأتدرج بها، فضلت العمل الحر، لم يمارس
والدي أي ضغوط نحوي ليثني عن عزمي، كانت هذه
طريقته في تربيتنا، أوصاني أصحاب الخبرة بأن أفضل
مكان لتجارة أشرطة الفيديو هو الأحياء الشعبية .. والآن
أشعر أنني وفقت تماما في اختياري لهذا المكان بعد أن
سأقني إلي طريقك .

سألت نادية بكلمات جادة :

- بعد أن جمعنا الشارع الضيق، وصرنا الآن معا، هل
يمكنني أن أعرف بأي طريقة تفكر في ؟
- ليس في مخيلتي سوى صورة واحدة لك .. أقف دائما
أمام واجهات المحال التي تعرض فساتين الزفاف، وأتخيل
وجهك الرائع يقفز فوقها ليضفي عليها جمال أميرة
الكون.

قالت نادية بمرارة :

- ألم تستمع لما يشاع عني وعن أسرتي من السنة السوء
التي كانت حولك ؟
- مهما قيل فلن يهمني شيء، ففستان الزفاف لا يتسع
سوى للعروس فقط، وأنت في نظري أظهر من الملائكة .
- لا تكن متعجلا في الحكم .. فأنا لست ممن يهربن من
الواقع والتستر خلف الأكاذيب .. فلا بد أن تستمع لكل
شيء من فمي أنا .. حتى يكون ارتباطنا على أرض صلبة .

قال عادل معاتباً :

- لا أريد أن أستمع لأي شيء .. يكفيني أن تكوني لي .
- أن لم تستمع .. فسيكون هذا هو اللقاء الأخير بيني وبينك .. وأنا مصرة على ذلك .
- سأستمع إرضاء لخاطرك .. ولكن ما ستقولينه سأنساه فور انتهائك من سرده .
- ليكن .. استمع وافعل ما يحلو لك بعد ذلك .
- هل ستسمحين لي أن أفعل ما يحلو لي حقا ؟ حتى إذا قفرت فوق المناضد ورفعت صوتي بأنك اللصة التي سرقت قلبي وابتلعتة، حتى لا أستطيع العيش إلا من خلال أنفاسها .
- ضحكت ناديه ولم تعلق، سارت لهدفها مباشرة، انتقلت ملامح وجهها من الابتسام لتقطيعة تعلن عن ضيق حقيقي :
- ما سمعته من إشاعات حول أسرتي لا يخلو من الصحة يا سليم، إن لم يكن كله صحيح، أبي لم يكن سوى نقاش وثروته التي كونها ووصلت به لمصاف الأثرياء لم تأت من عرقه كلها، كان لأمي دورا فيها، إن لم تكن أمي قد لعبت الدور كله، أرفض أن أصدق عن أمي أي سوء، ولكن رفضي لن يغير من الحقيقة الفجة .. لم يكن بيدي أن أرفض أسلوبهم، لكن على الأقل رفضته بالنسبة لنفسني . أنا صادقة إذا قلت لك أن هذه المرة الأولى التي أجالس فيها أحد، لم أفعل هذا إلا لأني قرأت أفكارك من خلال

عينيك، لم أر فيها سوى طيبة ممتزجة ببساطة واحترام عز على كثير من شباب هذه الأيام .. ما أشاعه عني أصحاب هذا الشارع الضيق ليس به أي شيء من الحقيقة .. سمعت هذا العطوة صاحب الجزارة، يلقي خلفي بجملته السفينة ذات مرة قائلا .. «ضع القدرة على فهمها تطلع البنت لأُمها» . أعلم ما يعنيه هذا الممتزج برائحة البهائم، لم أعر أحدا منهم أي اهتمام، سواء لنظراتهم الوقحة أو تعليقاتهم الأوقح، هذا الصنف من الرجال، يمكن لأي امرأة أن تنتعله كحذاء عند أول إشارة من إصبعها . عدا هذا لم يبق سوى أن أخبرك عن أخوتي الثلاث، «خالد» الضابط الذي لا يشغله في الحياة سوى طموحاته حتى لو أتت من أي باب ومظهره وأُنانيته، وجريه الدائب خلف النساء والفتيات . «علي» رفض أن يكمل تعليمه وانساق خلف أصدقاء السوء والفساد . «رشاد» فلتة القدر .. شاب لم تسلك قدماه سوى طريق العلم والدين، عندما أراه في منزلنا أشعر أنه زهرة نبتت في غير موطنها، أقرب واحد لأفكاري وقلبي، هذه أسرة جاد بك، وهذا ما أردت أن أخبرك به حتى تتلمس طريقك جيدا . بالنسبة لي كما ترى طالبة في السنة النهائية بمعهد السينما، قمت ببعض أدوار الإعلانات، رفضت الكثير منها لأن النية منها كانت تفوق مجرد الإعلان، وأنا قررت أن أكون نجمة محترمة، قبل أن أكون نجمة مشهورة حتى لو كان الطريق شاقا وطويلا .

قال سليم وهو غير مصدق أنه أمام بطله أيامه ولياليه
الساخرة :

– لن أنظر في كل ما سمعته سوى لإطار يحتوي على
صورتك أنت .. أنت فقط .. سأبذل كل ما في وسعي لأتسلل
داخل هذا الإطار بجانبك .. هذه سمائي التي حلقت فيها
منذ أول مرة غزوت فيها دنياي وما حولها .

قالت نادية وهي تضحك ضحكتها الصافية :

– إذاً يمكنك الآن أن تقفز فوق المناضد وتقول بأعلى صوتك،
لقد قررنا أن يبتلع كل واحد قلب رفيقه لنعيش سوياً.

جاء بك في نفس جلسته التي اعتادها دائماً، طرفاً ابتسامته كقطبي المغناطيس المتنافرين، يمر بطرف إصبعه على شاربته المستقيم تشبهاً بأحد الممثلين، لم يلق بالاً لتحية ابنه رشاد وهو قادم من الخارج، ألقاها وصعد مباشرة للطابق الأعلى دون التوقف للحديث مع أبيه، لم تكن بينهما العلاقة الحميمة التي تربط الأب بابنه أو تشد الولد لأبيه . استنكار من جانب رشاد لما سمعه وما رآه بنفسه، من سلوكيات توحى بأن أبيه وأمه لم يسلكا إلا الطرق الملتوية من الحياة وعدم ارتياح من الأب وهو يرى في عيني ابنه نظرات فسرّها بعدم الاحترام، لا ينقصها سوى أن تنقلب لاتهامات صريحة وواضحة لمسلك الأسرة غير المشرف . في جلسته دائماً يستعرض في ذاكرته هذه اللحظة التاريخية، التي بدأ عندها تحول مجرى حياته لواء لزوج حطت قدماه به، سار في مساره، أصبح من المستحيل أن يشق له واد آخر لا تغشاه اللزوجة . عاد بذاكرته للخلف، انتهى الأسبوع الذي حددته

فجر للهرب والزواج منه، قضاه في إعداد غرفة ملحق بها دورة مياه لتكون عش الزوجية، أنفق مبلغاً لا بأس به لتكون لائقة باستقبال فجر، ظهرت في حياته كفجر اشرق بعد ليل بهيم . لم يبخل زملاء العمل الصعايده، جمعوا فيما بينهم مبلغاً لا بأس به، كنقطة مسبقة أعانتة على إعداد الغرفة . تبقى معه مبلغاً لا بأس به كنفقات لعدة أيام من العسل بعد الزواج . منذ اللحظة الأولى أسلم لفجر زمام القيادة، لم تبال فجر بما سيحدث لأنها صابرة بعد أن تكتشف اختفائها، لم تفكر سوى في الهرب من مستنقع البغي الذي غاصت فيه أمها لأذنيها . هروبها لم يكن عن شرف وكرامة، الخوف من ورطة مع القانون تكون نتيجتها عدة سنوات من السجن، حاولت أن تبعد أمها عن هذا الطريق ويكتفيان بما يدره المقهى، رفضت الأم أن تتخلى عن لذاتها بين أحضان الرجال . لم يجلب بخاطرها عندما فكرت في جاد كزوج أنه فارس الأحلام، لم تطلب سوى رجل تحتمي في ظله، لتستخدم مواهبها من جمال وذكاء وخفة ظل لتصل إلى ما تصبو إليه، حتى لا تنتقل إليها مهنة أمها بالوراثة . وتظل طوال عمرها مطية لرجال تفوح منهم رائحة عرق اليوم كله، لا هم لهم سوى إفراغ الشهوات، متوقعة في كل لحظة قضبان السجن .

جلس جاد غير واع لما حوله في العرس المتواضع الذي نظمه أبناء بلده احتفالاً بزواجه، لم ير في الراقصة الرخيصة، التي تبتذل للكشف عن أكبر قدر من لحمها أكثر من حماسها

للرقص سوى صابره أم فجر. يتوق لنهاية العرس ليختلي بفجر ليضع حداً لحالة من قلق تمكنت منه، لم تترك جزء في جسده لم تشعل فيه الحميم . شئ يداهم أفكاره كالقطار الذي استقله من الصعيد ليصل به للقاهرة، لم يدر إن كان جالساً داخل إحدى عرباته أم انزلت قدمه، ليمدد جسده بالكامل فوق قضبانه، تجرى عجلات كل عربة فوقه مطلقة نغمة تختلف عن سابقتها، يمزقه الألم، حنجرته لا تقذف بصرخة واحدة . سؤال يمزقه بوحشية تفوق عجلات القطار . هل سلكت فجر سلوك أمها أم لم تزل أمام الباب لم تلجه بعد ؟ هل انتزعها أو بمعنى أدق انتزعت نفسها في الوقت المناسب، قبل أن تتمكن منها الأذرع التي كانت على استعداد أن تدفع عرق يوم بأكمله، مقابل لحظات من النشوى مع الغزالة الصغيرة بعد أن هَرمت الغزالة الكبيرة ؟. كيف لم يفكر في هذا من قبل !!، أحس في هذه اللحظات أنه ضرير ترك لعصاه زمام قيادته، اغمض عينيه، ترك عواطفه المتأججة تقوده لفجر دون أن يتوقف لحظة واحدة ليفكر في أي شئ، ما باله الآن يجلس في العرس كمن يجلس على جمرات من الفحم المتوهج، لا ينقص سوى أن تتصاعد إلي أنفه رائحة شواء لحمه . قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة، كلما قُربت المسافة منها تداعب أفكاره طرف سكين مدبب، ما باليد حيلة، داهمته صعيديته بكامل قواها، بالرغم من أنه كان يظن أنه ألقى بها من نافذة القطار الذي قفز بداخله غير آسف .

جفف حبات العرق التي قفزت فوق جلده بجلبابه الملقى على الأرض، أحس برطوبة بدأت تنساب داخل جسده وتنعشه، طاردة حمية النار التي اشتعلت بداخله، منذ أن انسابت أفكاره نحو عذرية فجر، عادت لقلبه دقاته . الحقيقة أنها لا تزال مختومة بخاتم العذارى، جلس فوق الفراش كفارس منتصر، يلوح بسيفه الذي لم تجف عليه الدماء بعد . هزم العدو اللدود الذي لازمه طوال الليلة من القلق والخوف والمرارة، يعلم جيدا أنه حتى لو لم يعثر على عذريتها، سينكس رأسه ويقبل الأمر بكل فجيعته . سيقبله وحذاء فجر فوق رأسه كوسام للشرف المصون، ومن يشتهي الحُصرم لا يبالي بتضريس أسنانه .

لم تضع فجر الأسبوع الذي سبق هربها مع جاد هباء، استطاعت بنظرات لعوب أن تقنع المقاول الذي يعمل في النقاشة بأن يعمل جاد معه كمساعد، يتلف على أي شيء منها حتى لو كان هذا الشيء بصقة على وجهه، قبل أن يعمل معه على أن يتعلم كار النقاشة أولا على يد أحد العمال لمدة أسبوع أو اثنين، ليلم بعمله كمساعد له بعد ذلك . عمل كان يمكن أن يمضى جاد سنوات عمره دون أن يستطيع الإمساك به، عيون فجر قادرة أن تهبط بقمة الجبل إلى السفح . بُهت جاد بعد خمسة أيام من الزواج، فجر تخبره بأنه من الغد سيبدأ عمله مع المقاول « فرحات » في النقاشة، قالتها بطريقة تغلق أي باب للنقاش أو الاستفهام . تقبلها جاد كأمر بعد أن أثبتت له عذريتها أنها ليست كأمرها، لم يكن هذا هو

السبب الوحيد في الأمر . استغلت فجر ذكائها منذ اللحظة الأولى، في أن تجعل من الفراش ملعبا كملعب كرة القدم، لا يستطيع المهاجم أن يسجل الهدف إلا إذا قذف له صانع الألعاب بالكرة . لم ينس غضبتها في اليوم الثاني من الزواج التي حولته لكلب يسيل لعابه أمام عظمة في يد الجزار . تسلم جاد عمله كعامل نقاشة كالمتفق عليه بين المقاول فرحات وفجر لكي يلم ببعض الخبرة في هذا المجال، حاول أن يعترض في أول الأمر وهو يعود كل يوم كمهرج السيرك، تلتطخ وجهه بالأصباغ لبداءة خبرته في هذا المجال، نظرة فجر أخرست لسانه، خاصة بعد انتقالهما لشقة رحبة تقع بالشارع الضيق كانت للمقاول فرحات، أهداها عن طيب خاطر لنظرات تعد ولا تفي، الأمل في الوصول لا ينضب. عُرف جاد منذ ذلك اليوم في الشارع الضيق بالمعلم جاد النقاش، أعلنت الصبغات التي تلون بها وهو عائد كل يوم عن مهنته . لم يطل الأمر واضطر المقاول فرحات لمزيد من التضحيات وهو يستمتع بلذة الانتظار لرشفات من كأس الهوى، تسلق جاد فوق ظهر هذه التضحيات ليصبح الأمر الناهي في كل أعمال المقاول فرحات . صارحها وهو يبتلع ريقه بمخاوفه وشكوكه نحو المقاول فرحات، أمام اتهام زوجته له بالغباء وفرض عقوبات الفراش تأسف وقبّل كعب قدمها الأحمر كحبة الطماطم، أرضته بكلمات تشبه الرثاء حتى لا تسحق رجولته تماما بأن المقاول فرحات ليس إلا كلب، تُظهر له بين الوقت والآخر عظمة، وعندما يظن أنه

أوشك على نشب أنيابه، تركله ركلة تعيده لخط البداية . أمام هذا التوضيح الذي جعله ينظر إليها بأنها اليد القادرة على فعل الكثير، سمح عن طيب خاطر بسهرات في شقته الرحبة بالشارع الضيق . ضيف الشرف فيها المقاول فرحات ومعه زمرة من المقاولين، عرف جاد دوران الرأس مع كاس الخمر الأولى، سكبها في جوفه مترددا بعد أن أقسم عليه فرحات المقاول . لم يحتج لأي أقسام بعدها، وجد فيها لذة الانفصال عن الواقع والدخول إلى عالم آخر من اللذة بين أحضان فجر التي رضيت عنه تماما، وهو يبدى تسامحا وراء الآخر . بلغ قمة التسامح بموافقته على إمتاع الحاضرين برقصاتها، تدفعه متعة الهوان بأنها ستكون له في نهاية السهرة، وبأن عيونهم التي تنشب أظافرها في اللحم اللدن، وأفكارهم التي تمزق الثياب لتصل إلى ما أسفلها، لا تستطيع أن تحصل على أكثر من هذا . لثمته الغفلة ولم يفق إلا في ليلة انفض فيها كل السهاري، لم يتبق إلا المقاول فرحات يداعبه ويصب له الكنوس المترعة، أسلم رأسه لظهر المقعد الجالس فوقه . لم يدر كم ظل على هذا الحال . ارتفع غطاء عينيه بعد ارتقاء، دارت عيناه مع السقف الذي يتهاوى إلى الأرض، والأرض التي تصعد للسقف، إطار يهتز بشدة أمامه يضم بداخله صورة لزوجته فجر مع المقاول فرحات في قبلة طويلة على باب حجرة النوم . أغمض عينيه سريعا، سمع بعدها باب الشقة يفتح وانصرف المقاول فرحات . ظل في جلسته

ساكننا، أطفأت زوجته الأنوار وسحبته من يده للفراش، توسل إليها أن تسمح له أن يغمس لقمته في صُحفة لم تعني حتى بتنظيفها بعد أن ولغ الكلب فيها .

لم يستطع أن ينظر إلى عيناها في الصباح، ارتدى ثيابه متعجلاً الهرب، سار خلف المقاول «فرحات» الذي بدا هاشا في وجهه، أحس بنظراته تعزيه في شرفه الذي مات ودفن ليلة أمس، استسلم منذ هذه اللحظة لعبودية الهوان والكرامة الممسوخة، لكنه تعلم أن يثور لكرامة المال إذا حاول المقاول فرحات أن يستهين بها .

في ليلة من ليالي شهر أبريل والربيع لم يُولِ أدباره بعد
والصيف في محاولة مبكرة للهجوم ونسمة حلوة من أسرار
الربيع تلفعت بدفء محبب سرقة من الصيف الفضولي
لتداعب الوجنات المتوردة فرحا، وتغازل برفق خصلات من
الشعر تبارت أيدي فنانة في تسريحاتها بما يتناسب مع ما
تحيط به من وجوه، تفننت في إظهار أنواع من الجمال لنساء
وفتيات لم يقصر الجمال في حقهن . منظر يخلب القلب، حمام
السباحة تطفو على مياهه مجموعات من البالونات المتعددة
الألوان، وشموع تشتعل أطرافها، تدغدغها حركة الماء في
سهولة ويسر، تبدو وكأنها قوارب الصيد البعيدة في عمق
البحر . فيلا الدكتور عزيز علوي تبدو في هذه الليلة كقطعة
غافلت الجنة وهربت للأرض، حبات من ضوء تناثرت في
عشوائية محببة للعين بين أغصان الأشجار تكشف عن
وجهها تارة وتخبئه تارة أخرى، زهور تربعت فوق المناضد
الملتفة حول حمام السباحة، أبدعت الدكتورة ساكي زوجة
الدكتور سامي في تنسيقها على الطريقة اليابانية، تبرز
من كل ركن في المكان وتومئ بابتهاج للحاضرين . كل هذا

توارى خلف روعة الحب الذي ألقى بنوره فوق وجهي عادل
وميرفت فخلجت أمامه كل الأضواء . يجلسان فوق مقعدين
أحاطت بهما الورود من كل جانب، يبدوان كلوحة مرسومة
بريشة فنان، أبدع في تصوير النهاية السعيدة لمشاعر نبتت
في حضن الملائكة فسكبت عليهما سعادة وفرحة أسعدت
المحبين . سارع المنديل الأبيض في يد ناجي عنايت ليجفف
دمعة انزلقت من جانب عينه، ينظر إلى الطفلة التي نمت
وكبرت وترعرعت في نضارة تحسدها عليها الزهور، تملأ
قلبه راحة الإحساس بأن النبتة التي تعهدا منذ أن رحل أباهما
وضاعت أمها مع فقدان الذاكرة، نضجت كثمار الجنة النقية
. لم يُقصر أبدا في السهر عليها، يغالبه الإحساس بأن حبه
لها يزيد ويفوق حب أب لابنة أنجبها من صلبه، كرس حياته
لها ولذكرى زوجته التي أحبها، رفض أن يدع أخرى تقترب
من سياج قلبه الذي أغلقه على حبه الوحيد .

انفض السامر بعد ليلة استمتع بها الجميع بين الغناء
والرقص، تبارت راقصتان في إظهار مهارة التلوي على
دقات الطبول، دفع الحماس إحداهما لتحجل على حافة حمام
السباحة فزلت قدمها وتلقفها الماء، دفعتها خفة ظلها أن
تؤدي بعض الحركات الراقصة وهي عائمة وسط تصفيق
الجميع ومرحهم . الجميع يودون لو طال الحفل حتى الصباح
لكن عادل وميرفت يودان الفرار لينفردا بعيدا عن العيون .

الحياء كلمة لم ترد في ذهن حامد النجار أبدا، ليس لها معنى في قاموس سلوكياته، لا يتورع عن التجرد من ملابسه والوقوف عاريا، أمام رفقاء الهلس من الرجال والنساء في سهراته الماجنة، عادة تأصلت فيه منذ الصغر، يقذف بملابسه ويقف عاريا في صالة المنزل قبل أن يدخل لأخذ حمامه . نشأ في أسرة لم تهتم للاحترام والشرف قدر اهتمامها بالشراء، شاعت الظروف كما شاعت لكثيرين من أمثاله أن يعتلى لمنصب دفع ليده سلطة التحكم في الرقاب، في فترة عمي الزمان فيها وسار الجميع خلف شعارات الزيف والوهم، رجال أمسكوا بزمام بلد لم يكن استعاد وعيه بعد، فوقع في براثن أشد ضلالة من سابقهم، رجال المزاج والكيف والنساء والمصالح الشخصية أولا، ثم مصلحة البلد هذا إذا كان لها وجود. المثل الأعلى هو حامد النجار وليل الدخان الأزرق والفراش العامر بالنساء عن طواعية أو مجبرات . المهمات خارج البلاد تحولت لليال مع العاهرات والداعرات ونساء الليل . في هذه الليلة كانت المهمة في باريس، داخل شقة تولى الجوكر ترتيبها مسبقا، نساء على مستوى نساء حي بيجال وزمرة من رجال

الفساد، إلا واحد لم يكن له في هذا الطريق أي خطوات، اجبره حامد النجار على اشتراكه في سهراتهم المأجنة مسوقا تحت تهديد مستتر، انزوى بعيدا عنهم وانشغل في مشاهدة برنامج تلفزيوني، ثار عندما اقتربت منه امرأة شبه عارية لتجلس فوق ركبتيه، انتفض واقفا واتجه للباب ليفر قبل أن تحاول امرأة أخرى اغتصابه. نظرة من حامد النجار أعادته للداخل، ليصبح تسلية الليلة ومحطاً للدعابات السخيفة الفاضحة، ثورة الكرامة اشعلت داخله، نهض واتجه نحو الباب للمرة الثانية، يلقي دون وعي بتهديدات يعلم تمام العلم أنه لن يجرؤ على تنفيذها لكنها أفسدت مزاج حامد النجار، نهض والشيطان يتقدمه، بصق في وجه الرجل قائلاً بأنه يراهن على أن أمه عاهرة، فقد الرجل صوابه وهو يسمع إسم أمه الطاهر يقترن بالعهر، امتدت يده بصفعة فوق وجه حامد النجار. عاد الرجل المحترم لبلده داخل نعش، تلوّثه إشاعات كاذبة، بأنه قتل نفسه بجرعة زائدة من المخدرات. لم تصدق زوجته التي تعلم حقيقة رجلها، أصرت على أن تبريء ساحة زوجها. لم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى استيقظت ذات صباح، لتجد جسدها عاريا بجانب حامد النجار وفوق شفتيه ابتسامة حية رقطاء، كاد الذهول يذهب بالنصف الباقي من عقلها بعد اغتيال زوجها، نادى على الجوكر قائلاً.. لا تنسى أن تعطى للسيدة الفاضلة نسخة من الصور الجميلة وهي ترقد بين ذراعي، النساء مغرمات بالاحتفاظ بذكريات ليالي الغرام،

نكست الزوجة رأسها وصمت لسانها من أجل أطفالها . تمت
لو كانت اكتفت من البداية بالترحم على زوجها، لم تكن تعلم
أن قوى الشر تسود في وقت من الأوقات، وعلى الضحايا
الأبرياء الانتظار حتى يتحقق عدل الآخرة .

عاد جاد بك الكومي من رحلته مع ماضي الذكريات، إصبعه لا يزال في رحلة الذهاب والعودة فوق الشارب المستقيم التماساً لبعض الإحساس برجولة ضاعت تحت أقدام زوجته فجر . ذكريات مخجلة وضعت في مكانة لا يقبلها أحط الرجال كرامة وشرفاً . قطع عليه ذكرياته صوت ضابط الشرطة الذي يرافقه اثنان من المخبين يسأله عن ابنه علي، حاول معرفة السبب، أصر الضابط أن يصطحبه دون إبداء أي أسباب، لم تجدي توسلاته أمام جريمة علم بها خالد حينما ذهب على عجل خلف أخيه عندما أتته مهاطفة من أمه بنبا القبض عليه . لم يحذف خالد شيئا من الحقيقة المفجعة حينما سردها على أبيه، هاجمت الشرطة الشقة الكائنة في إحدى العمارات، بناء على بلاغ تقدم به أحد السكان، بعد أن وصل إلى أذنه صوت استغاثة مكتومة، تكرر أكثر من مرة ممزقا سكون الليل . خاصة أن هذه الشقة دأب بعض الشباب على السهر بها وإغلاق راحة الجيران بصخبهم . عثروا في إحدى حجرات النوم على فتاة لا تتعدى الخامسة عشر شبه عارية، يديها مقيدتين، تتردد بين الحياة والموت . لم يستطع أحد من

الشباب الذين ضبطوا داخل الشقة، أن يدلي بأي شيء بعد أن أفقدتهم المخدرات القدرة على النطق السليم . في اليوم التالي قدموا اعترافا كاملا، اعتادوا الحضور إلى هذا الوكر الذي استأجروه خصيصا لمجونهم، يصاحبهم «علي» جاد الكومي الرأس المدير لشلة الفساد، لم يكن موجوداً بينهم بالرغم من أنه كان يصاحبهم طوال الليلة . الفتاة المسكينة مصيبتها فادحة، الأخت الوحيدة لأحد أفراد الشلة الفاسدة ،كان قد اختفى منذ يومين، تعيش هي وأخوها منذ فترة طويلة مع جديهما، تركهما الأبوان في رحلة لجمع المال والثراء . سافرا للعمل في إحدى الدول وتركوا أمر تربيتهما للجدين العجوزين . إنحرف الولد ونشأت الفتاة كمثل يحتذى به، حاولت أن تجتذب أخاها لكنها فشلت. ذات يوم تغيب عن العودة للمنزل، بحث عنه الجد في كل مكان محتمل لوجوده دون جدوى . تذكرت أنه يصادق «علي» جاد الكومي الذي رآها مرة وحاول مغاللتها بالرغم من صداقته لأخيها، تشككت، بحثت وعثرت على رقم هاتفه، تحدثت معه، أصر على مقابلتها ليفيدها بأخبار عن أخيه . إطمئن عندما أخبرته بجهل جديها بأمر هذه المقابلة، هددته بإبلاغ شكوكها للشرطة في أن له يد في اختفاء أخيها . بكذبة مسبوكة أوهمها أن أخيها يرقد طرف أحد الأصدقاء، هزمته جرعة زائدة من المخدرات وكادت أن تقضي عليه، احضروا له طبيب وخلال يومين سيتمثل للشفاء . كذبت فاقسم لها بأنه لم ينطق سوى بالصدق وعليها

أن تصطحبه لتتحقق من صدقه . سارت خلفه كأعمى تنتظره
بئر في نهاية طريق يجهله . دلفت من باب الشقة ملهوفة
لتطمئن على أخيها، انقض عليها الذنب وسلبها شرفها، تركها
مقيدة في غرفة النوم مستدعيا باقي شلة الفساد ليتناوبوا
الاعتداء عليها، تنطلق صرخاتها كلما وعت لنفسها، أثارت
الشك عند الجار الذي أبلغ الشرطة . عندما هاجمت الشرطة
الشقة كان «علي» جاد الكومي لا يزال يملك بعض الوعي،
مكنه من الاختباء أسفل الفراش ولم يفطن به أحد . في اليوم
التالي اعترفوا على شريكهم . المفاجأة المذهلة كانت في
بقية الاعتراف، لم تكن قضية تعاطى مخدرات واعتداء على
الفتاة فقط، غابت رقابة الأباء فتحول الأبناء إلى مجرمين
ووحوش، ألقوا بصديقهم أخو الفتاة المسكينة في النيل بعد
أن كلفه تعاطي المخدرات حياته، لفظ أنفاسه بين أيديهم على
أثر جرعة زائدة، خشوا المواجهة فقرروا التخلص من الجثة
. خشي «علي» الكومي افتضاح أمرهم بعد أن هددته أخته،
اقتادها لمصيرها الأسود الذي كاد أن يكلفها حياتها أيضا .
اعترفوا بأعصاب مات الحياء بها، بأنهم كانوا سيتناوبون
الاعتداء عليها حتى تلفظ أنفاسها، ثم يرسلوها لمياه النيل
لتلحق بأخيها .

صاح خالد الابن الأكبر في وجه أبيه بعصبية، عندما اتهمه
بالتقصير في الوقوف بجانب أخيه في محنته، قال لأبيه أنه
السبب فيما وصل إليه «علي» . لم يستطع أن يكتم ضحكة

نائحة وهو يقول .. لقد أصبحت أنا أخشى أن يلاحقني الأذى بسببه، ليس من المعقول أن يكون أخو الضابط مجرماً، أرح نفسك يا أبي ليس في مقدور أي إنسان أن ينقذ «على» من سنوات طويلة خلف القضبان إن لم يصل الأمر لحبل المشنقة .

قالت نادية وهى تجفف دموعها :

— المصيبة أكبر من استطاعتي تحملها، أخي ارتكب جريمة
قد تودي بمستقبله أو حياته .

وقال سليم وهو يتمزق ألماً :

— لو كان بيدي أن أفعل أي شيء لفعلته .. دموعك تكاد تقتلني .

قالت نادية والدموع لم تنته :

— أسفة يا سليم فما ذنبك حتى أشركك في همومي .. لم
ترتح نفسي لسواك لأفضفض عن كربى .

— لا تقولي هذا يا حبيبتي .. لو بيدي لتحملت تهمة أخيك
حتى تعود ابتسامة الورود لشفتيك .

— من كان مثلك يا سليم، التهمة الوحيدة التي يمكن أن توجه
إليه هي الطيبة ونقاء القلب، أما أخي فأنا أعلم بانحرافه
منذ فترة، حاولت انتشاله ولكنه كان مصراً على الغرق..
تشاجرت مع كل من بالمنزل اليوم واتهمتهم بأنهم هم
المسئولون عن هذه الجريمة وليس هو .

أمسك سليم بيدها وقبلها، تركت يدها بين يديه تستشعر
الأمان في لمسته الحانية، نظرت إلى عينيه وفوق شفيتها
شبه ابتسامة سيطر عليها الحزن وقالت :

— هل لا يزال الحب يطارد قلبك، بعد أن أضاف أخي «علي»
فضيحة جديدة لأسرتي .

— فضائح العالم كله غير قادرة على فك الرباط الذي جمع
قلبي بقلبك، لا يهمني في الوجود أحد سواك، ولو سمحت
لي الآن بأن أحضر المأذون إلى هنا لقفزت إليه .

قالت نادية بصوت يشوبه الأسى :

— لو بيدي لقفزت معك إليه، ثم نرحل إلى مكان لا يعرف أحد
الطريق إليه، حتى نبتعد عن كل ما يمكن أن ينقص علينا حبنا .

— ثقي يا حبيبتي أن الشمس خلف الغيمة .. ستشرق علينا
بضوئها الرائع وتكسب حياتنا معاً نورا ودفناً .. قال سليم
وهو يقرب يدها من أنفه يستنشق أريج عطرها . سحبت
ناديه يدها لتلمس بها وجهه لمسة حنان انفرجت لها
أساريره وقالت وبعض الأمل يتردد على محياها الرطب :

— ألتهني مصيبة أخي أن أخبرك بخبر يفرحك .. لقد وقعت
عقداً لبطولة فيلم، المنتج قال لي بأنني لو وفقت سيوقع
معني عقد احتكار .. خطوة كنت انتظرها بفارغ صبر لكي
أخرج من دائرة ممثلة الإعلانات .

لم تبد على وجه سليم أي فرحة، اكتست ملامحه بموجة من الخوف وقال بصوت مهتز:

— لست أعلم إن كنت أسر لهذا الخبر كما تتوقعين أم أحزن ويستولي على قلبي الجزع .. أين سأكون أنا من نجمة لها جمهورها .. منذ أن رأيتك وأنت بالنسبة لي أبعد من النجوم وحتى هذه اللحظة، أحياناً كثيرة أظن أنني واهم، وأن لقائي بك ضرباً من الخيال، وبأنني لزلت جالسا أمام الدكان انتظر أن أُملي نظري بمجرد نظرة منك .. فما بالك والشهرة تحيط بك كهالة حول القمر .. قد يدور القمر في فلكه الجديد، ولا ينوبني منه سوى أشعة فضية قادمة عبر آلاف الأميال كأي واحد فوق الأرض .

قالت نادية ودموعها تبلل المنضدة :

— إذا كان هذا هو مقدار إيمانك بحبي فاكفر به، مزق كل كتب الأديان، ألحد وقل أن السماء خاوية لا يوجد بها سوى الوهم، إركع للأصنام وقدم قرابينك للأحجار، قل ضاع الأمان من المساجد والكنائس ولن أجده سوى في الحانات، أصرخ مع عطوة الجزار وقل ضع «القدرة على فمها تطلع البنت لأُمها». ماذا تنتظر، اذهب إلى الشارع الضيق واجلس أمام دكانك مع الآخرين، سأحضر خصيصاً لأمر من أمامك لتعري عيناك جسدي كما يفعلون .

لم يبال سليم بمن حوله، نهض ليجتو أمامها ويدفن رأسه

في ركبتها، صوته الخارج من القبر ينوح على نفسه ويصل
بالكاد لأذنيها :

— أرجوك .. سامحيني يا حبيبتي .. اغفري لي قساوة قلبي
وغشاوة عيني .. لو كنت أعلم أن كلماتي ستجرح أجمل
زهرة في الوجود لمزقت قلبي حتى لا تنطق بها شفتي ..
التعاسة غير كافية لأعبر عما بداخلي الآن .. إن كنت غير
قادرة على العفو عني، أركليني وأذهب لحالك، سأحضن
تراب الأرض وأتوسل أن يأخذني إليه .

أحست نادية بدموعه تكوى ركبتها، دموع صادقة وحارة،
شعرت بحنان دافق نحوه .. ربت على رأسه بأصابعها الرقيقة،
رفعت وجهه إليها، لتدخل الطمأنينة إلى قلبه بابتسامة تطمئن
قلب الخوف ذاته وهي تقول ضاحكة:

— لولا مشكلة أخي «علي» لقتلت التقاليد، وذهبت معك الآن
لأخطبك من أبيك ليرتاح قلبك، ولا تفكر في بهذه الطريقة
مرة أخرى .

قال سليم تدعمه عيناه النادمتان :

— ماذا أفعل لأكفر عن شك مقيت اغتصب لساني، وجعله
ينطق بكلمات لن أسامح نفسي عليها .

— لا تقل أو تفعل أي شيء، وهيا بنا لألحق بميعاد التصوير،
تذكر دائما بأنك إذا رأيت يوما الشمس تشرق من الغرب،
تأكد وقتها من أنني سأفرط في حبك .

نهض الاثنان، تشابكت الأيدي، سارا في صمت اللسان
وحديث القلب إلي أن وصلا حيث تقف سيارتها، قالت:

- هيا معي حتى أوصلك للشارع الضيق .
- نظر إليها بدهشة ممزوجة بالفرحة وقال :
- ألا تخشين السنة عطوه الجزار ورفقائه .
- قالت ضاحكة وهي تدفعه لداخل لسيارة :
- بالعكس سأشعر بالفرحة وأنا أشاهد نظرة الحسد في
عيونهم للشاطر حسن، الذي فاز بست الحسن والجمال .

لم تنقطع دموع فجر على ابنها «علي» .. حتى مع
الدموع، إزدان وجهها بشباب وحلاوة صبية لم تبلغ العشرين
من عمرها، بالرغم من بلوغها الثانية والأربعين.. هذا ما
تقوله شهادة ميلادها.. لكن الجمال والفتنة يكذبانها ويشككان
في صحتها . تزوجت من جاد الكومي وهي في السادسة
عشر من عمرها، بفارق يزيد عن خمسة عشر عام بين
عمرهما، في السادسة عشرة لكن الطبيعة غمرتها بجمال
يتهافت عليه كل من يراه، المقاييس المضبوطة للأنثى، لا
تقل ولا تزيد . لم ترض على ابنتها نادية، أورثتها كل ما
عندها وزادت عليه، فتبعثرت غرائز الرجال أسفل قدميها،
وظافت روح سليم عفيفة حولها. نظر جاد إلى دموع زوجته
بدهشة ممتزجة بالرضا، هذه المرة الأولى التي يرى فيها
الدموع تغسل وجهها وتتساقط كنقرات المطر فوق الأرض، لم
يستطع أن يرفع رأسه أمامها أبدا، قوية عرفت كيف تركعه
تحت قدميها، رضح لخيانتها وباركها، طوى شرف الرجل
الصعيدي الذي تسيل له الدماء كالأنهار في جلبابه الوحيد
الذي هرب به من قريته وألقى به في الماء ليخمد أنفاسه

للأبد . رحل في رحلة للبحث عن المال والمتعة، حقق فوق ما يصبو من المال وزادت شهيته له، ربحه من المتاجرة بزوجته أضعاف ما ربحه من عمله . المتعة حصل عليها بين أحضان زوجته فجر، لم يفكر كثيرا في أن هذه الأحضان تضم غيره، الحصول على المتعة منها كلفه وصمة على جبينه تصرخ بأعلى صوتها .. رجل منزوع الكرامة والشرف .. تذوق الهوى كان بالنسبة له منحة وليس حق، عليه أن يغمض عينيه عن سلوكها، وألا فلن يذق سوى الذل تحت كعبي قدميها الحمرأوين كحبات الطماطم، تنسحق توسلاته تحت وطأة عنادها ورفضها، مع الأيام انسحقت بداخله نخوة الرجال وبعثرتها الريح فوق الأشواك، تمكنت فجر من أسر حريته بين يديها، لا تطلق له منها إلا بمقياس لا يبعده كثيرا عن دائرة نفوذها الجبار . قبل السفر للعمل في إحدى البلاد مع المقاول فرحات، وهو يعلم تمام العلم بأن هذه الرحلة ستجلب المزيد من العشاق إلى فراشه، الذكاء حالفه وتحقق ما فكر فيه بعقليته الأسيرة تحت ثياب فجر . لم يصبح المقاول فرحات هو العاشق الوحيد، إنكمش نصيب فرحات في الفراش وانزوى، أصبح مثله لا يحصل على المتعة معها إلا إذا رضح لمطلب لها، رب العمل الجديد السابح في بحور المال هو الفائز دائما، تفتح له الأبواب المغلقة . لم يبخل على رغبته في أن ترقد فوق فراش ووسائد محشوة بأوراق البنكنوت، انقلبت المتعة بالنسبة لزوجها جاد لمتعة إفراغ

الفراش والوسائد من حشوها، لإعادة ملئها ثانية، ليزيد من رصيده الملوث، يستحسن ذكاء زوجته الراقد تحت قدميها . عادت فجر هي وجاد من بلاد الغربية، ابتعدا عن الشارع الضيق المطلع على منبتهما، ليسكنا القصر الجديد تحت إسمي فجر هانم وجاد بك . دموعها المنحدرة بغزارة أمام مصيبة ابنها «علي»، كادت أن تكشف أمام عينها أن ما حدث، ربما يكون بداية لعقوبات أخرى قادمة في الطريق لزوجته خائنة وزوج قواد . أوقفت الدموع ونظرت نحو زوجها الحالم برؤية ضعفها ولو للحظات . عادت إليها النظرة القوية الآمرة، أعادت لزوجها حقيقة واقعة، بأنه لم يشعر في يوم أنه زوج لها وله حق عليها .. شعور دائم بأنه جوعان إليها، وبأنها تقصد دائما ألا تتخم شهواته حتى لا يتمرد،، ويمزق القيد وينطلق ليمارس عليها سلطته كزوج كباقي الرجال، بنفس النظرة القوية أمرته أن يتوجه من فوره ليوكل محام مشهور للدفاع عن ابنها، جففت الدموع وعادت إلى مراتها لتصلح من زينتها وتبعثر الأوامر استعدادا للحفل الذي ستيقيم في القصر بمناسبة عودتهما .

اجتمع الجميع في فيلا الدكتور عزيز علوي، في حفل بسيط لوداع الدكتور سامي وزوجته اليابانية ساكي وابنهما كامى . التأثير يبدو على وجوه الجميع ممزوجا بطيف من الحزن، دمة تترقرق في عين السيدة سميحة والددة سامي تحاول أن تسجنها، تنجح في المغافلة وتهرب بخفة مصطحبة معها مسحة من السواد الذي تطلّي به النساء عادة أهدابهن، يتجمع غيرها وتقتدي بسابقتها، يعلن الحارس فشله في سجن دموع السيدة سميحة . لم تستطع مقاومة الحزن الذي باغتها فور إعلان سامي قراره للعودة إلى أمريكا هو وزوجته اليابانية وطفلهما . امتلأت نفس الأم بالهناء وهي ترى ولديها سامي وعادل بين ذراعيها، تفكر بالسعادة التي ستكمل فور وصول حفيدها من ابنها عادل وزوجته ميرفت . الرياح عكست اتجاهها وذرت مما تحمله في عين الأم فأدمعتها . قرار سامي وأسرته الرحيل والعودة لأمريكا هز القلوب، أسروا الجميع بعشرتهم الطيب، خاصة الزوجة اليابانية التي طاب لها أن تكون واحدة منهم . لم تضع فرصة أبدا في أن تتعلم كل العادات والتقاليد، تشعر بلذة في تذوق الأطعمة الشرقية

جاذبة طفلها كامي لنفس الاتجاه . قطع الكاتب ناجي عنايت
حبيل الصمت الحزين، محاولاً أن يرسم شبه ابتسامة على
شفتيه وهو ينظر إلى سامي قائلاً :

– نحن نعلم عن الدكتور عزيز بأنه مكافح صلب، تخطى
عقبات كثيرة حتى وصل إلي ما هو عليه من نجاح،
ويقولون هذا الشبل من ذاك الأسد، فلماذا لا تكون أنت
هذا الشبل .

قال سامي بلسان متألم :

– صدقتي يا أستاذ عنايت أن العملية ليست هي كفاح أو
صلابة، وإلا كنت لن أسلم بسهولة، وسأثبت كما تقول
بأنني الشبل ابن الأسد ..
وقال عادل بلسان أكثر ألماً:

– أنا اعلم الجميع بطباع أخي الكبير سامي، التي تميزت
بالصراحة والوضوح والخط المستقيم في تعاملاته، كنت
أتوقع منه هذا القرار في أي لحظة .

وقال الدكتور عزيز وهو يهز برأسه مؤكداً :

– نعم، قابلتني الكثير من المشاكل وتغلبت عليها بعون الله،
لكنني ألتمس العذر لابني سامي .. قلت له لا تهرب وأنا
متشكك في قولي، الزمن الذي نشأت فيه يختلف عن هذا
الزمن، خاصة تلك السنوات الأخيرة التي قلبت كل مفاهيم
الأخلاق .

وعلق سامي وعيناه تشتركان مع لسانه في الألم :

— صدقتي لو وجدت كيف أهرب خارج دائرة الحقد والحسد
الذي أحاطني به الزملاء، ما فكرت أبدا في ترك وطني
والعودة ثانية لأمريكا ..

قال عنايت متأثراً :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما الذي حدث .. لماذا تغيرت
نفوس البشر . لقد كنا عنوانا يحتذى به للأخلاق والشهامة
والصداقة .. ما الذي حرك كل شيء لعكس اتجاهه .
وعلقت الأم من خلال دموعها :

— عندما تمتلئ الرؤوس بالماديات طاردة كل المبادئ والمثل،
يجب أن نتوقع كل شيء .

وقال الدكتور عزيز :

— وعلينا أن نتوقع الأسوأ .

وانتقلت كلمات سامي إلى العصبية قائلاً :

— نعم يا أبي هذا هو الواقع المرير، فكرت أن أعمل كطبيب
حر، لكن وجدت أنني سأفقد كل شيء وسأتحول كالباقين،
لا يهتمني في نهاية اليوم سوى أن أحصي ما ربحته من
مال على حساب المرض والمرضى . مجالي هو الأبحاث
والدراسة والتعليم، لكن وجدت أن الزملاء صنعوا حلقة
حولهم لا يسمحون لأحد بالنفوذ منها، تناسوا أنني مصري

مثلهم وابن بلدهم، راعني أن أجد الباحثين ينظرون بعين في المجهر والعين الأخرى يراقبونني بها، ليهدموا مسبقا أي محاولة للنجاح تظهر في أفقي . لا وقت لدى لهذه المهاترات، قررت الرحيل لأجد مكانا أرحب بين الغرباء للأسف .

وعلقت ميرفت :

— كل هذا صحيح .. لكن ما ذنبنا نحن بعد أن أحببنا رفقتكم كنت انتظر مولودي بفارغ صبر ليكون شقيقاً أو شقيقة لكامي . قالت ساكي بلغة إنجليزية حيث كان معظم الحوار يدور باللغة الإنجليزية لتتمكن من فهم ما يقال :

— العالم الآن أضيق مما تتصورين ياميرفت، ومن السهل أن نتبادل الزيارات كل فترة قصيرة، حتى تظل حبال الود متصلة دائما .

بلغت المأساة قمتها حينما دار الطفل كامي على الجميع يقبلهم ويقول بلهجة عربية مكسرة .. أنا بأحبكم كلكم .

بعد يومين من هذا الحفل رحل سامي وأسرته عائداً إلى أمريكا وبداخله حزن لا يعد ولا يحصى، بعد أن شجبت الحقيقة أحلام الأمس . عاد إلى وطنه فرحاً يحلم بالاستقرار في دفته، وهاهو يعود إلى غربته ثانية، متمماً في داخله أين كنا وأين أصبحنا يا أبناء وطني .

قال سليم وابتسامة مرتعشة تداعب شفتيه :

— أكاد ألامس السحاب فرحاً، وأكاد أهوي إلى جب الظلمة خوفاً ..

قالت نادية والابتهاج يطفح فوق وجهها :

— الفرح أعلم سببه، لكن الخوف لا أعلم أي ريح قذفت به ليعكر عينيك.

— نجاحك الشاهق كبظلة في أول فيلم لك على قدر ما هنأت نفسي به، لكنه أثار في داخلي خوف غريزي بأن من وضعت قدمها على نهاية الدرج، قد تنسي أن تنظر إلى الواقف على الأرض، ولم تطأ قدماه بعد أول درجة .

قالت نادية وهي تنقل دفء يديها إلى يديه :

— التي وصلت لآخر الدرج، ليست بالغباء بحيث تفرط في الأذرع الحانية الواقفة على الأرض لتتلقفها إذا هوت .

— أرجو يا حبيبتي ألا تضايقك كلماتي .. فأنا بشر لا أمتلك سوى روح واحدة، ارتبطت مع روحك برباط لا شيء يقدر أن يفصم بينهما، وبعادك يعني فرار روحي من جسدي،

ولن أجد أمامي سوى باب الموت اقتحمه ،كمن يلج باب
الجنة التي ستنتهي عذابه .

قالت نادية محاولة أن تركل خوفه :

– المفروض أن نحتفل اليوم بنجاحي، ونجلس فوق بساط
الأمل في الغد لا أن نلقي بغطاء من الحزن فوقنا ..
وحتى تطمئن نفسك، أرجو أن تنظر إلىّ دائما على أنني
ابنة الشارع الضيق، وليس كنجمة وطأت قدماها أبواب
الشهرة .. الحب الصادق يطفو دائما فوق أي اعتبار آخر.

– أليس من حقي أن أفيض بصراحة نفسي أمامك، قبل أن
أغرق ويتمكنني اليأس الذي انقشع أمام الطمأنينة التي
غرسها حبك في حديقة حياتي، أقسم لك أن خوفي ليس
أنت سببه، لكن أخشى اعتراض أهلك .

ضحكت نادية ضحكة أشبه بخليط من الهزء والمرارة
وقالت ودمعات ترقرت داخل عينيها :

– لا رأي لأهلي في أي شيء يتعلق بي، اعتدت على ذلك
واعتادوا هم عليه، لأن أهلي أشبه بأجزاء مفككة لا تنتمي
لبعضها ولا يمكن تجميعها أبدا، أمي حتى الآن لا يهتمها
سوى البذخ على جسدها وجمالها العجري، لتتلقي نظرات
إعجاب الرجال . أبي فكره يسبح وكرامته مسحولة خلف
جمع المزيد من المال . أخي الضابط خالد لا يهتمه سوى أن
يملا صندوق رغباته بكل الميزات المحرمة . أما أخي علي

فأنه ينتظر الحكم في قضيته، وقد يريح نفسه ويريحنا من مروقه ببضع سنوات يقضيها خلف القضبان. لا أشعر بأحد قريب من نفسي سوى رشاد أصغرنا، بيني وبينه محبة وتفاهم. أعجب العجب أن طينته تختلف تماما عن طينة باقي أهل المنزل. اجتمعت فيه كل الخصال الحلوة، متدين ومحب، عطوف صادق، يحاول أن يسد بجسده الهزيل نوافذ الخطيئة داخل منزلنا، لكن رياحها العاتية تقذف به بعيدا. لا ييأس ويعاود الكرة، أنهكته المحاولة، قذف في وجههم برأيه بالرغم من صغر سنه، أصبح بعدها منبوذا من الجميع، لا يجد صدر حنون سواي. أساعده وأقويه حتى يستمر في طريقه النظيف ولا يدع قدماء تنزلقان في وحل الباقيين، ما أفكر فيه الآن أن امسك بيده ونفر من هذا المنزل المتهوي.

علق سليم مستظرفا :

- بيده لوحده، وأنا أليس لي في يدك مكان لتمسك بي وتفر إلي عش صغير يجمعنا .
- من تربع في القلب لا يحتاج ليد تمسك به، وأعدك أنه لن يمر وقت طويل حتى نكون في عشنا الجميل بإذن الله .

من الواجب أن يرد الضابط خالد جميل الجوكر مدير مكتب حامد النجار، تعارفهما نشأ منذ فترة قصيرة، عن طريق زميل الدراسة وصديقه الضابط «وائل»، الذي يمت بصلة قرابة للجوكر. لم ينس وائل أبداً فضل الجوكر في التحاقه بكلية الشرطة، ولم ينس أيضاً ما يمكن أن يقدمه له الجوكر من خلف حامد النجار، تحين الفرص ليقدم له الولاء دائماً. عندما علم بجريمة علي أخو صديقه خالد، أسرف في أذن خالد بأن المعونة في جراب الجوكر مدير حامد النجار، اصطحبه إليه ليتم التعارف، وبالطبع سيكون هناك مقابل لهذه الخدمة العظيمة. كانت هذه إحدى وسائل «وائل» لرد معروف الجوكر معه، اصطحاب أصحاب الخدمات إليه والباقي معروف، الثمن قدر الخدمة التي ستؤدى وحجمها، خدمة خالد من الحجم الكبير، أخوه «علي» ينتظر حكم بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة. ضحك الجوكر وهو ينظر نحو خالد وهو في حلة الشرطة وقال:

— ألم تشفع له أضايرك !؟

أجاب خالد متزلفاً :

— أضايري لا تزال في القاع يا معالي الباشا، لا تشفع إلا في الأشياء البسيطة، ومشكلة أخي مستعصية، لكن ليس هناك مشكلة تستعصي أمام معاليك .

نظر الجوكر «لوائل» وهو يهز برأسه مبتسما وقال :

— أهنك على حسن اختيارك لأصدقائك، عاد نظره نحو خالد وفي عينيه نظرة ثقة مستمدة من رئيسه حامد النجار، بث الطمأنينة في نفسه، وبأنه سيتخذ اللازم لتبسيط الحكم إلى أقصى درجة .

وفي الجوكر بكلمته، بعد أن رمى بثقل حامد النجار في الموضوع، وصدر الحكم بسنة واحدة مع إيقاف التنفيذ، حكم للأسف لا يزن حتى جرام واحد في ميزان العدالة، أو بمعنى أفضل حكماً يتناسب مع عدالة حامد النجار وجوكره .

همس خالد في أذن صديقه «وائل» :

— أن الألوان لأبيض وجهك أمام حبيينا الجوكر، وسأدعوه إلى حفل ستقيمه أمي في قصرنا، سيكون هذا الحفل بمثابة الباب الذي سأدلف منه لأرد للجوكر جميله وفضله، لإنقاذه عنق أخي علي من حبل المشنقة أو على الأقل من السجن المؤبد .

— هيا أرنا همتك يا بطل وارفع رأسي أمامه، ولتعلم أنه يفكر في أن يضمك للعمل معنا في مكتب حامد النجار، قال لي بالحرف الواحد وهو يقهقه، بأنه قرأ في وجهك

مواهب ترشحك لتنال رضاء رئيسه حامد النجار ..
المواهب المطلوبة مواهب من نوع بعيدة كل البعد عن
موهبة العمل .

انتفش ريش الضابط خالد، كما لو كان الثناء وجه إليه
على بلاء حسن في العمل وقال:

– تأكد أن هذا الحفل سيكون مجرد تكريم له، وبداية
لإكراميات أخرى.

لبى الجوكر الدعوة مرحباً، يعلم أنها مجرد حجة حتى يتسنى
لخالد أن يقدم له أتعابه مع رجاء لقبول هديته المتواضعة،
ومن يدري فقد تكون هذه الحفلة من طراز الحفلات التي
ترضي رئيسه حامد النجار، يضرب عصفورين بحجر واحد
ويطلب من خالد أن ينال شرف دعوة حامد النجار في المرة
القادمة، وبالتأكيد لن يهدر خالد فرصة للتمسح في أذيال
شخصية كبيرة كحامد النجار .

كان من الممكن أن ينقلب الحفل وينفض السامر عندما
أتى رشاد الابن الأصغر ل «جاءد»، تنفس في الجو رائحة
الكحول المنبعث من أنفاس المدعويين، امتلأت عيناه بالأجساد
شبه العارية، أمه فجر تتربع فوق القمة وهي منحنية تداعب
الجوكر، أما جاءد أبوه فلم يكن دوره سوى أن يغض عينيه
عما يحدث، يرسم فوق شفثيه ابتسامة مرغمة راضية، لا
يفوته أبداً أن يمر بإصبعه فوق شاربه المستقيم ليتذكر أنه

لا يزال رجلاً . تراقص كل شيء أمام عيني الابن الأصغر ،
العنصر الثاني في المنزل بعد أخته نادية ، يحملان في
داخلهما شيئاً مختلفاً تماماً عن باقي أفراد الأسرة ، لا يعلم أحد
من أين حملاه ، الفضيلة والتدين لم يعرفا طريقهما إلى الأم
أو الأب أو الأخ الأكبر خالد أو صاحب السوابق علي . شيء
غريب أن ينبت في هذه الأسرة فرعان مورقان مثل نادية
ورشاد ، من المؤكد أن جذورهما لم يأخذاها لا من الأب أو
الأم ، ربما أنت من أجدادهما للأب الذين نشأوا على الصالح
من الأمور في قريتهم بالصعيد ، مزقها الأب عندما نفّض عن
قدميه غبار قريته تاركاً خلفه زوجة وأولاد ، قفز إلى قطار
اللاعودة لتصنع منه زوجته فجر ظل رجل . أشعل مشهد
الفساد المعلن في منزلهم النيران داخل رشاد ، الأم سكرى
يشاهد تديبها للذين رضعهما يكاد يلتهمهما الجوكر بعينيه ،
منحنية أمامه تداعبه كوصية الابن الأكبر خالد ، الباحث عن
المنصب والجاه ، حتى لو جاء على حساب كرامة أمه ، والأب
وضع كل كرامته المسحولة في إصبعه الذي يداعب الشارب
المستقيم . أخوه خالد ضابط الشرطة المسئول عن الأمن ،
كرس نفسه لتأمين الموبقات ، انتفخت أوداجه مزهوا لأن
الجوكر مدير مكتب حامد النجار لبي دعوته . هل تبذل هذا
كله يا رشاد وتصعد إلى غرفتك مع صديقك الحميم رمزي ،
لا.. الساكت عن الحق شيطان أخرس .. والحق يقول أن ما
يحدث الآن حوّل المنزل إلى ماخور كبير ، سأطرد الجميع

وليحدث ما يحدث . تحرك رشاد ببطء إلى المنتصف، قبل أن يفتح فمه بحرف واحد كانت عينا خالد الذي يعرف أخاه جيدا قد سبقت وقرأت ما يدور برأسه وما يمكن أن يثيره الآن من زوبعة قد تفسد كل مجهوداته لإرضاء الجوكر، قفز وأمسك بيد الكلاب ذراع أخيه، وفي عينيه تهديد ووعد يكفي لإخافة أسد ثائر . همس في أذنه أن يأخذ صديقه رمزي ويخرج فوراً من المنزل، لم ينتظر إجابة، سحبه وذراع رشاد تكاد تتحطم بين قبضته، خرج به للخارج وصديقه رمزي يسير خلفهما مطأطئ الرأس، نوازع في داخله تقارن بين فضيلة صديقه وفساد ما يحدث . أطلق خالد ذراع أخيه وهو يصب في أذنه بكلمات مهددة .. إذا عاد قبل صباح الغد سيودعه زنزانة في قسم الشرطة التابع له . انكمش رشاد كورقة خريف جافة، انتصر الخوف على مراحل غضبه، هز رأسه في صمت معلناً طاعته، كان يخشى خالد خشية الموت وهو يهدده مراراً، بأنه قادر على أن يسلمه لأيدي المخابرات الذين يعملون تحت يده، لتأديبه داخل الحجز مع المجرمين . رسم خالد ابتسامة على وجهه وعاد إلى ضيوف الرذيلة بالداخل، ربت رمزي على كتف صديقه ليهون عليه قائلاً :

— هيا أيها المشاكس سأستضيفك هذه الليلة، فأنا أعلم أن طعام أم رمزي يستهويك، انفطر قلبه وهو يرى الدموع تنهمر من عيني رشاد محدثة فرقعة فوق السلم الرخامي للقصر، جفف رشاد دموعه بكم قميصه ونظر إلى صديقه

رمزي وقال :

- هل تظن أن الدين الإسلامي يحض على الفجور .
- نظر رمزي إليه وقال وطيف من الحزن يظلل وجهه :
- يحدث أكثر من هذا عند بعض المسيحيين، فهل تظن أن الدين المسيحي أيضاً يحض على الفجور .
- سأل رشاد وقد ضيق الغضب ما بين حاجبيه :
- إذاً ما هي العلة ؟ ..

أجاب رمزي :

- العلة ليست في الأديان يا صديقي، الأديان إن اختلفت في أسلوب العبادة، لكنها متفقة تماماً في طريقي الخير والشر وسبل الفضيلة . العلة في سلوكيات البشر أنفسهم من كل عقيدة، البعض يذهب لأقصى الطرف ويركب جناح التعصب الأعمى ومفهوميات خاطئة عن الدين، يحاول أن ينشر أفكاره بطريقة همجية على سائر البشر . وهناك من يذهب لأقصى الطرف المضاد ويركب جناح العصيان والفسق والفجور، يزين طريق العثرة ليغوى ضعاف النفوس، الطرفان كلاهما خاطئ ومخطئ، أبعدتهما أعمالهما عن أمن وأمان الأديان . أما من يعرف دينه حقاً ستجده يسير بدون أعباء تثقل أفكاره، أراح نفسه وركز إيمانه في كلمتين فقط هما العصارة المركزة للأديان «الله موجود» ومن هاتين الكلمتين يشتق كل سلوكياته السوية في الحياة .

قال رشاد وهو يحاول أن يبتسم كطفل صغير ناسياً ما حدث منذ قليل :

— يبدو أن عظام القس يعقوب أنت ثمارها ..
وقال رمزي :

— ولا تنسى أيضاً جلساتنا مع الشيخ نديم هذا الرجل المبروك، أتذكره دائماً وهو يقول لي، صدقتي يا رمزي الدين هو الملاذ الصادق والأمين لكل البشر، بشرط أن يكونوا هم صادقين وأمناء مع أنفسهم، أنني عندما أراك أنت ورشاد تسيران وكثفاكما متلاصقان، أطلع إلى السماء وأقول هكذا خلقتنا يا الله، فاهدي هؤلاء الذين يكافحون لفسخ محبتك للبشر جميعاً .
قال رشاد وهو يشبك ذراعه في ذراع رمزي :

— محبة الله يجب أن تظهر فيما ستقدمه السيدة والدتك من عشاء لنا .

انتهى الحفل ونال رضا الجوكر تماماً من كل جوانبه، نظرات ومداعبات فجر توحى بأنها يمكن أن يكون لها وحكايات مع حامد النجار، ويثبت لرئيسه أنه لا يهدر أي فرصة في عالم النساء إلا ويقتنصها له . بالنسبة له شخصياً لا يهتمه اللعب مع النساء كثيراً، اللعب مع أوراق البنكنوت والذهب والهدايا يثير فيه النشوة أكثر . لم تضع الليلة هباء، كنوس من أجود الأصناف ومداعبات مع نساء قفز من

أسفل لأعلى بفضل المال المتدفق في غفلة من الزمن، فرأين
في التبرج والاستهتار المعيار المضبوط للأرستقراطية، زادوا
منهما بكشف أكبر مساحة من الأجساد وحركات مبتذلة لمن
تستهويه ومواعيد للقاءات من خلف ظهور أزواج التصق
الشرف بأسفل نعالهم . أغمضوا أعينهم عن قصد أو غير
قصد وليذهب الشرف للجحيم . الأهم من هذا كله بالنسبة
للجوكر هو اكتشافه لفجر وأنوثتها الطاحنة، والتي سيسهب
في وصفها لرئيسه حامد النجار وكيف يمكن أن تكون أنيسة
ممتعة .

أصرت المربية ذات الأصل الريفي، أن يكون الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد «علاء» على طريقة الأجداد، لأنه على حد قولها يقي الطفل من عين الحسود . خاصة أن ولادته كانت مرة، قاست فيها الأم، حتى كادت أن تصل للنزع الأخير . انهارت أعصاب الأب برغم كونه طبيب، أصر الجد الطبيب أيضا، أن يخرج ابنه عادل خارج غرفة العمليات حتى لا يزيد الجو توترا . جلس عادل خارج غرفة العمليات ممسكا بيد أمه يستمد منها القوة كما كان يفعل وهو صغير . احترق غليون الكاتب ناجي عنايت أكثر من التبغ الموضوع بداخله، لم ينطفئ منذ دخول ميرفت غرفة العمليات، يحاول أن يخفف بدخانه اضطراب أعصابه المرتعشة، وبالرغم من الخوف الساكن بداخله حاول أن يهدئ من جزع عادل . لم تكن ميرفت بالنسبة لعادل زوجة عادية، جنيته التي خرجت من بحور الشعر، لو حدث لها مكروه سينطفئ بداخله في نفس الوقت مصباح الحياة . مصباح حياته لا يشتعل إلا بزيت الحب والحنان التي تزوده به ميرفت ليل نهار . منذ زواجه منها وهي ساهرة على هذا المصباح، يرى على نوره وجه ميرفت

الحبيب في كل لحظة، أنجبت له الطفلة التي كان ينتظرها بفارغ صبر، كان يتمنى أن يكون أول طفل يرزق به ابنة تأخذ من أمها كل صفاتها . حولت له ميرفت الأمنية إلى حقيقة وأنجبت له «عليا» وكأنها قطعة منها، أصبحت الأم والابنة دنياء، يسكب كل روحه فيهما، اكتفى بهذه الابنة ليكرس لها كل حبه، خاصة أنه كطبيب وكنصيحة الزملاء من الأطباء علم أن الحمل مرة ثانية قد يضر بميرفت . إرادة الله هي الغالبة دائما، فوجئ بها تخبره أنها حامل منذ فترة طويلة، خشيت أن تخبره، خوفا أن يدفعه حبه لها وواجبه كطبيب يعرف خطورة حمل آخر عليها لخطوة قد تغضب الله، قررت أن تحتفظ بالجنين . مرت أشهر الحمل الباقية وعادل يكتم خوفه، لم يستطع تحمل المزيد، انفجر الخوف بكل قوته وهو يرى حبيبته تكاد تلفظ الحياة، اختلطت دموعه بدموع أمه تحتضنه كطفل صغير . في وسط الظلمة انفرجت طاقة وأشرقت الشمس بكامل أوجها، فُتح باب حجرة العمليات وأسارير الجد تضحك وهو ينظر إلى ابنه قائلا :

— أدخل إلى الحجرة أيها الطبيب لتعتني بطفلك وأمه .

قفز عادل غير مصدق، يمطر وجهه كل من يقابله بالقبلات، اندفع إلى الغرفة، أمسك بيد ميرفت يقبلها، غير عابئ بصياح الطفل المعترض على تجاهل أبيه، وجد في الجدة والكاتب ناجي عنايت ما عوضه بعض الشيء عن هذا التجاهل .

مر أسبوع واجتمع الجميع للاحتفال بالمولود الجميل الذي
استقبلته أخته «علياء» بالفرح، نظر عادل إلى ميرفت ضاحكا
قائلاً :

- أعتقد أن ابنة جميلة تشبهك وابن كثير الصياح كافيان .
- ضحكت ميرفت وهي تغذي الحب في عينيه وقالت :
- لا بأس من ثالث إذا كنت تريد .
- أمسك عادل بيدها وهو يقول :
- لو كان علىّ لاكتفيت بك أنت زوجة وحبيبة أرى في
عينها أطفال العالم كله .
- مثل عظيم لأبطال الحب في قصتي القادمة .. قال ناجي
عنايت ضاحكاً، استطرد، ولكن أرى أن تكفا عن المغازلة
حتى لا يغضب المولود منكما وأنتما بعيدان عنه .

قال سليم فرحاً :

– نجاح جديد تضيفيه إلى نجاحاتك السابقة .

وقالت نادية :

– هذا الفيلم حقق لي نجاحا مغنويا أكثر منه ماديا .

سأل سليم :

– الفيلم ضرب رقما خياليا في عالم المادة وطار بك إلى

السماء في عالم الشهرة، لكن لست أفهم ما ترمين إليه

من نجاحك المعنوي؟؟ ..

وأجابت نادية:

– أنت تعلم أن النجاح المادي والشهرة حققتهما من أول

فيلم، لكن النجاح المعنوي حققته في هذا الفيلم، الذي

أبرز دور المرأة في الحياة وفي المجتمع، وأنها ليست

سلعة ترفيحية لإرضاء شهوات الرجل .

– ما دمت تطرقتِ إلى الحديث عن المرأة والرجل، أريد أن

أسألك، من هو السبب في محاولة وضع المرأة في دائرة

العبودية ونظام الجواري الرجل أم المرأة ؟

قالت نادية بلهجة ساخرة :

— الرجل بالطبع، الرجل يسعى دائما لأن يكون المسيطر والمهيمن على المرأة وخاصة في المجتمعات الشرقية، بل هناك من يصف المرأة بأنها عورة، ووصل به التفكير الجاهلي بأن المرأة لا مكان لها سوى داخل القمقم، تقفز منه عند رؤية سيدها وتاج رأسها لتخرج له ساجدة قائلة.. أمر مولاي وسيدي ..

— ألا ترين أنك تشطين في حكمك على الرجل ؟

— أنني لا أعمم، فهناك رجال يرون في المرأة الرفيق المتساوي في طريق الحياة، وأعتقد أن ما حققته المرأة في جميع الميادين ما يؤكد ذلك.

قال سليم مبتسما :

— بالضبط كما تقولين فكما يوجد بين الرجال من يسيء إليهن، فهناك أيضا في النساء من تسيء إلى باقي النساء، بتصرفاتها التي تعلن أن المرأة هي التي تسعى لأن تكون تابعة للرجل وليست رفيقة .

ضحكت نادية قائلة :

— الفيلم أنا دافعت عن المرأة وعليك أنت أن تدافع عن الرجل .

قال سليم وفي عينيه رجاء :

- سأدافع عن نفسي فقط أمام ظلمك لي .. ألم يأت أوان الفرح لنعلن خطوبتنا كمدخل ليوم انتظره، أنني أسبح في الهواء ولا أعرف متى ستستقر قدماي فوق الأرض . لا أمانع أن تسجنيني في قمقم بسدادة، وحين أسمع صوتك أقفز قائلا، أأمريني يا سيدتي وتاج رأسي فأنا خادمك المطيع ..
- كفى .. كفى .. فأنت على وشك أن تصفني بأني جلادة وبيدي السوط . ألا تعلم إنني أنتظر هذا اليوم مثلك بالضبط وقد يكون أكثر. أنني أريد أن تكون أوقاتي كلها راحة واطمئنان كهذا الوقت الذي أقضيه معك، ولكي تؤنب نفسك، سأقول لك ما جئت أخبرك به اليوم، وأنساني النقاش الذي دار بيننا عن الرجل والمرأة أن أحدثك به فور لقائنا .

قال سليم وهو ينحني مستظرفا :

- أرجو المعذرة يا مولاتي لم أكن أقصد أن أضايقك، لكن قلبي فاض به كيل حبك، وأنت تعلمين أن ليس لي سوى قلب واحد .
- قالت ناديه وبعض من حمرة خجلي يزين وجهها :
- قل لي يا سليم .. كثيراً ما أشعر بالدهشة، فأنا أعلم مقدار حبك لي لكن ما يحيرني هو موقفك .. فكثيراً ما حانت لك الفرصة لكي تقبلني لكنك لم تفعل !!

قال سليم وهو يقبل يدها :

– هل تعلمين لماذا .. لأنني مريض .. وشفائي لن يكون إلا على يديك، لا أريد مسكنا وقتيا، أطلب علاجاً كاملاً بين أحضانك .. فهل تأخذك الرأفة بي وتحديدي موعداً للعلاج، قبل أن ألفظ أنفاسي، وتقاسي عذاب الضمير طوال حياتك لحرمانني من الدواء وهو بين يديك.

قالت ناديه ضاحكة وهي تربت فوق يده بحنان .

– هذا ما أود أن أحدثك به يا سليم .. لقد آن الوقت لنحدد موعداً لخطوبتنا، ثم بعدها بفترة قصيرة نحدد موعد علاجك حتى لا يؤنبني ضميري .

– هل يضايقك أن ألقى بنفسي في الماء فوراً، فأني أشعر بحرارة تلهب جسدي، لم أكن مستعداً لسماع ما سمعته الآن، كنت أنتظر هذه اللحظة واليأس يغمرني، لا أصدق أن اليوم الذي سنجتاز فيه باب الأفراح صار قريباً ؟
وقالت ناديه ضاحكة :

– لا تقفز إلى الماء حتى لا تصاب بالبرد وأنا في احتياج إليك .. استطردت .. والآن يجب أن نتخذ خطوة جادة .. أريدك أن تعمل معي، تساعدني على إنشاء شركة إنتاج سينمائي تكون أنت مديرها .. وعليك أن تتخلص من دكانك بالشارع الضيق لتتفرغ للعمل الجديد .

– يعز عليّ أن أتخلص من هذا الدكان، ففي الشارع الضيق امتلأت عينايا بك، وأرفف الدكان تحمل أحلامي، كل رف

عليه حلم، أمنيات وخوف ويأس وأمل وأشواق، أحلامي كلها هناك واعتز بها واحبها.

قالت نادية ونظرة الحنان تملأ عينيها :

- لست في حاجة إليها، الأحلام ستتحول لحقيقة .
- استكثر على نفسي هذه الفرحة، وأشعر بخوف لا أعرف كنهه، كنت أكره دائماً أن أقرأ في قصص ألف ليلة وليلة، نهايتها التي تقول وعاشوا في سعادة وهناء إلى أن أتى هادم اللذات ومفرق الجماعات، أخشى أن يأتيني الموت، قبل أن أهنأ بالسعادة معك في عش واحدا يجمعنا.
- لماذا هذا التشاؤم الذي قفز عليك فجأة .. ما الذي يخيفك.. نحن كآلاف البشر الذي جمع بينهم الحب وساروا في طريق السعادة، ليس أمامنا عوائق أو مشاكل فكن متفائلاً .
- قال سليم وهو لا يخفي توتره الذي حط عليه فجأة :
- لست أعلم !!.

وقف الضابط خالد أمام الجوكر معربا عن امتنانه الذي لا يوصف، وأنه لن ينسى أبدا هذا المعروف، كان لقرار نقله للعمل بمكتب الجوكر ليكون في خدمة حامد النجار، أسوة بصديقه وائل وقع لا يُستهان به داخل نفسه . الطريق الآن مفتوح أمامه للوصول إلى طموحاته، حامد النجار قوة لا يستهان بها، لم يكن قرار نقله لكفاءة خاصة، لكنها كانت خطة من الجوكر ليفتح الطريق أمام رئيسه حامد النجار لمغامرة جديدة في عالم النساء، تكون بطلتها فجر والدة خالد . كشفت عن مواهب لا يستهان بها في الحفل الذي حضره الجوكر في قصر جاد الكومي . رآها فرصة لكي يثبت لرئيسه حامد النجار أنه لا يضيع وقته هباء، وأن سنارته جاهزة بطعمها دائما للصيد وتقديم وجبة طازجة . أبدى الجوكر تواضعا جما أمام كيل المديح الذي ألقاه خالد أسفل قدميه، ضحك وائل وهو يرى السرور يقفز من عيني خالد وكأنه ولج باب الجنة بقدميه، لا يعلم أن مواهب أمه فجر هي التي ساقته إلى هذا المكان.

نظر وائل إلى الجوكر وقذف بقلبه وهو يقول مقهقهة :

— لقد ضمنا الآن أن نشاهد العرض الخاص لأفلام النجمة نادية كرم قبل أن تطرح في السوق.

قال الجوكر متسائلا :

— وما علاقة خالد بهذه الفاتنة .

— علاقة وثيقة يا باشا .. النجمة الشهيرة لن ترفض دعوة أصدقاء أخيها .

وقف الجوكر بحركة لا إرادية وهو يحدق في وجه خالد وموجهها كلامه لوائل :

— هل تقصد أن النجمة نادية كرم .. هي أخت خالد ؟

— نعم يا باشا .. شقيقته الوحيدة .

نظر الجوكر إلي خالد والابتسامة تملأ وجهه قائلا :

— لم تخبرني من قبل أنك تمتلك كثيرا من المواهب .

أجاب وائل مسرعا وضحكة قواد تملأ فراغ الحجرة :

— تواضعه يملئ عليه دائما أن يكشف عن مواهبه تدريجيا .

عاد الجوكر إلي مكانه وخياله يمرح في هذه المفاجأة .. أي ريح طيبة قذفتك علينا يا خالد .. في منزلك كنز يجب أن نقدمه لحامد النجار .. هذا الكنز سيضعني في مرتبة أعلى أمام عينيه .. الحمامة الكبيرة والزغولة الصغيرة . لا بد أن يذوق حامد من كليهما .. وجبة من الحمامة الكبيرة ثم الحلو على الزغولة الصغيرة، بعدها يسلم لي حامد بأني أبرع من

أدار مكتبه .. والمكافأة ستكون سخية بل سخية جدا .

نظر إلى خالد نظرة جديدة تفوق سابقتها، قال وهو يهز رأسه مؤكداً :

- سأنتهز أول فرصة لتقديمك إلى حامد باشا .. ثم غامزا بعينه .. وأنت عليك أن تنتهز أول فرصة لإقامة حفل في القصر، اعتقد أن حامد باشا لن يحرملك من شرف تشريفه. سيفتح لك هذا الطريق لتنال رضاه، أنت في أول الطريق، تلزمك الفرصة لتبدأ أقدامك في اتخاذ الخطوات السليمة نحو المستقبل الذي يليق بمواهبك (غامزاً بعينه) من الأفضل أن يكون هذا الحفل مقتصرًا علينا وبعض الأصدقاء الموثوق بهم، لأنك تعلم بالطبع المركز الحساس لحامد باشا .
- سيكون شرفاً كبيراً لي يا باشا، قال خالد غير غافل عن تلميحات الجوكر، الشرف والكرامة لهما معايير كثيرة في نظر البعض من أمثاله .

.. قال وائل وهو ينظر إلى الجوكر مبتسماً :

- وأنا أئن يكون لي نصيب في بعض الخطوات مثل خالد .
- قال الجوكر بلغة القواد الكبير التي يفهمها القواد الصغير :
- بالطبع سيكون لك نصيب كبير .. ألم تسمع عن المثل الذي يقول من جاور السعيد يسعد.

الهدوء يشمل قصر جاد الكومي، الساعة جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وبالرغم من تأخر الوقت، اضطر رمزي صديق رشاد أن يذهب معه، بعد أن انتهيا من مراجعة دروسهما في منزله لاستعارة أحد الكتب، صعدا إلى الطابق العلوي حيث غرفة رشاد، توقف رشاد أمام أحد الغرف كانت مخصصة للضيوف، نما إلى سمعه من داخلها همسات غريبة، فتح باب الغرفة واشعل الضوء ثم أطفأه سريعا . كانت هذه اللحظات كافية لأن تلم عيناه بكل ما يحدث بالغرفة، وأن تجعل الدماء الزرقاء تصعد إلى وجهه، تحيل وداعته إلى خطوط تتميز غيظا ووعيدا. المشهد لا يتناسب مع تركيبة عقله وسلوكياته، أخوه «علي» وقد تجرد من ثيابه تماما، في مداعبة لمتجردة من ثيابها والمشهد يقول أنها لن تخرج عن دائرة العاهرات . ما أن أغلق رشاد باب الغرفة سريعا حتى دب النشاط بها، وثب «علي» يرتدي ثيابه كيفما اتفق، وحذت حذوه رفيقة الليل وهي ترتعد غضبا وخوفا . كحارس ليلي وقف رشاد على باب الغرفة في انتظار مواجهة الأخ الفاسق، حاول رمزي أن يصطحبه لغرفته ويؤجل المواجهة إلى أن تهدأ الأمور، رشاد

صاحب الفضيلة لم يطق أن يغادر مكانه قبل أن يحاسبهما .
فُتح الباب وظهر «علي» وغضب شهوته التي أهدرت يعمي
بصره، هوى رشاد على وجهه بصفعة اهتزت لها الجدران،
بوغت «علي» بالصفعة من أخيه الذي يصغره، وضع يده
يتحسس مكانها المؤلم، كانت هذه فرصة لرفيقة الليل لتطلق
ساقها للريح متخذة طريقها للباب الخارجي . كان هروبها
مشجعاً لأن يستعيد «علي» جزء من توازنه المترنح تحت
ثقل وجبة ثقيلة من المخدرات، هروبها يعني هروب جسم
الجريمة، لم يتمهل وأمسك بتلابيب رشاد، ألقى رمزي بنفسه
بين الأخوين مجاهدا لأبعادهما عن بعضهما، نجح قليلا، لكن
«علي» كان قد استل مطواته وهو في حالة من اللاوعي
محاولا أن يدسها في جسد أخيه، حادت المطواة عن طريقها
لتستقر في جسد رمزي، صرخ ووقع على الأرض والدماء
تندفع كالصنبور من جرحه، ألقى «علي» المطواة وتبخر
من أمامهم في ثوان . أطلق رشاد صرخة أيقظت أهل البيت،
تجمع الجميع حول رمزي ودماءه، قفزت ناديه نحو الهاتف
لتستدعي الإسعاف، قفز خالد خلفها يرجوها ألا تفعل حتى لا
تتسبب في فضيحة وأنه سيتولى هو نقله سريعا لمستشفى
خاص ويعالج الموضوع بنفسه، حتى لا يتورط أخوها «علي»
«في جريمة ثانية وجريمته الأولى لم تجف بعد . انفجرت
ناديه تنعت أخاها «علي» بأبشع الألفاظ مصرة أن تبلغ
الشرطة . لكن رمزي بالرغم من آلامه، أشار لها بيده ألا

تفعل من أجل صديقه رشاد . الغريب في الأمر أن الأب سلك عكس الطريق، وبدلاً من أن يلقي باللوم على ابنه الفاسد، حاول أن يعنف رشاد على تدخله فيما لا يعنيه، انفجر رشاد واتهمه بأنه هو المسئول . وأنا ما حدث ما هو إلا نتيجة إغماضة عينه عما يحدث من موبقات داخل منزله، حاول الأب صفعه، حالت نادية دون ذلك متكاثفة مع أخيها رشاد الذي ترى فيه إشراقة جميلة، تختلف عن ظلمات باقي أهل المنزل، تمادى الأب في غيه، أقسمت أن تترك لهم القصر وتأخذ معها رشاد حتى لا تتلوث عينيه بمناظر السوء .

لم يحد والد رمزي عن نبل ابنه، لم يشأ أن يجرح رشاد صديق ابنه بالإبلاغ عن فعله «علي» أخيه، كاد أن يخرج عن هدوئه، عندما عرض عليه «جاد» مبلغاً من المال، وهو يظن أنه بذلك يضمن سكوته .

نفذت نادية تهديدها، تركت لهم القصر ليمرحوا في هوانهم، اصطحبت معها أختها رشاد وأقامت في شقة جديدة، وافقها سليم على خطوتها بعد أن قصت عليه مأساة أهل منزلها، وبأنها تريد أن تخرج عن دائرة أفعالهم المشينة، الأم التي تمسك بزمام الأمور توجهها كيفما شاءت وبما يرضي نزواتها، الأب اعتاد أن يكون ظلالها، خالد اللاهث خلف المنصب والمركز حتى لو كان الثمن هو الشرف، وعلى الذي تبوأ أستاذية الانحراف في سن مبكرة .

في مقابلة بين نادييه وسليم أسرت له بأنه آن الألوان ليزينا إصبعيهما بخاتم الخطوبة، على أن يكون ذلك بصفة سرية لا يتعدى الخبر أخاها رشاد وصديقه رمزي بعد أن تماثل للشفاء، أما الحفل والإعلان عن خطوبتهما فليكن في وقت لاحق، وافق سليم فوراً، لم يكن يعنيه في الأمر كله إلا أن تكون نادييه له .

اقترح رمزي أن يذهبوا إلي الشيخ نديم لينال الخطيبان بركته ودعائه، توجه أربعتهم نادييه وسليم ورشاد ورمزي إليه، لم تدر نادييه لماذا شعرت بالارتياح في جلستهم معه، تستمع لرجل دين متفتح، جمع بين الدين والدنيا في قالب مثالي لما يجب أن يكون عليه سلوك البشر . استمعت نادييه إلى أرائه المثقفة في الفن معجبة بها، الفن النظيف في نظره جزء من ثقافة المجتمع، والأفلام الهادفة هي وسيلة لراحة العقل المنهك دوماً في العمل، والدين لا يمنع المجتمع من أن يتمتع بالوسائل الترفيهية التي لا تضر به. انتهى اللقاء مع الشيخ نديم ونظر رشاد نحو رمزي ضاحكا وقال :

— ألا ترى معي أن نمتعهم أيضا بجلسة مع شيخ النصارى الأب يعقوب .

أظهر سليم ونادييه ترحيبا بأن تكون لهم زيارة للأب يعقوب، لم يندما على هذا اللقاء الذي أثبت لهم أن رجل الدين في كل طائفة أو عقيدة عندما يسمو فكره، ويرتقي

فوق خزعبلات البعض، الذين يحاولون أن يحولوا بها الأديان
لأسوار عالية تسجن خلفها معتقيها، يكون كالربان الماهر
الذي يبتعد بالسفينة عن تهديدات العواصف التي يمكن أن
تحطمها بمن فيها . تركوا الأب يعقوب تلاحقهم دعواته بالبركة
والنجاح في حياتهم.

لم يصدق فاضل الحلاق عينيه وهو يري الخاتم في إصبع
سليم، لم يخف على سليم الفرحة الحقيقية التي شملته، متمنيا
لجاره سليم التوفيق في حياته مع من أحبها بكل جوارحه .
لم ينس سليم أن يشكر فاضل تشجيعه له، الذي أكسبه الجرأة
لأن يلقي بنفسه أمام نادبة، ويعترف لها بهواه الذي امتلأت
به كل خلية بجسده .

تحين الجوكر الوقت المناسب ليقدم خالد إلى حامد النجار، وقف خالد مرخيا أذنيه ككلب وفي، قام الجوكر بواجب التعارف، لم يحظ خالد بأي اهتمام إلا بعد أن أسند له الجوكر شرف الانتماء للنجمة الشهيرة نادية كرم، تساءل حامد النجار كيف تكون أخته وهو يدعي خالد جاد الكومي والممثلة الشهيرة تدعي نادية كرم، سارع الجوكر بالتوضيح بأنه أسم الشهرة . بناء على غمزة من عين الجوكر، بسط خالد يديه للأمام كمستجدي يقف على قارعة الطريق، يطلب من حامد النجار أن يوليه الشرف الكبير، بتشريفه للحفل الذي سيقيمه بمناسبة شرف قبوله للعمل في مكتبه، أكمل الجوكر باقي المسرحية قائلا :

— الباشا لا يقبل الدعوة للحفلات العامة .

أجاب خالد كتلميذ استذكر الدرس جيدا :

— أنها ليست حفلة عامة وستكون مقتصرة على معالي الباشا

وأفراد الأسرة فقط .. ومن يرغب الباشا في دعوتهم .

قال الجوكر مستمرا في دور القواد .

— الباشا يحب الفن والفنانين وسيسره أن يتعرف على النجمة نادية .

— بالتأكيد أختي يسرها أن يكون لها شرف التعارف على معالي الباشا .. قال خالد وهو يضغط على كلمة اختي، لينال الرضا التام، بعد أن شاهد التغير الملموس في أسلوب حامد النجار، بعد أن علم صلته بالنجمة نادية . قهقهه حامد النجار بصوت ارتجت له الغرفة وهو ينظر إلى الجوكر ويقول :

— كيف استطعت بمثل هذه السرعة، أن تجعل من خالد شبيه لك بالضبط ؟!

— أنه تلميذ نجيب يا باشا، وكل من يعمل معكم يكون له شرف خدمة معاليكم دائما .

قال حامد النجار بلهجة من يمن عليه :

— شكرا يا خالد وتأكد أنه عندما يحين موعد الحفل سأكون حاضرا .

— شرف كبير من معاليكم .

استأذن الجوكر من حامد النجار، خرج يجر في أذياله خالد ونظرات حامد النجار تلاحقهما مرددا في داخله :

— كلاب أولاد كلاب .. الآن تنحنون أمامي، ولو تبخرت السلطة من بين يدي تبصقون على وجهي .

كانت مشكلة خالد في الحفل الذي يود أن يقيمه في قصر أبيه شيء واحد فقط، أهم وأخطر ما في الموضوع، ليس هناك مشكلة في أبيه الذي دائما يرحب بمثل هذه الحفلات ليضطرب أنه بمناداته بجاد بك، ولا يكل من إصبعه الذي لا يتوقف من الذهاب والعودة على شاربته المستقيم، الشيء الوحيد الذي تبقى له من مظاهر الرجولة، ولن يكون هناك اعتراض من أمه، لا تمنع في إقامة حفل كل يوم، تستمتع فيه بمغازلة الرجال والثناء على جمالها وقوامها، ولا بأس من مغامرة جديدة مع أحدهم تحت سمع وبصر ذو الشارب المستقيم . المشكلة كلها في اخته نادية، تركت القصر ولذت بالفرار ومعها رشاد بعد حادثة رمزي صديقه، لتقيم في سكن خاص بها . حامد النجار لم يظهر له الاهتمام إلا بعد أن اقترن اسمه باسم النجمة الشهيرة نادية . لم يرحب بقبول دعوته للحفل إلا من أجلها، ماذا لو أتى ووجد الحفل خاليا منها، مع حامد النجار لا أعذار، لا يريد أن ينهار البنيان قبل أن يبدأ . غياب نادية عن الحفل الإنهيار نفسه . ليس أمامه سوى أن يذهب إليها يريجوها أن تكون نجمة الحفل، سيزيد المشكلة وجود رشاد معها، حتى لو قبلت هي الحضور، رشاد لن يرضخ وسيؤلبها عليه، لا بد من المحاولة بأي طريقة.

استقبلت نادية أخيها خالد بالدهشة، تعلم جيدا أن زيارته ليست اشتياقاً لها أو لأخيه رشاد، معروف عنه الأناية المستعصية، انتهازي لأبعد الحدود، العاطفة ليست لها مكان

في قلبه، لا يدين بالولاء إلا لمن بيده مفتاح طريق الوصول للمركز والسلطة . كفاءته في العمل لن تصل به إلى مبتغاه، فليسلك الطرق السهلة بالنسبة لأمثاله، يضع كرامته في جراب ويلقي بها في الماء. الشرف كلمة لا معنى لها لا يتمسك بها إلا الأغبياء، الموضة هي عش بلا شرف تنفتح أمامك الأبواب . المثل يقول إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت الرقص، أبوه خير من يضرب على الدف ولن يتركه من يده حتى آخر يوم في حياته، هذه هي لعبته المفضلة التي يجيدها . نفذ غبار صعيديته يوم أن قفز داخل القطار، فليكمل هو الطريق ويبرع في الرقص على دقات أبيه . لم تخف عليه النظرة التي لعبت في عين أخته، عندما رآته يتصدر الباب وهي تقول بكلمات ساخرة :

— هل اشتقت إلى اختك واخيك فأنتيت للسؤال عنهما ؟!

أجاب خالد منافقا :

— ومن لا يشناق إلى أخت جميلة ونجمة مشهورة كأختي .

قالت نادية مختصرة الطريق :

— خالد .. ألا تريح نفسك وتريحني وتخبرني مباشرة عن سبب زيارتك .

قال خالد مستمرا في النفاق :

— ذكاؤك دائما يبعث على الاحترام .

- حسنا ما دمت تقرر بذكائي فخبّرني، ماذا أستطيع أن أقدم لك يا حضرة الضابط!!
- لا أطلب سوى الخير لك .. وأن تكوني نجمة الحفل الذي سأقيمه في قصر أبي .
- سألت ناديه متشككة :
- وبأي مناسبة تقيم هذا الحفل .
- آه يا أختي .. ألا تعلمين أن أخاك نال ترقية ونقل للعمل في مكتب حامد باشا النجار
- قالت ناديه وقد انكشف مقصده .
- وبالطبع سيكون حامد باشا النجار هو ضيف الشرف في الحفل .. أليس كذلك ؟
- قال خالد بلغة القواد الصغير :
- أنه شخصية محترمة وظيفه .. وقد يخدمك بمركزه ونفوذه .
- قالت ناديه متهمكة :
- وأيضا له سيرة عطرة في عالم النساء والفساد .. أليس كذلك ؟
- قال مستعظفا :
- هذه حياته .. ونحن لسنا مسئولين عن سلوكياته ..
- حضورك الحفل ليس أكثر من مساندة لأخيك، تساعدك للأرتقاء لمنصب أرفع .

– وبالطبع لكي تكون هذه المساندة ذات فعالية، لا بد أن أكون ظريفة ولطيفة معه .. ثم أردفت بجدية .. أسمع يا خالد أنت تعلم جيدا إنني لن أسلك هذا الطريق الذي ترمي إليه، أعتقد أنه من الأفضل أن تصل لطموحاتك بكفاءتك، وليس بالتسلق على أكتاف الشرف المهدر.

قال خالد مصراً على عدم اليأس :

– لا تفهمي الأمور خطأ يا اختي .. فأننا لست كما تظنين .. كل ما في الأمر أردت أن أتشرف بوجودك في الحفل .
تعقد الموقف بخروج أخيه رشاد من الغرفة والغضب يغطي عينه وقائلاً :

– ألا تستحي يا أخي .. ثم متهمها .. يا حضرة الضابط .. أن تجذب أختك لطريق الرذيلة .. ألا يكفي ما تفعله أمنا تحت سمعكم وبصركم .. ألا يكفيك أنك أخفيت جريمة أخيك الذي طعن صديقي رمزي .. أيها المسئول عن الأمن .

قال خالد والحنق يملأه وهو يتقدم من رشاد :

– ومن الذي دعاك للتدخل أيها الثرثار .
قفزت نادية لتحيل بينهما وقد تنقلب الأمور لعاقبة سيئه، رجعت رشاد أن يذهب إلى غرفته ويتركها تقرر أمورها بنفسها . أنصاع رشاد وهو يرمي خالد بنظراته النارية . أرادت نادية أن تنهي الموقف فنظرت إلى خالد قائلة :

- أترك لي فرصة للتفكير وسأتصل بك بالهاتف .
- قال خالد بلهجة منكسرة :
 - أرجوك يا أختي ألا تخذلي أخاك، وأعدك بأن الحفل سيكون على مستوى عال من الاحترام، وهذا وعد مني .
 - قالت نادية شبه واعدة :
 - أترك لي تدبر الأمر دون أن يعلم رشاد .
 - قال خالد متوددا :
 - كنت أعلم أنك لن تخذلي أخاك الأكبر ..
 - أنصرف خالد وابتسامة وضيعة تزين شفتيه .

قصر الكومي يموج بحركة غير عادية، يترأسها الضابط خالد وأمه فجر، يعاونهما وائل صديق خالد وزميله في العمل، الطيور على أشكالها تقع، الثلاثة لهم هدف واحد هو حامد النجار، الحفل من أجله والاستعدادات غير عادية، خالد يود تحقيق هدفه، التسلق لمنصب أعلى لا يثنيه عنه شيء حتى الشرف. لم يشعر بأي غضاضة وهو يميل على أذن أمه يطلب منها أن تكون لطيفة مع ضيفه، والطف له ألوان، ولون اللطف الذي يريح حامد النجار هو العريضة مع النساء، خالد يعلم هذا عنه، وبالرغم من هذا لا يكل عن التوصية كلما مر من جانب أمه، تستعد للحفل وتنتقي من الملابس ما يكشف عن أسرار أنوثته لم تغب عن رجال كثيرين. لم تزد إجابتها أمام إلحاح خالد عن ابتسامة، وكلمات بدت في عينيها توشى بأنها تجد متعتها في رؤية أعين الرجال تنهب جسدها، زاد خالد في إلحاحه نظرت إليه وقالت بفجور :

– لا توصني أنا فأنا لا أحتاج لتوصية، لكن عليك بأختك عندما تحضر.

قال خالد بضيق :

— أخشى ألا تحضر وخاصة أن رشاد يقف لها بالمرصاد .

أخطأ عطوه الجزار عندما أطلق المثل الذي يقول « ضع القدرة على فمها تطلع البنت لأمها » خلف ناديه وهي تسير أمامهم في الشارع الضيق . في منزل الكومي أنقلب الحال، يبدو أنهم لم يضعوا القدرة على فمها فجاء الولد لأمه . اثنان على نفس الطريق، طريق الوصول إلى الهدف من أقصر الطرق، أقصر الطرق بالنسبة لهما هو إهدار الكرامة، وجعل الشرف لقمة سائغة في فم من يريدون تحقيق المصلحة معه، أمه باعت شرفها تحت سمع وبصر زوجها الكومي في الأيام الأولى من زواجهما، للوصول للمال والغنى، واستمرت الطريق حتى بعد أن حققت ما تريد. أصبحت تجد متعة وكلاب الرجال يلهثون خلفها، تموت أن لم تستمع لكلمات الغزل في الحفلات التي كانت تقيمها بمناسبة وغير مناسبة لتجمع الرجال حولها . خالد ابن أمه، شرب من ثديها كل صفاتها، لم يعنيه شرفها أو حتى شرف اخته، الاثنان يجب أن يتعاونوا في إرضاء حامد النجار ليفوز باهتمامه .

الجوكر أول من افتتح الحفل، ليعد كل شيء بما يتناسب مع مزاج حامد النجار، لم يفته أن يمازح فجر أم خالد بكلمات تخدش الحياء، ليطمئن أنها ستقوم بالواجب مع ولي نعمته . حضر حامد النجار وكل شيء معد وفق هواه . القلق بدأ

يساور خالد، اخته لم تحضر بعد ولا أحد يجيب على الهاتف في منزلها. همس الجوكر في أذن حامد النجار يوجه نظره نحو مفاتن فجر، نجحت في إبرازها وتحدث بها الصبايا . بدأ اليأس يغمر خالد، امه تقوم بواجبها على ما يرام، شدت كالمغناطيس نظرات حامد النجار، يعلو بها من قدميها إلى قمة رأسها، ثم يعود للهبوط ثانية لتجتاز المرتفعات والمنخفضات المبعثرة على جسدها . لم تستطع الأيام والسنين أن تنال من هذا القوام المتأجج، يتماوج مع رنين ضحكاتها الشهية .

همس النجار مقهقهاً في أذن الجوكر بعد أن رقصت الخمر برأسه :

لم يخب ظني فيك أبدا يا ابن الكلب، قهقه الجوكر قهقهة السعادة، النجار لا ينعم عليه بهذا اللقب إلا إذا كان راضياً عنه تمام الرضا . خالد له وجهة نظر أخرى، ينظر إلى أمه على أنها طبق المشهيات الذي سيقدمه لحامد النجار، لحين حضور الوجبة الدسمة، اخته ناديه . الوقت يُسرع ولم تحضر بعد، مال على أمه يشكو أخته، نظرت الأم إليه كناكر للجميل، تقول عينيها.. يالك من جاحد، ألا يكفيك أمك وسحرها على الرجال . قبل أن يجيب خالد، هلت ناديه كالبدرد الذي غافل الغيمة وطل من خلفها، التوت أعناق الجميع نحوها ودوى المكان بالتصفيق، سارع خالد يمسك بيدها ليقدمها للجميع وكأنه يمسك بسيف النصر، كل شيء فيها ينطق بجمال

غير عادي واحترام فوق عادي، فستانها المحتشم الذي يخبئ أسفله كنوزها الأنثوية كان أكثر إثارة من العري، كانت كالعطر المعتق يفوح أريجته حتى وهو حبيس علبته، يُفعم المكان بعبق غامض يدير الرؤوس . يطمع الجميع في الحصول على المزيد، لكن العلبة تصون الجوهرة . أحست ناديه بعينيه تودان اختراق الحواجز، سهام نظراته تنكسر وتتساقط أسفل قدميها، نظرات الكبرياء والتعالي نكأت الجرح القديم في قلبه، أيقظت سر مأساته، مأساة حامد النجار كانت تكمن في صفتين طار لهما صوابه، الأولى وهو في مرحلة الطفولة وأمه تحتضن الخيانة في فراش أبيه، والثانية عندما تقدم في بداية حياته وهو مرفوع الرأس ليخطب فتاة لم يكن بينه وبينها سوى نظرة، خيل إليه أنها ممتزجة بابتسامة تشجيع، لكن أبواب القصر الذي كانت تقطن فيه مع عائلتها ذات المركز الاجتماعي المرموق، أغلقت في وجهه قبل أن يطأ عتبته، نزفت عروق كرامته كل دمائها خارج أسواره، قرر أن يعيش بدونها، تسلق على الأكتاف للوصول إلى هدفه، تعقدت بداخله كل خيوط النساء وقرر الانتقام منهن . الإيقاع بهن هوايته المفضلة، صفتان تلقاهما في بدء حياته، دائماً يضغطان على عقده، يرى في اختلاعه بأي امرأة بعد أن يلعب في جوفه الخمر أنه انتصار على نساء العالم، حتى لو كانت هذه المرأة من فئة نساء الليل . ضغطت نظرات ناديه على جرحه وآلمته بشدة، يجب أن يصل إليها

. بعد أن يقضي وطره منها، سيركلها بقدمه، يقول لها بأن كل ما وجدته في جسدها لا يختلف عن باقي النساء فلماذا التعالى ؟ . سيقول لها أن نساء العالم كله يجب أن يجتمعن في ماخور واحد فهو أفضل مكان لهن، خلق الله النساء ليتمتع الرجال بهن، لماذا خلقت حواء من ضلع آدم ؟ خلقت من لحم وعظم ليأكلها الرجل بالهنا والشفاء ويعيد ضلعه لمكانه، يأكل اللحم ويمصص العظم، لا بأس من ضلع واثنين وثلاثة . المهم أن يعرف كيف يأكل اللحم ويمصص العظم، وعندما يهضمه يتحول لضلع آخر . فاق من أفكاره المريضة على نظرات نادية التي تبدلت من التعالى إلى الاحتقار، تبعثرها على الوجوه التي سلختها حرارة الخمر وهي في طريقها للباب دون أن تنبس بكلمة واحدة، ساخطة على مجون أمها، وشارب والدها المستقيم الملطخ بالذل.

لم يرض الجوكر عن سلوك نادية، ووجه نحو خالد نظرة توبيخ، سارع نحو ولي نعمته، محاولاً أن يلطف من التوتر الذي بدا على وجهه وهمس في أذنه وهو يبتسم قائلاً :

— البنت والا امها يا باشا .

أجاب حامد النجار وهو يعض نواجذه :

— الاثنان أيها المغفل .

انهارت ميرفت، أبوها ناجي عنايت، مُسجى فوق الفراش في لحظاته الأخيرة، شعور مسبق باليتم داهم عادل زوجها وهو يرى فيه أبا ثانياً له، أحبه كأب وككاتب لم يمل أبداً من القراءة له . من اللحظة الأولى ارتبطت محبة ناجي عنايت بقلب عادل، يعرفه قبل أن يلقاه من إبداعاته، ارتبط خياله به . الحقيقة التي وجدها فيه أروع من الخيال . العلاقة بينهما لم تكن علاقة عادية، لم تكن مجرد علاقة بين شخص ووالد زوجته، كانت بينهما أشياء مشتركة زادت من التحامهما، أهمها التفاني في حب الزهرة الرقيقة ميرفت . والسر المشترك بينهما، السر الذي أخفاه ناجي عنايت عن الجميع، ميرفت ابنة أخيه وليست ابنته، لم يبح بهذا السر سوى لعادل، الآن سيتركه ليحمل السر وحده . الدهشة بدت في عيني ميرفت، عندما سألها وهو في لحظاته الأخيرة، أن تتركه قليلاً مع زوجها عادل . هطلت الدموع من عينيه في صراحة تامة، أمسكت يده بيد عادل، عيناه تحملان من الكلمات أكثر مما تنطق به شفتاه . يرجوه أن يضع ميرفت داخل حدقة عينيه، مذكراً إياه بمسئوليته نحو السر الذي

كتمه في داخله طوال العمر، من أجل أن تنشأ ميرفت معتقدة أنه أبوها، حتى لا تنغص عليها حياتها فكرة فقدانها لأبيها وأمها في آن واحد، رجاء أن يخبرها بالحقيقة إذا استدعت الضرورة، ويرجوها باسمه أن تسامح من كان لها أبا وأما في آن واحد، وأنه لم يخف عنها الحقيقة إلا بدافع من حبه لها، وبأنها كانت بالنسبة له عوضا عن ابنه الذي فقده وهو لا يزال في أحشاء أمه . أشار بيده لعادل ليستدعي ميرفت سريعا، فاضت روحه وهو يحتضنها . أصاب الحزن كل من اقترب من ناجي عنايت، الحزن كان مضاعفا على حفيديه عليا وعلاء اللذان شبا في رعايته، يسقيهما من ثقافته وخبرته في الحياة، لم يكن غريبا أن تصبح عليا شاعرة كأمها وهي في عمر الزهور، موهبتها تنبؤ عن مستقبل عريض في عالم الأدب.

لم يتوقف فكر عادل، السر الذي ألقاه على كتفيه ناجي عنايت وتركه ورحل، أثقل كاهله، لم يفكر فيه من قبل بهذه الصورة، لأن ناجي عنايت كان يقاسمه فيه ويحمل مسؤوليته منذ البداية . الآن أصبح وحده الأمين عليه . سؤال يحيره ويقلقه، ناجي عنايت حملة أمانة إخبارها عند الضرورة، متى تكون هذه الضرورة لا يعلم ؟، لها أم وخالة لا يعلم أين هما ؟ ولها إرث من حقها، متى تكون ضرورة إخبارها ؟ الأم والخالة لم يستطع ناجي عنايت العثور عليهما، بالرغم من الجهد الذي بذله للوصول إلى مكانهما . لو كانت الخالة ذهبت

إلى المنزل، حيث ترك ناجي عنايت ورقة بها هاتفه وعنوانه
لاتصلت بهما، إذاً فحتى الآن مجهولتا الإقامة، الإرث لن يضيع
وسيظل باقيا، في أمريكا لا يضيع شيء . من الأفضل أن
يكف عن التفكير في هذا الموضوع في الوقت الحالي، يتركه
للظروف فقد تكشف الضرورة عن نفسها تلقائيا، الضرورة
التي تحتم الكشف عن السر كما أوصاه ناجي عنايت .

كل النساء اجتمعن في امرأة واحدة، الفوز بها انتصار على جميع بنات حواء، الجمال كلمة لا معنى لها أمام ما يصرخ به وجهها من ملاحه، الإغراء كله يهوي صريعا تحت قدميها . كل هذا لا يهم يا حامد يا نجار، أبهرت في النساء، لم تفرق بين بنات الليل وزوجات خائفات ونساء ضائعات، لم تطأ طيء رأسك أمام أي واحدة منهن، لكن جبهتك كادت أن تلامس الأرض أمام نظرة الاحتقار الهائلة التي رمتك بها نأديه . لم يستغرق الأمر سوى ثوان لكنها كانت بمثابة دهر من الهوان، ألقى باحتقارها في حضنك وخرجت من الباب كملكة متوجة . سحقت نظرتها كل جبروتك وطغيانك وذرتة في الهواء، تركتك تلعق ما تبعثر منه على الأرض، غمرتك إحساس الكلب الذي يتلهف على عظمة تُلقى إليه، وحتى هذه حرمتك منها . ماذا بك يا حامد يا نجار ؟ هل قتلتك نظرتها ولم يبق بداخلك سوى الذل والخنوع؟ عُدت إلى حقارة منبتك، دفنته في الأعماق حتى لا يهتدي إليه أحد، فجأة وجدته يطفو ليأخذك معه إلى الأعماق من الأعماق . لا يجب أن تستسلم لكبرياء نظرتها، عد وابتلع كل ما سحقتة

من جبروتك وطغيانك، اشرب ماء العالم كله لينتفش في داخلك، اسحق به أي نظرة تستهين بك . ناديه لا بد أن تركع أمامك وتلهبها بسيطاك حتى تدمي إغراء جسدها، العق دمها فقد يكون فيه شفاء من الخنجر الذي طعنتك به. نظرة واحدة انقلب بعدها جبروت حامد النجار، السهرة في قصر جاد الكومي تلونت الدنيا بعدها بلون الذل . منصبه الذي وصل إليه متسلقا، وغزواته في عالم النساء، جعلته يظن أن كل شيء تجمع بين يديه . رجال صناديد أزاحهم عن طريقه وأرسل بهم للسجون والبعض الآخر لغزرائيل . فجأة اكتشف الوهم، أخرجت له الدنيا لسانها . وضع يده على الجرس ولم يرفعها إلا بدخول الجوكر مهرولا بخطوات يلتف حولها الخوف . كال له عقب الحفل في قصر جاد الكومي من السباب ما يزن بالقنطار. كما اتهم الجوكر خالد بأنه هو السبب فيما حدث وبأنه لا يصلح للعمل معهم، ناديه أخته ألقت بقاذورات العالم فوق رأسه ورأس ضيوفه.

قال الجوكر بصوت مرتعش وعيناه تلحقان الأرض :

— أوامر الباشا .

— قد يكون الأمر الأخير يا جوكر وأنت تعرف ماذا ينتظرك لو فشلت في تنفيذه، واخبر هذا الضابط خالد أيضا بأن العمل في مصلحة السجون يحتاج لخبرته أن لم يصلح ما حدث من أخته.

— كلنا في خدمة سعادتك يا باشا .. إنها لا تعدو طائشة
بهرتها أضواء الشهرة، غاب عنها أن سعادتك يمكن أن
تطفئ بريقها بنفخة واحدة من فمك.

— ليس بهذه السهولة أيها المغفل، نأديه نجمة مشهورة
ولها جمهورها العريض، تلفيق تهمة لها ليس بالشيء
السهل، لا أريد منها سوى أن تركع نظير استهانتها
بحامد النجار .

قال الجوكر متذللاً :

— سيكون لها شرف الركوع أمام سعادتك يا باشا .
— في هذا الموضوع لا تتخذ خطوة إلا بعد استشارتي، إبدأ
بتقصي أخبارها خطوة بخطوة، وإذا كانت تربطها علاقة
بأحد، ولا تنسى أن تخبر خالد أن هذه فرصته الأخيرة .

— جميعنا في خدمة سعادتك يا باشا، ولا تقرر لنا عين إلا
برضائك، ولكن ما رأي سعادتك بأمها فجر يا باشا .

— هذا ما يدهشني .. الأم تمتلئ عينيها بالفجور، والبنت
تمتلئ عينيها بالكبرياء والعزة، بينهما بحر لا يمكن
لإحدهما أن تعبره نحو الأخرى، في عالم النساء لم ولن
يتساوى الغالي مع الرخيص.

في صالون نورا هانم فياض تجمعت ألوان الفن والأدب،
القربى وثيقة بينهما، كلاهما يحمل شيئاً ما للآخر، إبداع
الفن وإبداع الأدب، لا يستطيع أحدهما أن يهرب من الآخر .
الموهبة عامل مشترك يربط بينهما، والمواهب تتشمم
بعضها، كان من السهل أن تتآلف نظرات نادية الممثلة
الموهوبة مع نظرات ميرفت الشاعرة الموهوبة، في اللقاء
الأدبي السنوي الذي تنظمه نورا هانم فياض، في صالون
فيلتها التي تتوارى خلف مجموعة مورقة من ظليل الأشجار،
في حي هادئ من أحياء الزمالك . اعتادت نورا هانم على
هذه الأمسية الأدبية الرائعة منذ فجر شبابها، عندما تزوجت
فياض باشا الرافعي، كان صالونه ملتقى الأدباء والفنانين،
تذوقت هذه الأمسية واستعذبتها وظلت وفيه لها حتى بعد
انتقال زوجها للعالم الآخر . أحبته بجنون وكانت ترى في
إحياء هذه الأمسية كل عام إحياء لذكراه . جمال أسر وبشرة
تبدو كضوء الفجر تهرب من أسفل ثوب أسود بسيط، تأبى
أن تبدل لونه منذ وفاة زوجها وحبيبها، ترمى أسفل قدميها
أساطين الرجال يطلبون وصالها، اعتذرت للجميع بأن زوجها

ما يزال يعيش داخل قلبها، وستحتفظ به حتى يجمعهما
الثرى سويا . شاهدت الاحترام والتقدير في كل النظرات التي
تحيط بها رجالا ونساء، أصبح الملتقى السنوي في صالونها
أمنية لكل من صب موهبته الفنية أو الأدبية في قالب من
الاحترام . دُعيت الفنانة نادية إلى هذا الصالون الأدبي، فنها
الراقي الذي يرفض الهبوط دفع بها لكي تكون من رواده. أما
ميرفت فلقد اخترقت أبوابه منذ فترة طويلة وهي ممسكة بيد
أبيها ناجي عنايت، بعد ارتباطها بعادل أصبح ثالثهما، برحيل
ناجي عنايت انكمش العدد لاثنين هيَّ وعادل زوجها . بدون
مقدمات أو انتظار لتعريف تلاقت ابتسامة نادية مع ابتسامة
ميرفت، لم تمر بضعة دقائق حتى تولدت ألفة لم تتطلب أي
جهد لكي تنصهر في بوتقة واحدة . سر عادل بتعارفهما،
وجد فيه منفذا يسري عن زوجته ميرفت قليلا، وينسيها
بعض الشيء حزنها على والدها ناجي عنايت، ودمعة دائمة
الفرار من عينيها منذ رحيله .

مرت الليلة في سهولة ويسر وسط مناقشات أدبية وفنية
ممتعة، زاد من سحرها قصيدة لميرفت عنايت كان مطلعها :

الحياة .. ما هي الحياة ؟

مجهولة

لمن لم تسر قدماه خطى الحب

لمن لم تغزف أوتار قلبه

حلفت ميرفت مع كلماتها، بوجنات متوردة، ونظرة حاملة
ألقت بظلالها الرخيمة على الحضور، كأنها تروي قصة حبها
مع عادل. اهتز قلب نادية وهي تستمع لها، وطيف سليم
يتجسد أمامها مع كل كلمة غلفتها رقائق العشق، تنساب
من بين شفتي ميرفت وكأنها دعوة مفتوحة لكل القلوب،
لتنهل الحب من أعذب منابعه . انتهت ميرفت من إلقاء
أبياتها الشعرية الحاملة، وجدت نادية نفسها مدفوعة بقوة لا
تدري كنهها نحو ميرفت تعانقها، لتصبح هذه اللحظات وثيقة
صداقة قوية بينهما .

في وسط هذا الجمع كانت عينا ثعلب ملتصقة بنادية،
تخطو معها كل خطواتها، لم يكن هذا الثعلب سوى أحد
الجرسونات التي تستعين بهم نورا فياض في هذه المناسبة
للحفاوة بضيوفها، هذا الجرسون لم يكن سوى دسياسة ألقى
به الجوكر خلف نادية، يعد عليها حركاتها وسكناتها تنفيذا
لما أمره به سيده وتاج رأسه حامد النجار، لم يفت الدسياسة
أن يسجل رقم السيارة التي استقلتها نادية عقب انتهاء
الليلة، لم يكن قائدها سوى خطيبها سليم الذي أصر أن أن
يكون سائقها الخاص هذه الليلة، رفض الصعود معها رغم
توسلاتها، منتظراً حتى اليوم الذي يستطيع مرافقتها بصفة
رسمية كزوج .

القط والفأر، حامد النجار والجوكر، نظرات باردة كالموت في عين الأول، ومسحة من المسكنة والتذلل فوق وجه الثاني، وطلب عفو لا يزال مرفوعاً، بسبب الإهانة التي لحقت بسيده من ناديه . في لحظة تحولت النظرة الباردة في عين حامد النجار إلى نظرة جمرية اكتوى بها الجوكر، يعرف تماماً ما تخلفه من حروق تلظى بها جسده من قبل، سارع لإخمادها بشبح ابتسامة راجفة فوق شفثيه قائلاً :

— كل المعلومات التي طلبتها عن ناديه سعادتك جاهزة ورهن إشارتك .

— إحذر الخطأ، صبرت كثيراً، الموضوع أخذ صورة تفوق حجمه، عندما تنال هذه الناديه شرف الرقاد فوق فراشي ستتوسل في طلب المزيد، ووقتها سأركلها بقدمي خارج النافذة وليس الباب .

— بالتأكيد يا باشا، من تلك التي تستعصي على سيد الرجال، الذي رقدت أمامه شتى أنواع النساء، واعترفت برجولته عاهرات شارع بيجال بباريس، لكن ما يحيرني يا باشا،

هل تريد أن تبدأ بناديه أم أمها.

— ألم أقل لك يا غبي، أنك غير مستحق حتى لوصفك بالغباء، ألم تدرك بعد أن مخالبي متجهة بكل قوة نحو ناديه، أمها صنف من النساء مستعدة دائما، قدم فوق الفراش وقدم على الأرض تنتظر دائما الإشارة لتلحق بأختها فوق الفراش، لكن هذه المتمردة لن أنسى نظرة عينيها، أحسست بعدها بأن رجولتي لم يعد لها مكان سوى سلة القمامة، هذه الإهانة سأجعلها تستحم بها من قمة رأسها لأخمص قدميها .

نبح الجوكر ككلب يسترضي سيده :

— معلوم يا باشا، ستستحم بها وتغرق فيها للأبد، أحضرت لسعادتك معلومات عن كل من يحيط بناديه، لم نتهاون في جمع أي معلومة عنها، سأخبر سعادتك بها ثم ننتظر ما تشير به للتنفيذ الفوري .

— قل وأوجز فلدئ اجتماع بعد ساعة واحدة .

قال الجوكر كأحسن ما يكون القواد :

— أنسيت يا سيدي أنك على موعد مع الراقصة الأجنبية التي فتنتك، وتنتظرك بشقة المعادي، أصدرت تعليماتي باستقبالها هناك .

قال بغطرسة منصبه الذي هبط عليه من حضن الظلام :

— دعها تنتظر بعض الوقت، فهي تنتظر حامد النجار .

قال فنان القوادة :

— هناك مثل يقول يا باشا .. لا تدع النساء ينتظرن طويلاً، وهي سترحل غداً مع فرقتهما، والاجتماع يمكن تأجيله، لكن ساعة الحظ لا يمكن أن تعود ثانية .

— صدقت يا جوكر، أشعر أحياناً أن ومضات من الذكاء غريبة عنك، تجتاح عقلك لبضع ثوان ثم تنطفئ، فلنؤجل الاجتماع، أسلت لعابي لهذه الأجنبية، هات ما عندك بالنسبة لناديه.

— بالنسبة لناديه يا باشا وقتها كله تقضيه في العمل، ليس لها صداقات مع زملائها الفنانين، نادراً ما تلبى الدعوة لأي سهرة، علاقتها مع أسرتها شبه باهتة، تستنكر سلوك الأب والأم منذ فترة طويلة، وعلى ما أعتقد أن طينتها تختلف عن طينتهم تماماً، أما علاقتها بأخيها خالد رسمية جداً، عالمة بطبعه الأناني الذي يستبجح أي موبقة للوصول إلى أغراضه .

قاطعته حامد النجار قائلاً :

— إلى هنا وليس هناك مشكلة فالأب معروف عنه هوايته للقوادة، ومن كان قواداً على زوجته فلن يمتنع عن القوادة على ابنته، أما الأم فهي فاجرة يستحي الفجر نفسه من أفعالها، وخالد كلب ينتظر أي عظمة حتى لو

كانت هذه العظمة ثمنها شرف أخته وأمه معا .. انتقل
الآن إلى الباقيين الذين أرى مشاكلهم تستبق الظهور داخل
عينيك قبل أن يلفظها لسانك ..

قال الجوكر :

— صدقت ياباشا، وأول هذه المشاكل شخصية محترمة
جدا للفنانية ناديه، لا يعلق بحذائها أي شائبة من التي
نسمع عنها تتردد في الأوساط الفنية، المنزل هو أيتها
في الأوقات الخالية من العمل، هروبها من قصر أبيها
لم يكن سوى رفض تام لسلوكيات الأب والأم التي
انغمسا فيها طوال حياتهما ويرفضان تغييرها نحو النهج
الصحيح، تركتهما نادية وسكنت بمفردها مع ثان المشاكل
التي نحتاج لحلها لكي يتمهد الطريق أمام سعادتك .

قال حامد مغتاضا :

— لا تتكلم بالألغاز يا رجل، ووضح ما تقصده بشأن المشاكل ..

قال الجوكر مثيرا فضول حامد :

— أنها مشكلة بالفعل يا باشا .. يقيم معها في نفس شقتها،
رشاد، الأخ الأصغر لها، شاب أطلق لحيته، ويمم وجهه
نحو المسجد، أصبح الدين هو وجباته الثلاث وهوايته
ومزاجه الخاص . يلزم أخته ناديه دائما ويغار عليها
غيره عاشق ولهان، لا يسمح لها بالخروج بمفردها
أبدا، يود أن يفرض عليها حصار راهبة، يصادق زمرة

من أمثاله وليس لديه مانع من استخدام العنف إذا لزم الأمر، حتى سليم الذي يعتبر في حكم خطيبها يدقق في خروجاتها معه. اعتدل حامد النجار في جلسته وقد نكأته الغيرة قائلاً :

— تقول من .. ؟ سليم .. من هو هذا السليم .. وكيف علمت أنه في حكم خطيبها .. ولماذا لم يتزوجا حتى الآن لو كان ما تقوله مضبوطاً .

قال الجوكر قاصداً إيلامه :

— مهلا يا سعادة الباشا، فأنا لا أنقل لسعادتك سوى حقائق، تعبت وتعب رجالي لوضع كل شاردة وواردة أمام سيادتك، سليم هذا فتي وسيم جامعي له محل يبيع شرائط الفيديو في حي ناديه القديم، ويقولون أنه على وشك بيعه ليعملا معاً في مجال الانتاج السينمائي، طار بها وطارت به، بينهما حب كحب الماضي البعيد الذي يموت فيه العاشقان معا وفوق شفتيهما ابتسامة الرضا.

قال حامد مهتاجا :

— ومن أين لجماد مثلك بمعرفة حب الماضي البعيد، وأنت لا تصلح إلا أن تكون جزارا في مسلخ .

قال الجوكر مكملا استفزازه :

— يا باشا لا تلمني، فأنا لا أريد سوى نقل الحقيقة إليك، وهذا ما رأيته بعيني وما سمعته بأذني، شاهدتها وهي

تأكل وجهه، ويلتهم هوكل قسماتها في جلستهما الحالمة بأحد الأماكن الهادئة . استقصيت أخبارهما في كل مكان، لم أسمع سوى إجابة واحدة، أن روميو وجولييت عادا للحياة .

قال حامد وبركان الغضب ينفث من منخاره :

— أغرب عن وجهي الآن وألغي ميعاد الراقصة وميعاد الاجتماع أيضا .. دارت رأسه دورة لليمين ودورة لليساار وكأنه يحام بكابوس، يتمتم في صمت .. مشكلتان لا مشكلة واحدة، أخ ملتج وزمرة على غرارهِ، وحبیب ولهان سيقف معريا عن صدره ليصد أي خطر يتهدد حبهما . لكن ما هذا الهياج الذي يملك قلبك ؟! تكاد تسمع دقاته تمزق غشاء أذنك، هل نسيت أنها امرأة لا تختلف عن باق النساء في رحلة الفراش الطويلة ؟! لا تغمض عينيك، أنت متأكد أنها ليست كباقي النساء . هل هي نظرة المهانة التي تلقيتها من عينيها والرافضة لكل قاذوراتك ؟! هي سبب ما يعتريك الآن . هل بريق الماسة الساكنة في قلبها والتي استطاعت أن تحافظ عليها وسط الوحل الذي نشأت فيه ؟! بين أب أصم أذنيه عن نداء الشرف، وأم اجتاز بين فخذيه كل من يحمل جواز سفر من الأوراق المالية . هل بريق ماستها بدأ يطهر عينيك من البرص ؟! لا تصدق يا حامد يا نجار أن شيئا حلو يمكن أن يدق باب قلبك، أنها نزوة عابرة نتيجة للمنوع المرغوب، تمنعت عليك

ولم تتسطح الفراش دون أي مقاومة كالأخريات فأطلقت
أوهام المشاعر داخلك، امتطيها برضاها أو عنوة، وبعد
ذلك ستجدها لا تختلف عن الأخريات . المشاعر دُفنت
تماما هذا إذا كانت ولدت معك مشاعر، لا تخرج قلبك
من زنزانته الحديدية فهذا هو بداية الانهيار، حافظ على
مجدك الذي أزحت كل من اعترض سبيله، تقدم للأمام
وأزل كل العوائق في طريقك لناديه .

كثيرا ما كان يقع تحت وطأة التفكير، السر يحمله لوحده الآن، ميرفت زوجته لم تشك أبدا في نشأتها وأنها ابنة ناجي عنایت، إلى متى يتحمل حجب الحقيقة عن الإنسانة التي ملأت قلبه وفاض حبها، من حقها أن تعرف أن لها أم قد تكون على قيد الحياة حتى الآن ومحتاجة لرعايتها، وخالة لا يعلم لها مكان . اختفت الأم والخالة ولم يستطع ناجي عنایت معرفة مصيرهما، حملهُ المسئولية ورحل، ستعلم زوجته يوما وقد تلومه وهو لا يتحمل ملامتها . الأفكار فاضت وانسكبت من رأس عادل، تركت أثارها على وجهه وهو يجلس بحديقة منزله، زوجته ميرفت تراقبه خلسة، مخفية ابتسامة كالمذبح والجزر على وجهها كلما رأت انفعالات وجهه، لم يشعر باقترابها من الخلف مريحة ذقنها فوق رأسه قائلة :

— هل تستحق الأخرى كل هذا السيل من التفكير والانفعالات.

ارتبك عادل قليلا من المفاجأة لكنه عاد لهدوئه وأمسك بيدها يقبلها قائلا:

— ملعونة هي الأفكار وصاحبها لو ابتعدت قيد خطوة عن حبيبة قلبي .

قالت ميرفت وإصبعها ينتقل فوق قسَمات وجهه التي أحببتها بكل وجدانها:

— إذاً فيما كنت تفكر وتركت الأفكار تتبعثر فوق وجهك ؟

قال عادل كاذباً ليتخلص من إجابة لم يحن وقتها :

— كنت أفكر في أخي ونبضات من حنين واشتياق إليه .

جلست في دلال فوق ركبتيه وهي تقول :

— الاشتياق لا يُسكنهُ سوى الرؤية فلماذا لا تسافر إليه ؟

استحسن عادل الفكرة التي أتت دون توقع، ربما إذا سافر إلى أمريكا يستطيع أن يحصل على معلومات، تسهل له معرفة مكان أمها وخالتها، نظر إلى وجهها بامتنان لهذه الفكرة الصائبة قائلاً:

— موافق بشرط أن تكوني رفيقتي خلال هذه الرحلة، قلبي يرفض أن يتركك ويسافر.

— ولمن أترك عليا وعلاء والعام الدراسي لم ينته بعد ؟

قال عادل وهو يجذبها نحوه:

— لكنني محتاج لحنائك أكثر منهما .

قالت ميرفت بدلال وهي تطبع قبلة فوق شفثيه :

- لم أكن أعلم أنك بهذا القدر من الأنانية .. تريد أن تستحوذ على مشاعري كلها .. حتى مشاعر الأمومة لا تريد أن تبقى لطفليك شيئاً منها .
ضحك عادل مضاعفاً قبلتها :
- حقيقة أشعر بأنانيتي، كلما رأيتك تحتوين أحدهما في حضنك الدافئ تمنيت أن أكون أنا، ألتمس لنفسي الأعذار، من ذاق الشهد يطلب المزيد دائما .
ابتعدت ميرفت عنه سريعا وهي تضحك قائلة :
- أرى عوامل أخرى تتجمع داخل عينيك غير الأنانية، فكفاك غزلا لترى ما ستصنعه في موضوع سفرك .
نهض يجري خلفها وهو يصيح ضاحكا :
- دعيني أريك عمليا ما تقوله هذه العوامل التي تجمعت داخل عيني كما تقولين، السفر لن يطير .

دقات شديدة على باب ناديه، فزعت لها، فتحت الخادمة الباب، برز منه ضابط وخلفه عدد من المخبزين، واجهتهم نادية بحدة قائلة :

— ما سر هذه الطرقات المدوية .. هل جئتم للقبض على مجرم ؟

أبدى الضابط أسفه، وأمر الجوكر ألا يتخطى حدود اللياقة، قال بصوت أسره جمالها :

— إنني شديد الأسف على هذا الإزعاج، تعلمين أن الضابط الصغير مثلي ليس عليه سوى تنفيذ الأوامر، والأوامر التي لدي هي القبض على أخيك رشاد .

احمرار الغضب تصاعد إلى وجنتيها فزاد وجهها حلاوة وقالت باستياء :

— وما الذي فعله رشاد حتى تتهجموا على شقتي بهذا الشكل المزري ؟

أجاب الضابط بطريقة أشبه بالتوسل :

— أقسم بأنني لا أعلم أي شيء سوى أمر بإحضاره لمركز الشرطة .
قالت نادية بلهجة مطمئنة :

— أمامكم الشقة فتشوها لو أردتم .. رشاد خرج من الصباح
ولم يعد حتى الآن .
قال مسترسلاً في التوسل :

— العفو يا هانم .. لا داعي للتفتيش .. كلامك مصدق .
انصرف الضابط، ابتسمت نادية، كانت تتوقع شيئاً من هذا
القبيل، لكنها كانت تجهل السبب الذي من أجله تبحث الشرطة
عن أخيها، تعرف فيه التدين وليس التطرف، لم يأت مطلقاً
بأفعال يمكن للقانون أن يحاسبه عليها . السؤال يدور حائراً
في رأسها منذ الصباح . منذ أن حضر رمزي صديق رشاد،
توجه إلى غرفة رشاد مباشرة وأغلق الباب خلفه، ساورتها
الريبة وفتحت باب الغرفة ونظرت في عتاب إلى رمزي قائلة :
— منذ متى كان بينك وبين رشاد أسرار لا أعلمها .

تردد رمزي قليلاً ولم يجد مفراً من الاعتراف :
— في الحقيقة لم أكن أريد أن أزعجك، وحتى لا تسيئين الظن
بي، سأخبرك بما قاله لي بواب العمارة الآن، بعد أن دخلت
إلى المصعد رأيت البواب يدخل خلفي وهمس لي قائلاً :

— أعلم صداقتك الحميمة للشيخ رشاد، فأرجو أن تخبره
أن مخبراً تملأ سحنته الشر استفسر عنه صباح اليوم،

والآخر يراقب باب العمارة عن كثب .

نظرت نادية وقد تملكها الجزع إلى أخيها وقالت :

— ما الذي ارتكبته يا رشاد حتى يتتبعك هؤلاء المخبرين ؟

— أنت تعلمين سلوكي أكثر مما أعلمه أنا، أنا بذاتي مندهش لما قاله رمزي .

قال رمزي متلهفاً :

— الوقت لا يسمح بمناقشة الأسباب، لا بد لرشاد أن يغادر هذا المكان حالا حتى تنجلي الحقيقة ..

.. قال رشاد وبعض من الخوف قد بدأ يملكه.

— أين سأذهب، وكيف سأخرج من باب العمارة وأنت تقول أن مخبراً يراقب مدخلها عن كثب .

نظرة عتاب طلّت من عين رمزي وهو يضع يده على كتف رشاد وقال :

— هل طاوعتك نفسك بأن تقول أين تذهب، أنسيت أن لك بيتاً آخر، وأن أم رمزي وأبو رمزي يحبانك كابن لهما، أما مسألة خروجك من الباب فاتركها لي .

أجاب رشاد وهو يربت على كتفه .

— بارك الله فيك يا رمزي، لكن أنت صديقي وأخي ولا أريد أن أعرضك لأي مساءلة .

قال رمزي وهو يحثه على الإسراع :

— الأصدقاء عند الشدة .. أليس هكذا يقولون، وأنت لست بصديق فقط لكنك أخ عزيز، لا تضع الوقت، استبدل ثيابك وضع بعض ما تحتاجه في حقيبة صغيرة، لسنا نعلم كم من الوقت سينقضي قبل عودتك إلى هنا سالما بأذن الله .

تسلل رمزي وخلفه رشاد، توارى رشاد بجانب البواب حتى يتم رمزي مهمته . خرج رمزي من الباب وسار في اتجاه المخبر الذي يراقب مدخل العمارة من ثقب في جريدة ويظن في نفسه شرلوك هولمز، عندما أصبح رمزي بجانبه طوح يده في الهواء وكأنها حركة عفوية، وقعت يده على الجريدة ومزقتها، هاج المخبر وماج على تمزيق أداة الرصد الخاص به . امتص رمزي غضبه بالإكثار من التأسف وإصراره أن يصطحبه لبائع الجرائد الذي يقف على ناصية الشارع وشراء واحدة بدلا من التي مزقتها.

في هذه الأثناء تسلل رشاد من الباب إلى الشارع الجانبي الذي ينتهي إلى الطريق الرئيسي، اتفق مع رمزي أن يلتقيه بعيدا عن أعين المخبر، ضحك بواب العمارة منتشيا، كانوا يصفونه بالغباء إلى أن ظهر من هو أغبى منه في صورة هذا المخبر.

لم تشأ نادية أن تخبر أخاها الضابط خالد بما حدث، تعلم أنه يمكن أن يضحى بأقرب الناس إليه ولا تلمس شعرة من شعر رأسه .

أصر الضابط على أقواله بأنه قام بتفتيش شقة ناديه ولم يعثر على رشاد، استدعي المخبر الذي كان مكلفا بالمراقبة، أخبرهم بأن رشاد موجود بالشقة منذ الصباح ولم يغادرها . تذكر المخبر رمزي وتمزيق جريدة المراقبة وإصرار رمزي على اصطحابه لشراء غيرها، اضطر للاعتراف بهذه الواقعة . استدعي بواب العمارة بعد أن أفاد المخبر بأنه رأى رمزي عند دخوله وخروجه . أمام نظرات المخبرين التي توحى بما تخبأه، وكفوفهم التي تبدو كالمطارق، اعترف البواب على اسم رمزي وعنوانه، كثيرا ما كلفه رشاد لتوصيل أشياء إلى منزل صديقه .

لثان مرة يخدم الحظر رشاد في يوم واحد، أحس رمزي بضوضاء في الشارع، نظر من النافذة وشاهد سيارة للشرطة وبعض المخبرين يقفزون منها، أدرك سريعا بأنهم قادمون من أجل رشاد، قفز للداخل سريعا، تمكن والد رمزي الذي يعمل في الذهب، من إخفاء رشاد داخل الدولاب المسحور، الذي كان يفخر دائما بأن أشد اللصوص احترافا لا يمكنه الوصول إليه، الدولاب الذي يخبىء داخله المجوهرات.

لثان مرة في يوم واحد يقف الفشل أمام الضابط، لم يعثر على أي أثر لرشاد رغم أنه لم يترك أي ثقب داخل المنزل إلا ووضع إصبعه به، مداراة لفشله أمام الجوكر الذي يعرف قسوة سياطه، أصر على اصطحاب رمزي للتحقيق معه .

وقف رمزي أمام الجوكر الذي عرفه منذ الوهلة الأولى،
راه قبل سابق عندما ذهب مع رشاد إلى مكتب أخيه خالد،
نظر إليه الجوكر كما لو كان ينظر إلى حشرة وقال :

— لا تتخذ مظهر أبطال السينما وخبرنا أين رشاد، ولتعلم
أن كف واحدة من هذه الثيران التي تقف خلفك كافية أن
تخرج لسانك عن آخره .

بجراً لم يتوقعها الجوكر نظر إليه رمزي قائلاً :

— أليس من الغريب أن تسألوا مسيحي عن مكان شخص
أنتم تقولون عنه أنه متطرف .

قال الجوكر وهو يرميه بنظراته النارية :

— لا تظن في نفسك الذكاء ولا تناور، نحن نعلم أن بينكما
صداقة وفيّة، أنت تزور معه شيخه وهو يزور معك
قسيّسكم .

قال رمزي والحزم يصاحب كلماته :

— إذا كنت تريد الإجابة النهائية، أنا لم أر رشاد منذ الصباح، زرتة
في منزله، تركته هناك، فوجئت بكم تبحثون عنه في منزلي .

— إذا فأنت تصر أن تلعب دور شجيع السينما، بإشارة من
يده تلقى رمزي وإبلا من الأكف الثيرانية، توسد بعدها
أرض الحجرة وغيمة سوداء تتراقص أمام عينيه .

في المطار كانت هناك مفاجأة، تقابل عادل وميرفت مع ناديه وبرفقتها سليم، ميرفت في وداع عادل المسافر لزيارة أخيه والاطمنان عليه، سليم في وداع ناديه، رحلة عمل لأمريكا حيث ستصور المشاهد الخارجية لأحدث أفلامها هناك . تمكن عادل من اختيار مقعدين متجاورين له ولناديه . منذ الأمسية الأدبية في فيلانورا فياض، توطدت الصداقة بين ناديه من جهة وميرفت وعادل من جهة أخرى، المرة الأولى التي يريان فيها خطيبها سليم، دُهِشت ميرفت من سفر ناديه المفاجئ، الاتصالات بينهما لا تنقطع، وبعتاب الأصدقاء قالت:

— كيف طاو عك قلبك أيتها الخانة أن تسافري دون وداعي ؟

نظرت إليها نادية بعتاب أكبر :

— كنت على وشك أن أسألك .. كيف طاو عك قلبك أن أسافر دون أن تأتي لوداعي.

— هل قال لك أحد أن لي موهبة التنجيم فعلمت بأنك مسافرة!!

قالت ناديه نافية التهمة عن نفسها :

– لم أقل هذا .. لكن كنت أتوقع أن تكون خادمتك أخبرتك بمهافتي، لم أجذك بالمنزل، رجوتها أن تخبرك بأني سأسافر بعد يومين وأود رؤيتك قبل سفري .

– ياإلهي من هذه الخادمة .. لا تتذكر شيئا أبدا، كم أوقعتني في دائرة الإحراج بسبب دائها هذا .. قالت ميرفت وهي تنظر إلى زوجها مستكرة فعل الخادمة، يُصر على الإبقاء عليها شفقة بها.

قالت نادية وفي عينيها نظرة مظلومة :

– الآن وفورا أطلبك برد شرف .

عانقت ميرفت نادية وأمرت وجهها بالقبلات وهي تردد هل يكفيك هذا أم تريدين المزيد ؟

أزاحتها نادية برقة ومداعة وهي تقول ..يكفي.. يكفي .. لقد علق مكياجى بالكامل بشفتيك، وستكشف حقيقة جمالى أمام الناس .

– لو كنت في مثل جمالك ما اهتممت بوضع ذرة مكياج في وجهي .

– لا تتواضعي أيتها البرنسيسة، اسألي زوجك عادل الذي أراه دائما يلتهمك بعينيه، كما لو كان يراك لأول مرة .

ضحك الجميع واندمج سليم معهم دون كلفة، قالت ميرفت وهي تدفعهما للدخول للحاق بالطائرة :

— هيا اذهبا، وحاولا أن تخففا عن بعضكما اشتياقكما لنا،
وسأذهب أنا مع سليم لنحاول أن نخفف عن بعضنا
اشتياقنا لكما، ضحك الجميع ثانية . قبلات ودموع لم
تتحمل فكرة الفراق، فهوت تصارع بعضها للهروب من
وطأة اللحظات المؤلمة.

زادت الساعات الطائفة في الفضاء من توطد الصداقة بين
ناديه وعادل وارتفع حاجز الكلفة، وجدت نادية في عادل
إنسانية مهذبة، علاوة على أنه زوج لصديقة عزيزة عليها،
فضفضت عما بداخلها دون أي حرج . استمع عادل إليها في
صمت تام واحترام لصراحتها أمامه، حكّت له عن فضائح
أمها وغفلة أبيها المتعمدة، وأنها تركت المنزل حتى لا يعلق
بثيابها أفعالهم المتجردة من الكرامة والشرف، تحدثت عن
ثروتهم الموهولة التي جُمعت بالطرق الخاطئة، وأبيها الذي
لا يهتم بشيء سوى المال، انتقلت إلى خالد الذي يمكن أن
يركل أي عائق في طريق أطماعه في الوصول للمنصب،
يتلاعب بأي شيء يقوده لغايته، أخوها علي الفاسد الطائش
الذي أتلفته النقود التي يغترف منها دون حساب، فتحت له
الأم خزينتها على مصراعيها لأنه من نفس طينتها فانفلت
عياره، لم يتورع عن طعن أخيه عندما حاول محاسبته عندما
ضبطه في وضع مخزي مع عاهرة داخل المنزل، كان يمكن
أن يقع صريعاً لولا رمزي الصديق الوفي الذي وضع نفسه
بينهما وتلقى الطعنة عوضاً عنه . أغضت عينيها ولاحت

ابتسامه حلوة فوق شفيتها عندما انتقل الحديث إلى رشاد، تركته مضطرة يختبئ في منزل رمزي صديقه، رشاد الأخ الذي عوضها عن كل أسرتها بالرغم من صغر سنه، الإيمان بالله في أجمل صورة من الطيبة والعقل والحكمة، تصرفاته التي تقول أنه ولد قبل زمانه بزمان آخر، خوفه عليها وحده كآب وليس كأخ أصغر. فتحت عينها ونظرت إلى عادل ولا تزال ابتسامه الرضى على وجهها وقالت :

– هل تصدق أن وسط هذه الأسرة يمكن أن ينبت إنسان مثل رشاد أخي .

هز عادل رأسه، وقد هزه ما سمعه على لسان نادية، لكن لم يدع شيئا يفلت إلى ملامحه وقال:

– لقد نسيت إنسان آخر أو بمعنى أدق إنسانة أخرى وهو أنت، فما أراه فيك لن يخرج بعيدا عما وصفت به أخاك رشاد .

قالت نادية ممتنة وهي تسمع منه ما أراح نفسيتها المتعبة :

– أشكرك على مجاملتك الرقيقة، أتمنى أن أكون في نظر الجميع كما تقول ..

– لا أجامل، أقول الحقيقة، منذ أن رأيتك في الأمسية الأدبية في منزل السيدة نورا فياض، وأنا متأكد بأنك تملكين جمال الداخل والخارج، وعندما ازداد قربك من ميرفت تأكدت من هذا .

قالت ناديه صادقة في تعبيرها :

— لماذا لا تقل أن جمال داخلك أنت وزوجتك ميرفت هو الذي يدعكما تريان الأمور بهذا الشكل ؟
قال عادل :

— أنا الذي سأعتبر قولك هذا مجاملة كيسة منك .
قالت ناديه وهي تكتشف ملامحه لأول مرة التي تشبه ملامح طفل بري :

— أنها الحقيقة، فلا تتصور كم أراحتني تعرفي عليكما، شعرت في داخلي بأن لي إخوة يمكن أن ألجأ إليهم في أي وقت .

شعور صادق ومريح انتاب عادل نحوها، دفعه لأن يتخلى عن سره ويحكي لها عن قصة زوجته التي لا تعلم عنها شيئا، حملها له ناجي عنايت، حملها له كمثل فوق كتفيه ورحل إلى العالم الآخر. عليه الآن أن يبحث في أمريكا عن أمها إن كانت لا تزال على قيد الحياة وخالتها التي لا يعرف عنها شيئا، وإرثها الذي لا يعرف أبعاده، لغز عليه أن يكتشف طلاسمة لوحده، مشوار لا طاقة له به .

أدهشت روايته ناديه، انفلتت من ركن عينها دمعة حقيقية عندما علمت أن لصديقتها ميرفت أم وهي لا تعلم عنها شيئا، نظرت إلى عادل والصدق في عينيها وقالت :

— لقد حملتني شرك الباهظ وبهذا ألزمتني أن أكون معك فيه وأشاركك حل هذا اللغز، سأقدم لك نصيحة لا تتوان عن تنفيذها، وهي أنك لا بد وأن تصارح أخاك سامي بكل شيء، فهو مقيم بأمريكا بصفة دائمة، ويمكن أن يصل لأخبار تعجز أنت عن الوصول إليها وأنت تقيم بعيدا عن مسرحها .

قال عادل وقد انفرجت ملامحه :

— نصيحة غالية سأستفيد منها بالفعل فور وصولي، لا تتخيلين كم أشعر بارتياح الآن عندما أشركتك معي في سري .

انقضت الساعات الطائفة دون أن يدريا، التهمتھا الأحاديث المنطلقة على سجيتهما، فوجئا بالطائرة تهبط للمطار، ضحكت ناديه قائلة :

— لم أكن أعلم أن أمريكا قريبة بهذا الشكل .

شاركها عادل الضحك قائلا :

— المسافة بعيدة لكن ألفة الحديث بيننا قربتها .

— ليت هذا يحدث في العودة .. قالت ناديه ضاحكة .

— ولم لا .. أجاب عادل ضاحكا .

على باب المطار لقاء حار بين سامي وعادل، زاد من حرارته صيحات الفرح التي أطلقها كامي لرؤية عمه بعد

طول غياب، أما ساكي زوجة سامي فلم تكن أقل حرارة من أهل الشرق .

أصر سامي أن يرافقوا نادية حتى باب الفندق، على أن تأخذ بعض الراحة تكون بعدها في ضيافته، وأن تتكرر الزيارة طوال مدة إقامتها . غمرت نادية سعادة حقيقية وهي تشعر أنها وجدت لها أسرة في هذا البلد الغريب .

الجوكر أمام حامد النجار رافع الرأس، يرفع مشط قدمه اليمنى ويخفضه، كعادته كلما أتى عملاً يشعر أنه سيكون محلاً للتقدير من ولي نعمته، أطال الصمت ليثير فضوله، نظرة ازدراء لاحت في عيني حامد النجار، جعلته يعجل بالنطق بما جاء من أجله متباهياً :

— أمسكنا برمزي .

نظرة خاملة في عين النجار وتساءل :

— من هو رمزي هذا ؟

ابتسامة غبية فوق شفتي الجوكر .

— رمزي صديق رشاد .

ازدادت النظرة الخاملة في عيني حامد النجار .

— ولماذا أمسكتم بالمسمى رمزي هذا ؟

ازدادت مساحة الابتسامة الغبية فوق شفتي الجوكر .

— أمسكناه يا باشا ليعترف لنا بالمكان الذي يختفي فيه

رشاد ثم استطرد بصوت مفتخر، لقد بدأت يا باشا برشاد

كعائق في طريق الوصول لناديه.

نشطت النظرة الخاملة في عيني حامد، تحولت لمبادئ
بركان، هب واقفا وصاح بصوت أوقف مشط قدم الجوكر
معلقا لأعلى.

— ومن قال لك أيها الأبله أن تتخلص من رشاد .

انخفض مشط القدم وانكمش الجوكر عائدا إلى جنبه.

— لقد ظننت أن هذا العمل يرضي سعادتك ويقرب المسافة
من ناديه .

ثار البركان وعلا صوت حامد :

— ألم يكن رأيي فيك كحمار في محله، منذ متى أيها الغبي
تتخذ خطوة دون الرجوع إلى ؟

قال الجوكر مستعظفا:

— يا باشا لقد ظننت أن هذا العمل يرضيك.

قال حامد أمرا :

— أذهب وأطلق سراح المدعو رمزي فورا .

هرول الجوكر نحو الباب غير مصدق بأنه نجا من غضبة
حامد النجار، كادت أن تفكك عظام ساقيه، قبل أن يصل لباب الغرفة
استوقفه حامد النجار، بصوت أهدأ أمره أن يحضر رمزي أمامه .

يومان وحامد النجار يعتلي موجة تتلاعب به، احتار في
نفسه، لم يصدق أن يكون هناك حامد نجار آخر ولد بداخله،

حامد نجار يقاوم شر حامد نجار، معادلة صعبة، من يستطيع حلها، لا يفيل الحديد غير الحديد، فهل يستطيع حديد الخير أن يفيل حديد الشر . نادية بالنسبة له تحولت من امرأة فوق الفراش إلى أمل وأمنية للحديث معها فقط، مجرد الحديث معها سيرضيه ويملاً عواطفه الخاوية، كل من عرفهم من النساء لم يكن سوى رفيقات فراش، لا يعرفن سوى الغرائز البوهيمية، لم يتذكر أبدا أن شفثيه فاهت بكلمة حب لأي منهن، هو نفسه لم يكن يعرف ما هو الحب . الحب بالنسبة له هو وقت يقضيه مع أي امرأة، عاهرة أو عشيقة سيان، مغتصبة أو برضاها لا فرق، لم يسمع لقلبه دقات كباق البشر أبدا . قد يكون ما ارتكبته يداه سبباً في موت هذا القلب، تعذيب البشر بالنسبة له نوع من التسلية، لا بأس إذا وصلت درجة التعذيب لحد الموت، كلب من البشر أخلى الطريق لكلب آخر . سنوات طويلة لا يعرف سوى التنكيل بالآدميين . العصا والكرباج والكي بالنار والكهرباء وشظايا الخشب بين الأظافر، وسائل تسلية مع من يرميه حظه التعس بين يديه . من أين يأتي قلبه بلحم ينبض بالحياة ويحب كباق البشر، حتى النساء كان يعتصرهن بين ذراعيه ليسمع كلمة الآه التي كانت ترضي غروره، لا يهتم أن تكون آه الألم أو آه اللذة . قلب ميت كيف تدب فيه الحياة هو نفسه لا يعلم، هل هناك ما يسمونه بالحب فعلاً؟!، إذا لم يكن هناك فما الذي حرك القلب داخل تابوته الحجري . لأول مرة يسمع لقلبه نبض وهو

يضع رأسه على الوسادة، نبضه يقول أنه حي، والأمل أمام الأحياء وافر وفياض لطريق التوبة، حتى لو كانت خطاياهم قد ملأت كل زكائب الشر، هكذا تقول الأديان . الأموات انتهوا وذهب كل واحد بخيره أو بشره، لكنه لا يزال حيا . قدماء قطعت طريق الشر مرات ومرات ذهابا وإيابا، هل هناك أمل أن يقطع طريق الخير مرة واحدة قبل النهاية، ولماذا لا؟ . هل ما أنت فيه حلم أم علم، مجرد تفكيرك في الخير والشر يعتبر معجزة بالنسبة لمن ركبته الشياطين وأمسكت بزمامه تماما، هل يكون ما أنت فيه حالة مرضية، ردة فعل لهزيمتك أمام ناديه. ناديه المخلوقة الحاملة العينين كخيوط الفجر الأولى، الثائرة الجسد كالرياح المعرودة، هل يمكنها في لحظات أن تحول خيوط الفجر الحاملة المظلة من عينيها، إلى نظرة كرابجية تلهب ظهر من يستهين بها . انكوى هو نفسه بها في الحفلة التي كان يظن أنها ستكون الباب الذي سيلج منه لامتلاكها . كان يظنها امرأة مثل أي امرأة عرفها، أغراه بها سيرة أمها، ناديه أول بنت تكسر المثل الذي يقول «ضع القدرة على فمها تطلع البنت لأمها»، لم تطلع نادية لأمها أو حتى لأبيها، نبتة غريبة عنهما تماما، لم يعلق بثيابها ولو ذرة من رائحتهما المخزية . ذهبت يا نجار إلى هناك يسبقك صيتك ،كنت تظنه كاف لأن يخلب لبها ويجعلها ترتمي في حضنك وكأنه النعيم المصفى، داست بكعب حذائها على مفاخرك كلها، سحقتها وتركتك تلحقها من جديد، تحولت في

فمك لمذاق الهزء والسخرية والاحتقار . حتى لو أجبرتها أن تضاجعك، سيبقى هذا المذاق في فمك إلى أن تموت، حتى لو ضاجعت كل نساء الدنيا، لن يعيد لك هذا رجولتك الممسوخة، التي شاهدهتها داخل عيني ناديه في أقل من لحظة تلاقت فيها أعينكما . ابتعد يا نجار عن طريقها، لن تجد فيه سوى ما يحطم الباقي من حطام لقائك السابق . لو هبط ملاك من السماء يقسم لها بأن حامد النجار الآن، ليس سوى فتى مراهق اشتعل قلبه بحبها فلن تصدقه . لا أمل حتى لو جاءها رسول يخبرها بأنني وجدت فيها معبدي ومحرابي وصلوات أرجو أن أقربها إليها . كيف ستصدق وهي متأكدة أن الصلوات في فمي هي كلمات الفجور والهلس، وأن محرابي ومعبدي هو غرفة يشتعل الاحمرار في كل جوانبها، غير مفرق بين الليل والنهار، وأن قناديلي لا تشتعل إلا باجود أنواع الخمور، ترسل ظلالها على الحوائط، تراقص نسائي المتجردات من الثياب والعفة في رقصة أسمها المجون.

لا تغالط نفسك يا حامد يا نجار، وأجب بنعم أو لا .

— هل بالفعل سمعت لأول مرة نبضات قلبك الحي على الوسادة؟

— نعم وأقسم على ذلك ؟

— هل تحب ناديه بالفعل أم إنها نزوة من نزواتك التي لا تنتهي ؟

- ليتها كانت نزوة، ما كانت الحيرة مزقتني .
- هل تعلم من الذي يتحدث معك الآن ؟
- لا .. أشعر بأنه صوت قادم من بعيد، كخبر جدول لا أعلم منبعه .
- أنا صوت عقلك الآخر، كان نائما واستيقظ، وكان ضالا فوجد، أنا صوت ضميرك الذي ألقيته للكلاب فعافت أن تأكله، عدت إليك ربما تستطيع أن تنظفه، أنا صوت الأمل الوحيد الباقي لك، إما أن تنصت، وإما أن تصم أذنك وتظل على نهجك، لا تخشى شيئا، أنت حر اسمع أو لا تسمع . غيرك كثيرون أصموا آذانهم، وساروا للنهاية في أزقة ودروب الحياة السوداء، لا عليك إذا كنت تريد أن تنتهج نهجهم، ذهبوا إلى من لا تفوته فائتة وحكمه هو العادل .
- أيها الأمل لا تتركني من فضلك، ساعدني، لا تدع هذه اللحظة تفلت من يدي، خبرني ماذا أفعل .
- هل ستقبل بحكمي ؟
- أفعل واجبك وخلص ضميرك مني واخبرني بحكمك، إذا قبلته سيحتسب ثواب لك، أما إذا رفضته فلا بأس عليك .
- حسناً .. أول حكم لي هو أن تحول سلطتك لعبادة الخير وليس لعبادة إبليس، والحكم الثاني أن تنتهج نهج الفضيلة والإيمان، والحكم الثالث أن يكون موقفك من نادبة موقف الرجل الشريف، إن كان قلبك اشتعل بحبها بالفعل ولست

تنظر إليها كجارية كمن سبقوها، كن منافسا شريفا لسليم
الذي تحبه وهو في حكم خطيبها، إذا فضلتك عليه فلا
تنتشي غرورا وإذا فضلتك عليك أسمعها كلمة مبروك،
وتمنى لها السعادة، اترك في قلبها ذكرى نظيفة على
الأقل بأنك كنت شريفا معها.

— مجموعة أحكام تحتاج لملائكة السماء كلها كي تساعدني
على تنفيذها .

— ليست بهذه الصعوبة، تكفيك عزيمتك، لو حاولت شحذها
ستجدها أمضى من سيف القتال، توكل على الله ولا تنظر
خلفك .

— سأكل على الله وأمضي .. شكرا أيها الصوت القادم من
لدى الخير .

ها ها ها .. أفق أيها الحالم، أخرج إلى يقطتك، ليست
الأحلام ثوبك، ثوبك هو الواقع الذي أنت غارق به، لمن
ستترك هذا الجبروت وحكم الطغاة اللذين صنعا منك جبارا
ترتعش الأنفاس أمامه، أجلساك على مقعد ولا جد أجدادك كان
يحلم به، يدك طائلة في أي مكان وزمان، لمن ستترك ليالي
الأنس والنساء والكؤوس المترعة، أذهب أيها المجنون إلى
صومعة راهب وتعبد، أطلق لحيتك وليكن أسمك من اليوم
الشيخ حموده، الضعف للضعفاء والقوة للأقوياء . امض كما
أنت وأصم أذنيك عن صوت ضمير بالي، ألقيته منذ زمن بعيد

وعافته الكلاب، فهل تقبل عودته إليك بهذه البساطة، يسألك
صولجانك ويلقي إليك بعكاز قد لا يصلب طولك، لتنزلق قدمك
وتطأك أقدام الآخرين، أفق أيها الحالم قبل أن تقضي عليك
أحلامك المجنونة .

– اللهم أخزيك يا شيطان، نطقها حامد النجار، سمعها غريبة
في أذنه، لكنه قالها ثانية ليؤكد لنفسه إنها صادرة من جوفه .

قال سامي وهو يعقد ما بين حاجبيه بدهشة :

شيء غريب بالفعل ما سمعته الآن يا عادل، هل من المعقول أن يكون الكاتب ناجي عنايت عم ميرفت وليس أباه، هل من المعقول أن يكون لميرفت أم وأقرباء وهي لا تعلم .
قال عادل ملتصقاً مشورة أخيه سامي :

— لست المسئول عن هذا، تركه ثقيلة ورثتها عن الأستاذ ناجي عنايت، سر أوتمنت عليه منذ بداية معرفتي به، طالبني قبل أن يموت بأنني لا أخبر به ميرفت إلا عند الضرورة، كثيراً ما أجلس مع نفسي وأناقشها، هل من المفروض أن أكتف عن زوجتي شيئاً من صميم حقها . أشعر دائماً بأنني أرتكب الخطيئة بمداواة ما يحق لها أن تعلمه، أخشى عليها من وقع المفاجأة وخاصة أنها رقيقة المشاعر مرهفة الحس .
قال سامي مبدياً رأيه :

— من حق ميرفت أن تعرف، مهما كان هذا الخبر سيئاً على مشاعرنا أو إحساسها المرهف، وخاصة أن لها إرث من حقها كما أخبرتني .

قال عادل والحيرة تلجم كلماته :

- أويذك في رأيك هذا، لكن ما يستوقفني هو جهلي بأخبار أمها، وإن كانت هذه الأم على قيد الحياة أم لا، وهل تتمتع بعقل سليم إذا كانت لا تزال على قيد الحياة؟، كل هذه الاعتبارات أضعها أمامي حتى لا تكون سبب صدمة لميرفت، لا أريد أن أخبرها وأحيي فيها الأمل للقاء أمها ثم تكتشف أن هذا الأمل تبخر بموتها، أو أن تجد أم شاردة لا تحس حتى بوجودها .
- ألتمس لك العذر يا عادل فالموقف محير بالفعل، يحتاج للتفكير بروية .

استمعت ناديه إلى حديث الأخوين، تركت لهما الفرصة لتبادل الآراء، هي التي أشارت على عادل في الطائرة لكي يفضي بالسر لأخيه سامي، من الممكن أن يجد فيه معينا يساعده للوصول لأخبار عن والدته ميرفت أو خالتها . تقدمت باقتراحها في أن يتولى سامي محاولة التقصي عن أخبارهما نظرا لإقامته الدائمة بأمريكا، وفي حالة توصله لأي معلومة عنهما يخطر أخاه عادل سرا، وفي هذه الحالة يمكن لعادل الحضور، وبعد أن يلم بكل شيء عن الموقف، سواء كانت والدته ميرفت لا تزال على قيد الحياة أو رحلت أو لا زالت في حالتها المرضية، بعدها يمكنه أن يتولى إخبار ميرفت تدريجيا حتى لا يكون وقع الخبر ثقيلا على حساسيتها المفرطة .

استحسن سامي فكرة ناديه التي احتلت منزلة كبيرة بينهم،
وكان الصداقة توطدت بينهم منذ فترة طويلة . لم يكن يمر
يوم بعد انتهائها من التصوير إلا وتكون في ضيافة سامي
وزوجته التي أعجبت بها، سامي يُصر على أن يذهب للفندق
الذي تقيم به لاصطحابها، ثم العودة بها بعد انتهاء السهرة .
أشاعت ناديه بخفة ظلها وروحها المرحية البهجة في منزلهم،
كثيرا ما أظهروا الأسف الشديد على فراقها الوشيك مع
انتهاء التصوير . اقترح عادل أن يؤجل ميعاد سفره الذي اتفق
عليه مع زوجته ميرفت، ليصاحب ناديه في رحلة العودة كما
صاحبها صدفة في رحلة الذهاب، سارع إلى الهاتف ليخبر
زوجته ميرفت التي تلقت الخبر بمرح وقالت ضاحكة :

- هل آن الأوان لأغار عليك من ناديه ؟
- كان يمكن أن أصدقك لولا قلوبنا التي تبادلناها عند سفري،
كل ليلة لا أنام قبل أن أسمع قلبك يهمس في أذني.. أحبك
يا عادل، وأظنك تفعلين نفس الشيء .

قالت ميرفت وقد ازدادت ضحكها :

- ماکر ولئيم، تعرف كيف تفحمني دائما برذك الرقيق
كنسمة ربيعية .
- ما أجمل كلماتك يا جنية بحور الشعر .. لا تدعيني أشعر
بالندم يأكلني لتأجيلي لميعاد لقائي بك، فألقي بنفسي من

الطابق الخمسين حيث يسكن سامي، على أمل أن يتلقاني
طير من السماء ويلقي بي في حضنك.

— أخطر أن تفعلها أيها المجنون، فمن سيتلقفك هو سيارة
الإسعاف هذا إذا تبقى فيك شيء .. قالت ميرفت وهي لا
تزال تغرد بضحكتها، استطردت قائلة .. دع ناديه تحدثني
حتى أسمعها بعض كلمات التوبيخ .

صاحت ناديه بسرعة قبل أن تبدأ ميرفت :

— أنه اقترح عادل وسامي وليس لي ذنب فيه ياميرفت .
.. قالت ميرفت مقهقهة :

— أنني أخشى فقط من جمالك الأخاذ يتربع في قلب زوجي
وأجد نفسي في العراء .

— إذا كان هذا ما يقلقك فلا تخشي شيئاً .. فمن ذاق جمال
ميرفت لا يملأ عينه وقلبه جمال سواه .. قالت ناديه
ضاحكة .. ثم أردفت، عندك الحق في تخوفك على عادل،
كنت سأفكر في اختطافه منك لو لم أكن مخطوبة لحبيبي
سليم .

— في انتظار وصولكما بالسلامة يا صديقتي وأختي العزيزة .

علا شحوب الموت وجه رمزي، اخبره الجوكر بأن حامد النجار يريد رؤيته، كاد أن يصرخ بعلو صوته .. زج بي في الزنزانة ما بقى لي من عمر لكن لا تأخذني إليه . يسمع عنه، سمع أيضا عنه من صديقه رشاد، يعلم أن الذهاب لحامد النجار ينطبق عليه القول .. الداخر مفقود والخرار مولود ، ما أدراه أنه لن يكون واحدا من المفقودين، ما أكثر الذين دخلوا إلى مكتب حامد ولم يخرجوا، دخلوا ولم يسمع عنهم أحد بعد ذلك وكان الأرض انشقت وابتلعتهم . أبوه قال عنه مرة أنه الشيطان الوحيد الذي يستطيع أن يتحرك في الظلام والنور دون خوف، إبليس نفسه يستحي أن يفعل أفعاله . لماذا يريد أن يراه حامد النجار ؟ أما يكفي ما ذاقه داخل الزنزانة على يد الجوكر وثيرانه، قد يكون الجوكر أرحم منه، أقصى شيء يمكن أن يلقاه على يده هو الصفعات، حامد النجار لا يضيع وقته هباء، بإشارة من يده يمكن أن يتركه وجبة شهية لكلايه المسعورة، سمع كثيرا عن هذه الكلاب التي ينزل مرآها فقط الرعب في قلب اعلى الرجال، فما بالك من يخاف القطط مثلي، الرحمة الوحيدة أن يرسلك لمعتقل تقضي

فيه إلى ما شاء الله . لم يطلبه حامد النجار إلا لينتزع اعتراف منه عن مكان صديقه رشاد ، آه يا رشاد ، لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعل . لم تكمل الأفكار تواردها على خاطره ، فاق منها على صوت الجوكر الأجش وهو يصرخ فيه :

— هل تسمرت قدماك ، أم خطف عزرائيل روحك ، قلت لك حامد بك النجار يطلبك ، أصلح من شأنك لتذهب لمقابلته ، وإياك أن تلفظ بحرف مما حدث معك هنا .

تنبه رمزي لجملة الجوكر الأخيرة التي تحمل التهديد والوعيد ، دارت في رأسه ، لماذا يخشى الجوكر من أن يبوح رمزي لحامد النجار ، بالركلات والصفعات والكدمات التي تنتشر على طول جسده ، أليس الجوكر شيطان من شياطينه وينفذ أوامره ، لمحة من الذكاء برقت داخل رأسه ، نظر إلى الجوكر يسبر غوره :

— هل اعترافي على مكان رشاد الآن يعينني من الذهاب إلى هناك ؟

قال الجوكر بوجه جامد :

— لا أريد أن أعرف مكان الزفت رشاد ولا يهمني أن أعرف ، عليك مغادرة هنا الآن والتوجه إلى منزلك لتصلح من شأنك ، ثم فوراً إلى مكتب حامد بك النجار ، سأنتظرك ولا تنسى تحذيري لك .

لم يصدق رمزي أذنيه ، هل فعلاً سينطلق حراً إلى منزله ، أي ملعوب يلعبه معه هذا الجوكر ، هل يظن في نفسه الذكاء ،

يتركه يمضي ويدع أحد رجاله بمراقبته، ليصل إلى مكان رشاد . لكن لماذا وهو نفسه أبدى استعداداه للاعتراف بمكان رشاد ؟ الجوكر لم يكن يعلم أنه سيراوغه من جديد، لو وافق على أن يعترف له بمكان رشاد مقابل إعفائه من الذهاب لحامد النجار، لم يقل هذا إلا لسبر غوره . إجابة الجوكر أوقعته في الحيرة، رفض أن يعرف مكان رشاد ولم يبد اهتماما لذلك، وها هو يتركه حرا طليقا ليذهب دون حراسة لحامد النجار . هل لأنهم واثقون أنني لن أجروا على عدم الذهاب ؟ في إمكانهم العثور على أي وقت وأتلقى ويلي لمخالفة أوامرهم، أم أن هناك شيء لا أفهمه . لا تتعب رأسك فمهما أجهدت فكرك لن يصل إلي ما يدور في رؤوس هؤلاء الشياطين، اذهب إلى المنزل واغتسل والحقة إلى مكتب حامد النجار، لا تخف لن يأخذ الروح غير خالقها .

دلف إلى مكتب حامد النجار، كل عضلة في جسده تعمل لوحدها، صوت خطوته يدق كالمطرقة في رأسه، ثلوجة أطرافه والعرق الغزير على وجهه شيئا متناقضان . يحاول ألا يبيل ثيابه، بدلها في المنزل بعد حمامه الذي حاول أن يزيل به معاناة زنانة تستضيف جميع أنواع الحشرات، شعر بالماء يكوى الكدمات والسحجات، تذكر عيني أمه كحبات الطماطم خوفا عليه، أعجبتة نظرة الفخر في عيني أبيه وهو يصفه بالرجل والصديق الوفي . لأول مرة يرى دموع رشاد بغزارتها عندما لاقاه، رشاد ضيفا عليهم يرقد في حجرة نومه . حاول

مرات ومرات أن يخرج ليسلم نفسه، لكن والد رمزي أصر على منعه قائلا .. أنه متأكد من أنهم سيطلقون رمزي بعد أن يصيبهم اليأس من انتزاع اعتراف منه، وأن ابنه رجل وسيصمد أمامهم، ليس هناك داع لأن يعرض نفسه لما لا يعلمه إلا الله، على أيدي هؤلاء السفاحين . عندما فتح الباب ووجد أن رمزي هو الطارق، نظر إلى رشاد وقال .. هل صدقت الآن توقعاتي . لم يشأ رمزي أن يلقيهم ثانية في بحور الذعر والخوف، لم يبيح لهم بأنه على موعد مع الشيطان نفسه، كل ما قاله أن سيذهب سريعا إلى منزل سجين كان معه يحمل رسالة منه لأهله . ذهب وحيدا مع نفسه وأفكاره المتلاطمة مع أمواج الخوف، واحدة تلو الأخرى، إلى أن وجد نفسه يقف أمام النجار بشحمه ولحمه والجوكر عن يمينه وفي عينيه نظرة أرنب مذعور أمام عيني ذئب لا ترقد أنيابه . بإشارة من رأس حامد غادر الجوكر المكتب على غير رغبة منه، الفضول يقتله ليعرف ما في رأس سيده حامد، هزة رأس حامد الصامتة قالت له أخرج أيها الحمار وأغلق الباب خلفك، إنصاع وهو يجر أذيال عدم الفهم . الأفكار تقتل أعصاب رمزي، ألا من نهاية لهذه الوقفة التي تعصر كل حواسي، لم يصدق أذنه وهو يستمع لكلمة أجلس خارجة في رقعة من فم حامد النجار، نظر حوله لعل هناك غيره هو المعني بهذه الدعوة، كررها حامد وزاويتي فمه تنفرجان عن ابتسامة . لم يصدق رمزي أن من كان مثل حامد النجار له ابتسامة ككل البشر،

جلس على حافة المقعد وهو يردد في داخله يكفي أن أجلس على الحافة، هناك مثل يقول لو كان حبيبك عسل لا تلغقه بالكامل، حامد النجار حبيبي وقال لي بأسلوب مهذب تفضل بالجلوس، يجب أن أكون حسيسا . بالرغم من موت داخله كاد أن يضحك وهو يردد هذه الهلوسة في داخله، الإغماء كلمة غير كافية، توقف القلب ممكن، دعاني للجلوس ويسألني أي مشروب أفضل، هاهاها من المؤكد أنني لا زلت راقدا في زنزانة الجوكر وأنا الآن في حلم، لا أنها الصحوه، يمكن أن تكون صحوه ما قبل الموت، بالتأكيد، أنه لم ينتظر حتى إجابتي وأمر بليمون مثلج، يسمنك للذبح يا رمزي يا ابن حنا . كوب الليمون المثلج منظره شهى، هل يا ترى سأكمله للنهائية، أم ستقذفني صفة من يد النجار عقب أول رشفة، كما تشاهد في أفلام السينما في مثل هذه المواقف .

نظرة لينة من عين النجار وسؤال :

— ما أسمك ؟

— رمزي .. رمزي حنا يا سعادة الباشا .

— هل أنت مسيحي ؟

— نعم

— هل تصلي ؟

— نعم

- هل تذهب للكنيسة
- نعم
- هل من وصايا الدين المسيحي عدم الكذب ؟
- نعم
- ابتسامة على وجه النجار لا هي باردة ولا هي حارة :
- أين صديقك رشاد ؟
- حفرة تحت قدمي رمزي وشعور ببداية الانزلاق وصمت .
- أين صديقك رشاد ؟ .. سأل النجار ولا تزال نفس الابتسامة أسفل شاربه .
- آه .. لقد تغير السيناريو .. في الأفلام تأتي الصفحة عقب أول رشفة من كوب الليمون وصمت المستجوب، هنا تغير السيناريو يا رمزي، المخرج عاوز كدا، النجار أعاد السؤال ولم أتلق الصفحة المتوقعة .
- أين صديقك رشاد يا رمزي ؟، تكلم، دينك ينهاك عن الكذب .
- آه يا رمزي، أنه بالتأكيد سيناريو فيلم أجنبي، الأجانب أعصابهم باردة، لا يصفعون إلا بعد ثالث مره، لكن لا بد أن أجيب :
- .. قال رمزي وهو يتأمل نقوش السجادة الثمينة أسفل قدميه :
- سعادتك قلت بأن الدين ينهاني عن الكذب ولهذا أصمت .

— أقدر فيك رجولتك، وصادقتك لرشاد، وأعدك بأنه لن يلحق به أي أذى فاطمئن.

هل تكون أخطأت يا رمزي عنوان المكتب، هل من المعقول أن يكون هذا مكتب حامد النجار، وهل الجالس خلفه صاحب الابتسامة وكوب الليمون المثلج هو حامد النجار، أم أن المخرج يتلاعب بأعصاب الجمهور .
قال رمزي وشبه دمعة في عينيه:

— هل تظن سيادتك أنني أخطيء عندما أخاف على صديق مثل رشاد أعلم أنه يساير الملائكة .

— لا لم تخطيء، وقلت لك صادقاً أنني أقدر فيك رجولتك وشهامتك وأكرر ثانية، أنت وصديقك في الأمان، فقط أريد أن أتحدث معكما بعض الوقت، ولكي تطمئن لن أحدد لكما موعداً لحضوركما، يمكنكما الحضور في أي وقت يناسبكما، إذا أحسستما بالخوف فلا داع للحضور، لن يتعرض لكما أي مخلوق بالأذى، فقط أرجو أن تحضرا كزائرين ويمكنك أن تنصرف الآن .

نهض رمزي وهو يشعر بعقله يتوه منه في دهاليز رأسه، رفع يده بالتحية لحامد النجار، لم يصدق أنه يرد على تحيته بأكثر من إيماءة من رأسه، جاهد حتى وصل للباب والتفت ثانية وهو يرفع يده بالتحية وتلقي إجابتها ابتسامة . خرج ووجد الجوكر كالكلب الذليل يقف خلف الباب، لم يلتفت حتى

إليه، لم يجبه على سؤال خيل إليه أنه يسمعه خافتا من بين
شفتيه، لماذا يجيب هذا العبد وقد أصبح سيده صديقا له،
أخذ يتمتم وهو يهبط في المصعد محدقا في المرآة في وجهه
كأنه يراه لأول مرة، قصة خيالية أبدع المخرج في إخراجها،
كوب من الليمون المثلج وابتسامة في مكتب حامد النجار،
هل يعقل هذا؟!.

حطت الطائرة بالمطار، المتوقع أن يكون في انتظار عادل زوجته ميرفت وطفليه، والدكتور عزيز علوي والده ووالدته السيدة سميحة، الغير متوقع والذي أصاب نادية بالدهشة، أن تجد أخاها الضابط خالد وصديقه الضابط وائل بجانب سلم الطائرة في انتظارها، لم تخبرهما حتى بسفرها فكيف علما بوصولها، دفعها الفضول لأن تسأل خالد .

— من أين علمتما بخبر قدومي اليوم ؟

أجاب وائل بتذلف :

— هل تخفى تحركات نجمة مشهورة كالفنانة نادية كرم .

ضحك خالد ضحكته التي لا تحمل أي معنى وقال :

— وهل يصح أن أترك شقيقتي الفنانة تنهي إجراءاتها، وأخيها ضابط تفتح أمامه الأبواب المغلقة .

كادت نادية أن تصحح قوله وتكمله بقولها، أن ما يُفتح أمامه الأبواب غير الشريفة فقط، أثرت الصمت، وخاصة أمام عادل وصديقتها ميرفت وأسرتها واكتفت بابتسامة باهتة . افترق عادل وأسرته بعد انتزاع وعد مؤكد من نادية بزيارة

قريبة، وخاصة السيدة سميحه والددة عادل التي ألحت عليها كثيراً قائلة أنها تحترم فنها كثيراً، انفرجت أسارير نادية لهذا الإطراء من انسانية محترمة كسميحه هانم، الأسارير المنفرجة انكشيت سريعة عندما تذكرت عائلتها وتمتعت في داخلها، آه لو علمت ماذا تفعله عائلتي لندمت على احترامك لي ولفني، وأول هذه العائلة الضابط المنتفش كالطاووس الذي أمامك . أحست ناديه وهي عائدة بالسيارة الحكومية التي يقودها خالد بنفسه، بنظرات صديقه وائل الذي يجلس خلفها تنفذ من منتصف ظهرها وتحاول الخروج من بين نهديها، تجاهلته وسألت خالد عن أخبار أسرتها، هز كتفيه دون مبالاة قائلاً.. كما هي، لا جديد، أمك كالعادة في معركة مع الأيام للبقاء في مرحلة الصبا، وأبوك لا يزال يعبت بشاربه المستقيم، أما علي فلا يمر يوم إلا وأجد نفسي في تورط جديد لستر فضيحة من فضائحه التي لا تنتهي، صمت خالد بعدها، بادرت ناديه بالسؤال.

— ورشاد ؟

نظر إليها خالد متعجباً وقال :

— رشاد ؟ أنا الذي يجب أن أسألك عن رشاد، تمرد علينا وجلس بجانبك، لا يهتم حتى بالسؤال عنا بالهاتف .

اطمأنت ناديه بعض الشيء، لو حدث لرشاد مكروه كان خالد سيعلم به، وهو الآن إما أنه لا يزال مختبئاً عند صديقه رمزي أو بإذن الله ستلتقي به الآن في الشقة .

حاول وائل أن يثرثر في الطريق، وأن يطلق ظرفه، صمت عندما وجد الصمت على لسان ناديه، لم تلتفت إلى وجوده، مشغولة بتفكيرها عن سبب انتظارهما بالمطار . هل حامد النجار لا يزال يتعلق بأحبال الهواء خلفها ؟ أرسل بهما وسيارة حكومية في استقبالها كحرس شرف، عبس وجهها عندما قفزت في ذهنها كلمة الشرف، تمتعت وهي تكتم ضحكة، حرس شرف، ما هذا اللغوي ناديه، خالد وائل لا يصلحان سوى حرس لعدم الشرف يتقدمهما الجوكر كقائد . حانت منها نظرة لجانب وجه أخيها وتمتعت حزينه، آه يا ابن أمي وابويا، لم أشعر بك يوما كأخ أكبر احتمى به وألوذ بكنفه عند الخطر، أصبحت بالنسبة لي الخطر الذي أذفع عن نفسي منه . لم تصدق ناديه عينيها عندما شاهدت رشاد وصديقه رمزي بالشقة، نظرت إلى رشاد لائمة وقالت :

— ألا تأتي لانتظار اختك بالمطار .

لاحت في عيني رشاد نظرة متهمكة وهو ينظر ناحية خالد وصديقه وائل وقال :

— لست أنا أو رمزي من كبار رجالات الدولة حتى نعلم بأخبار وصولك .

نظر خالد إليه بغيط لنبرة التهمك البادية في صوته وقال :

— عليه أولاً أن يسأل عن أبيه وأمه وإخوته قبل أن ينتظرك بالمطار، اردف في محاولة للتودد، ولو كان حتى سأل

بالهاتف علينا لأخبرته بميعاد وصولك واصطحبته معي .
استأذن خالد ووائل في الانصراف لترك ناديه تستريح ،
قال خالد مستظرفا :

— سنعود ثانية بعد أن تنالي قسط من الراحة، لن نترك حقنا
فيما أحضرت من الهدايا .
قال وائل وابتسامة زيفاء :

— أنني سأحضر ليس من أجل الهدية ولكن للاطمئنان عليك
.

شيعتهما ناديه بعلامة استفهام مرسومة فوق وجهها،
نظرت إلى أخيها ورمزي وقالت ولم تزل علامة الاستفهام
في موقعها :

— ماذا تظنان وراء هذه المظاهرة الكاذبة، هل لحامد النجار
إصبعاً فيها ؟

— لا نظن.. قالها رمزي ورشاد في قم واحد .

قالت ناديه وعلامة استفهام أخرى وقفت إلى جانب الأولى :
— ومن أين أتيتما بهذه الثقة في عدم الظن بحامد النجار ؟
تلعثم رشاد ورمزي وهما يتبادلان النظرات، بادر رمزي
بالإجابة مراوفاً :

— لو حامد النجار وراء هذا لحضر بنفسه، أو على الأقل
أرسل الجوكر نيابة عنه .

هزت ناديه رأسها، إحساسها يقول بأن هناك شيئاً لم تفهمه حتى الآن، ثم نظرت إلى رشاد وقالت:

— لم تخبرني حتى الآن عن سبب بحث الشرطة عنك، وهل لم يكن حامد النجار وراء هذه أيضاً؟ .

أجاب رشاد بثقة شديدة :

— بالفعل حامد النجار يرئ من هذه أيضاً، ولم يعدو سوء فهم من الشرطة في أن أكون متطرفاً دينياً لأني أطلق لحياتي .

نفضت ناديه رأسها وقالت مبتسمة :

— دعونا من هذا كله الآن وتعاليا لأريكما الهدايا التي أحضرتها لأخي العزيز وصديقه المخلص، واستمتع بشعور العودة للمنزل .

قال رشاد وهو يغمز بعينه :

— أليس هناك هدايا لشخص آخر عزيز؟

قالت ناديه عالمة بما يلح إليه أخوها:

— وهل هناك من هو أعز منكما؟ ..

أجاب رمزي ضاحكا :

— نعم .. هناك من ينتظر عودتك على أحر من الجمر .

— ولماذا تراوغا أيها الماكران، ولما لا تقولان أنه سليم ..
قالت ناديه ضاحكة .

مظاهرة أمام دكان بيع شرائط الفيديو الذي يمتلكه سليم .
كان يجلس أمام الدكان مع فاضل الحلاق، بعد أن أستأنس به،
أصبحا في حكم الأصدقاء بالرغم من تفاوت المسافة بينهما
من حيث الثقافة والوضع الاجتماعي . الإخلاص الذي أبداه
فاضل نحوه، ونصائحه التي كانت سببا في اندفاعه بجرأة
نحو ناديه، أذابت كل شيء وقربتهما من بعضهما، أصبحت
متعتهما في درشة بهدف أو غير هدف في الأوقات التي
يخلوان فيها من الزبائن . كان يحلو لسليم أن يسترجع مع
فاضل قصته منذ اللحظة الأولى مع ناديه، ليس لديه مانع أن
يكررها كل يوم، كل مرة تثير فيه المشاعر أكثر من المرة التي
قبلها، يحلو لفاضل أن يستمع إلى كلماته العاشقة ولا يقاطعه
. أحب سليم فيه الإنصات وتشجيعه الدائم لكي يفضفض عما
بداخله، يشعر بكلماته تخرج كفوران الماء من أفواه الينابيع،
كثيرا ما كان سليم يقطع حديثه وينظر بامتنان لفاضل قائلا :
- كم يهون حديثك معي يا فاضل احتمال البعد عن ناديه،
لن أنسى تشجيعك لي في بداية الطريق، عندما كان التردد
والخوف يجمحان بي حتى لا أقرب منها .

.. قال فاضل مازحا :

— غدا يضمكما العش ولا تحتاج لفاضل ولا وجهه، فأنهم يقولون من لقي أحبابه نسي أصحابه
قال سليم وهو يرد لفاضل مزاحه :

— وأيضا يقولون لا تهون العشرة إلا على الخسيس، فهل تعلم في طبعي الخسة يا فاضل .

— استغفر الله يا أستاذ سليم .. لم تخرج جعبتك سوى الأصالة ولو أنني عاتب عليك أشد العتاب .
— ولماذا العتاب يا صديقي .

أجاب فاضل ضاحكاً :

— عتاب مر يا أستاذ سليم فأنت ترفض أن تسلمني رأسك، لأبرز مهارتي في قص شعرك، كما أبرزت مهارتي في دفعك نحو نأديه .. تفضل أن تدفع جنيهاً كثيرة في قص شعرك عند هؤلاء الذين يظنون في أنفسهم يسايرون الموضة .

قال سليم مقهقها :

— دعك من رأسي وقص شعري، فقد أذهب يوماً للشرطة أشكوك على إفساده، وأخسر صداقتي لك .

قبل أن تنتهي ضحكاتهم، كانت عربة للشرطة تقف أمام الدكان وكأن الأرض انشقت وأخرجتها، وقبل أن أن يفيقا اندفع منها ثلة من المخبرين نحو محل سليم، تقدم الضابط الذي

يرافقهم وهو يهتز كالطاووس وكأن الشرطة لم تنتج سواه،
نظر نحوهما قائلاً وهو يمضغ كلماته .

— من منكما المدعو سليم ؟

أجاب سليم وهو ينظر إليه بعدم اهتمام خفف من انتفاشه :

— أنا المدعو سليم .

قال الضابط وكأنه يسمع قطعة من المحفوظات :

— معي أمر من النيابة بتفتيش دكانك، بناء على شكوى من
الشارع بأنك تتاجر في الأفلام المخلة بالأداب .

قال سليم ممتعضا :

— أعتقد أن رجالك يقومون بمهمتهم في التفتيش، حتى قبل
أن أعرف سبب هجومكم الذي يشبه ما يحدث في أفلام
السينما .

.. قال الضابط وكأنه كان متأكداً من أن التفتيش سيسفر

عن ممنوعات :

— يؤدون واجبهم، واستعد لمرافقتنا إذا ثبتت صحة الشكوى

— أعتقد أنكم ستعودون بخفي حنين يا حضرة الضابط .

هز الضابط رأسه بثقة وقد خرج المخبرون يتقدمهم
زعيمهم، يرفع رأسه عالياً وفي يده بضع من شرائط الفيديو
وقال وفي عينيه نظرة شيطانية .

– وجدنا هذه الشرائط مخبأة في دولاب بالداخل يا باشا .
أمسك الضابط بالشرائط، ونظر إلى سليم بنظرة شامتة
وقال :

– صور لنساء عاريات على غلاف الشرائط، فماذا تظن
بداخلهم، صوراً لأناس يؤدون فريضة الصلاة ؟

نظرات ذهول تناقلت بين أعين سليم وفاضل، صرخ سليم
صائحا .. من الذي وكل إليك القيام بهذا الملعب يا حضرة
الضابط ؟ قبل أن يصيح سليم بكلمة أخرى وبإشارة من
الضابط، دفع المخبرون سليم داخل سيارة الشرطة، شقت
طريقها بسرعة، بين صيحات الغضب من المظاهرة التي
تجمعت أمام الدكان من سكان الشارع، يعلمون جيداً أن سليم
بريء من هذه التهمة .

لم يصدق رشاد ما رواه له رمزي، لم يصدق أن رمزي دخل إلى عرين الأسد كما يقولون وخرج حراً يسير على قدميه، حامد النجار بكل سطوته واسمه الذي ترتعب له الصخور . ترك لهما حرية زيارته في مكتبه، لم يستوعب شيئاً من القصة، ماذا يريد منهما !! لو كان الأمر شراً فلماذا أطلق رمزي، كان من السهل أن يفك رباط فمه في دقائق معدودة . رجال أصلب من الصلب انفكت عقدة لسانهم بعد دخول المعتقل بدقائق معدودة، لمجرد استعراض بسيط لزبانية حامد النجار، ما قصده منهما ؟ .

دلف رشاد من باب مكتب حامد النجار يسبقه رمزي، صدر رمزي أمامه، سبق له دخول العرين، حاول ألا يزيد من رجفة قلبه بالنظر في اتجاه حامد، شغل نفسه بتأمل فخامة الحجرة وأثاثها والسجادة التي شعر بطراوتها تحت قدميه . في لمحة بسيطة اكتسح حامد كل ملامح رشاد، لو أزال لحيته لوضح التشابه الشديد بينه وبين ناديه، خاصة العينين ونظرتهم التي تعلن الاستهانة بالرغم من دقائق القلب المرتجفة . ابتسم حامد النجار، أشار لهما بالجلوس،

جلس رمزي ببساطة، اعتاد المكان وهذه الزيارة هي الثانية.
نظر حامد نحو رشاد محاولاً أن يضع ابتسامة عفوية فوق
شفتيه لتقلل من هيبة رشاد وقال :

— هل أنت رشاد ؟

هز رشاد رأسه عدة مرات دون أن يسمع له صوت :

سأل حامد مع ابتسامة :

— ألم تخش الحضور ؟

أجاب رشاد ببساطة غطت على خوفه :

— فكرت في الأمر ووجدت أنه من الأفضل أن أحضر، لأنني

أعلم أنني لن أستطيع الذهاب بعيداً عن يدكم .

— كان يمكنك عدم الحضور، وهذا ما قلته لصديقك .

قال رشاد وابتسامة انفرجت لها شفتاه .

— أحياناً الفضول يكون له دور كبير، وبصراحة فضولي هو

الذي أحضرني .

.. قال حامد متبسّطاً :

— ومن أجل فضولك، أحب أن أطمئنك بأن ما دفعني

لاستدعائك هو الفضول أيضاً :

بدت الدهشة في وجه رشاد وقبل أن يسأل سؤاله أردف حامد :

— نعم .. الفضول .. سمعت عن تدينك ودهشت له، كيف

- شذذت عن سكان قصر الكومي؟
- أريد وجه رشاد لما في تلميحة حامد وقال مسرعاً :
- أختي ناديه أيضا شذت عن سكانه .
- أنا أعلم هذا، ولم أكن أقصد مضايقتك بقولي، لكن فقط أريد أن أستمع إلى الدوافع التي جعلتك تسلك الطريق الصحيح.
- تكاثرت الدهشة فوق وجه رشاد متمما في داخله .. كيف تتكلم عن الطريق الصحيح وأنا أعلم أنك لم تقترب منه أبدا؟! لكنه أجاب بحكمة :
- الإنسان يولد مسيراً، لكن عندما يعي للعنلنا يصبح مخيراً، وهذا ما حدث معي بالضبط .
- سأل حامد مازحاً :
- كيف تطلق لحيثك ويكون رمزي المسيحي أقرب صديق إلى قلبك ؟..
- قال رشاد والصدق في نبراته .
- رمزي ليس بصديق، لكنه أخ عزيز نشأنا وتربينا معا، نقتسم الحلوة والمرّة معا، وليس في إطلاق اللحية ما يعيب، ليس كل من يطلق لحيته يدين بالتطرف .
- هل تنتمي لجماعة معينة يا رشاد ؟ سأل حامد ثم أردف مسرعاً .. من حقك ألا تجيب، هذا ليس استجواباً، وما تخبرني به الآن سأنساه فور مغادرتك المكتب .

هز رشاد رأسه نفيا ثم قال :

— لا أنتمي لأي جماعة، ولم أفكر في هذا مطلقاً، وما يستعصي على فهمه في الدين، أسأل فيه شيخنا الفاضل نديم، ثم نظر إلى رمزي وأكمل ضاحكا .. وأحيانا شيخ النصارى الأب يعقوب، وهذا ما يفعله رمزي تماما، فكثيرا ما يأتي معي للشيخ نديم، وبينهما صداقة .

ضحك حامد النجار وقال :

— تقسمان فيما بينكما الشيخ نديم وشيخ النصارى الأب يعقوب .. ماذا يدور في رأسكما بالضبط !

تبادل رشاد ورمزي ابتسامة من الود وقال رشاد :

— نحلم أن ننشئ مبنى كبير يعلوه من جهة مذنة مسجد، ومن الجهة الأخرى منارة كنيسة، وبينهما مكان يجتمع فيه المصلون من الجهتين، في جلسة حب بعيدة عن ديانتهم .

قال النجار بإعجاب حقيقي :

— عظيم أن تكون سنواتكما القليلة في الحياة تحمل هذه الأفكار .

قال رمزي ببساطة :

— أعتقد أنه التفكير العادي لما يجب أن نكون عليه .

نظر حامد النجار إلى رشاد ووجهه ينطق بالجد وقال :

— هل يمكن أن تأخذني للشيخ نديم ؟

أجاب رشاد وقد فارقتة الهيبة :

- ولشيخ النصارى أيضا لو أردت .
- ولما لا .. قال حامد النجار وهو ينظر مبتسماً نحو رمزي، ثم أردف، مؤكداً أن لكما إعجاباً خاصاً في نفسي، لكن لي رجاء خاص، ألا تخبرا أي مخلوق بما يحدث بيني وبينكما، مهما كانت درجة قرابته لكما، فهل تعداني بذلك ؟
- قال رشاد ورمزي معا :
- لقد اعتدنا ألا نتفق ألسنتنا بما لا يجب النطق به .
- تفضلاً واخبراني بالهاتف عن الموعد الذي ستحددانه مع الشيخ نديم .
- قال رمزي :
- الشيخ نديم لا يحتاج لموعد مسبق، بابه مفتوح دائماً، لكن لو أردت أن تكون المقابلة بموعد فليس هناك مشكلة .
- حسناً حددا الموعد واخبراني به .
- انصرف رشاد ورمزي، وهما غير مصدقين بأن من كان يحدثهما بهذه البساطة والمودة هو حامد النجار بشحمه ولحمه، علق رشاد قائلاً :
- الله يهدي من يشاء .
- وقال رمزي ضاحكاً :
- ويبدو أن مشيئته الآن هي هداية حامد النجار .

لهجة نادية شديدة وعصبية، في محادثة مع أخيها خالد عبر الهاتف، متهمة إياه بأن له ضلع في القبض على سليم بتهمة ترويج أفلام مخلة بالآداب، أقسم خالد بأنه لا يدري عن ماذا تتحدث، سارع بالذهاب إليها، تلقته بوجه عابس قائلة :

— ألن تكف عن هذه الأعمال التي تحط من شأنك ؟

قال خالد مدافعاً عن نفسه :

— لقد أقسمت لك في الهاتف بأنني لا أعلم عن ماذا تتحدثين .

قالت نادية مصرّة على اتهامها :

— أتحدث عن تلفيق تهمة باطلة لسليم خطيبي من أجل

إظهار ولائك لرئيسك حامد النجار .

دهشة صادقة بدت فوق وجه خالد وقال :

— سليم خطيبك ؟ أنني لا أعرف من تسمينه ب «سليم»، هذه

هي المرة الأولى التي أعلم بأنك مخطوبة .. كيف تتم

خطوبتك ونحن عائلتك لا نعلم؟

ألهاها خبر القبض على سليم، نسيت بأن أمر خطوبتها لم يخرج عن دائرة رشاد ورمزي صديقه، تداركت سريعاً قائلة:

— أنها ليست خطوبة رسمية، مجرد ارتباط، كنت أنوي إخباركم في أقرب فرصة، لا تدع هذا يخرجنا عن لب الموضوع، لماذا نفقتم هذه التهمة الباطلة والحقيرة لهذا الإنسان المحترم ؟

قال خالد محتجاً :

— هل لا تصدقين بأنني لا أعلم عن هذا الموضوع أي شيء؟! هل أذهب إلى الشرفه وأصيح بأعلى صوتي بأنني بريء مما ترميني به؟ .

قالت نادية وهي لا تزال في شكها :

— لا داعي لأن تفعل هذا .. لكن أفعل شيئاً من أجل أختك، سواء كان لك ضلع أم لا، أسمعني خبر عودة سليم إلى منزله دون أي اتهام لأنني واثقة من براءته، أعرفه تمام المعرفة، وإلا ما فكرت في الارتباط به لحظة واحدة .

— ثقي بأنني سأذهب من فوري لأفرج عن سليم، مهما كلفني هذا، حتى لو كان حامد النجار نفسه هو المدير لهذه المسألة ولا تنسي بأنك أختي أولاً وأخيراً .

— أود أن أصدقك .. قالت نادية وهي تنظر إلى وجهه في عدم ثقة .

— صدقيني، ولكي أنزع من رأسك فكرة أنني أتاخر بك في

سوق حامد النجار ، سأخبرك بما كنت سأصارك به ، لو
لم تخبريني عن ارتباطك بسليم .
سألت نادية :

— وما الذي كنت تنوي إخباري به؟.

قال خالد وهو يجول بوجهها ليرى وقع كلماته :

— كنت أنوي أن أصارك بأن وائل صديقي، متيما بك ويلح
على دائما أن أفاتحك إن كنت تقبلي الزواج منه .

نغمة السخرية صاحبت ضحكتها وقالت :

— ومن أجل هذا بادر لانتظاري بالمطار ، وأشنف أذني
بتعليقاته المستظرفة داخل السيارة .. أردفت وهي تنظر
نحو خالد بحزم .. المتاجرة بي في سوق حامد النجار
أهون عندي من ارتباطي بهذا الوائل، الذي لا يعرف عن
الشرف حتى حروفه .

ابتلع خالد الإهانة الموجهة لصديقه والتي يعلم أنها
موجهة له أيضاً، أظهر ابتسامة مغتصبة وقال :

— تأكدي أن أمره لا يهمني وخاصة فيما يتعلق بك، أنت
حرة في اختيار شريك حياتك، ولكي أثبت لك ذلك، هاتفي
سليم بعد ساعتين على الأكثر، ستجدينه هو الذي يجيبك .

— أرجو هذا يا خالد، فأنت أخي الأكبر، ولا أريد لصورتك أن
تسوء أكثر من ذلك .

وضع خالد يده على كتفها وقال متوددا :

— ستثبت لك الأيام كم أحب أختي الصغيرة الجميلة .

ابتسمت نادية وهي تهز رأسها متممة في داخلها .. آه لو
أعلم ما برأسك.

اعتذر رمزي لرشاد عن حضور المقابلة التي ستجمع حامد النجار والشيخ نديم، معللاً ذلك بأنه قد يكون هناك ما يود حامد النجار الإفضاء به، وابتسم رشاد قائلاً:

- وهل ستعتذر أيضاً لو أراد أن يرى الأب يعقوب ؟
- لا بالطبع، فالحال يختلف فذهابه للأب يعقوب، سيكون من باب المجاملة والتعرف عليه فقط، لكن أعتقد أن ذهابه للشيخ نديم بالطبع سيكون من أجل التوبة .

قال رشاد متعجباً :

- أنا معك في هذا الاعتقاد، الرجل يبدو وكأن معجزة حدثت معه، من يصدق أن من كان يتحدث معنا بهذا اللطف هو حامد النجار، الذي طارت سمعته في الشر والرذيلة إلى الفضاء .
- وقال رمزي :

- ألم تقل منذ قليل بأن الله يهدي من يشاء .

شعور غريب أقتحم حامد النجار وهو يجلس أمام الشيخ نديم، شعاع من الإيمان ينطلق من عيني الرجل، يغمره من قمة رأسه لأخمص قدميه، هدأت روحه في استكانة الطمأنينة والراحة، لأول مرة يشعر بهدوء النفس، وهو يستمع لكلمات هذا الرجل البسيط في مظهره العميق في روحانياته . أصر رشاد أيضاً بعد أن تم التعارف بين حامد النجار والشيخ نديم أن يتركه منفرداً معه مفضلاً الانتظار بعيداً، ليتيح لحامد النجار الفرصة لسكب داخله أمام الشيخ دون حرج . تحدث حامد النجار كثيراً والشيخ نديم يستمع إليه وعلى وجهه ابتسامة مشجعة، كان لها دورها في استنزاف كل خبيثة حامد النجار ووضعها بين يدي الشيخ، نظر الشيخ إليه والابتسامة الهادئة لم تفارق شفثيه فزادت من نور الإيمان على محياه، امتدت يده تربت على يد النجار كأب تربت على يد ابنه ليثبت في روحه الطمأنينة وقال :

— أود أن أسألك سؤالاً واحداً وأرجو أن أتلقي إجابة لا تقل عن صراحتك فيما تحدثت به الآن.

أجاب حامد النجار وقد انطفأ وهج الشر من داخل عينيه :

— تفضل يا مولانا وسل ما شئت وتأكد بأن صراحتي ستمتد للإجابة على أي سؤال .

— هل تنوي أن تعود إلى سيرتك الأولى؟ .

— ما كنت كلفت نفسي مشقة الحضور إليك وأضعت وقتي

ووقتك .

قال الشيخ نديم وهو يحدق في عينيه :

— الشيطان مكر وحيله لا تنتهي، قوته تكمن في تمكنه من النفاذ إلى نقاط ضعفنا .

قال النجار بإيمان :

— ما أراه الآن في عينيك سأستمد منه قوة تقيني من السقوط ثانية

قال الشيخ نديم وفي عينيه استفهام :

— لكن أنت صاحب سطوة ولا زلت تملك الوجاهة، ومن واقع خبرتي، اعلم أنه من النادر من كان في مثل حالتك أن يقلب طريقه فجأة .

— الجملة الوحيدة التي أذكرها من الدين تقول بأن الله يهدي من يشاء .

— صدقت يا أخي، الله يهدي من يشاء .. ثم أردف مبتسما، لكن شيئا في داخلي يهتف بأن هناك دافعا هو الذي دفعك للانقلاب من سيرتك الأولى، لتتشبث بطريق يلزم له جهاد صعب للسير فيه .

أجاب النجار مترددا :

— نعم، هناك شيء، لكن أخشى أن أبوح به فتسئ الظن بنواياي .

— لم أسيء الظن بك بالرغم بكل ما اعترفت به، فهل تظن أنني سأسيء الظن بك لمجرد معلومة أخرى، قد لا تمثل

شيئا بالنسبة لصراحتك السابقة، سؤالي ليس بدافع من الفضول أو حب الاستطلاع، لكن ما دمت نويت صادقاً أن تجتاز الطريق، الأفضل أن تجتازه بعد أن تخلص نفسك تماماً من كل عائق .

أزال حامد النجار خطوط التردد عن وجهه وقال وهو ينظر للأرض:

– أرجو ألا تظن بي المراهقة فيما سأقوله، لكنها الحقيقة التي جعلتني أقف وقفة مع نفسي، كان من المستحيل أن أتخيل بأنني سأقفها يوماً، وأنا لا زلت معتلياً لعرش السطوة والسلطة والنفوذ. نظرة من فتاة نفذت كسهم داخل قلبي وعقلي، شعرت لها بألم لا يطاق، فجأة تحول الألم إلى نوع من الحياء أمام نفسي، لم أشعر بمثله من قبل لأنني لم أعرف من كلمة الحياء حتى حروفها، لكن حينما ينطلق شعاع النور ويكشف عن مخازي الإنسان أمام نفسه، يحس بأنه أقل من حشرة صغيرة قد تطأها الأقدام ولا ينتبه لها أحد . نظرة احتقار من عيني زهرة بيضاء نشأت في وسط وحل أسود، وبالرغم من هذا استطاعت أن تحافظ على نضاعة أوراقها وأريجها الطيب .

قاطعته الشيخ نديم ونظرة عتاب في عينيه قانلاً :

– هل أفهم أنك جئت تتمسك بأهداب الدين من أجل الوصول لهذه الزهرة التي استعصى عليك قطفها ؟

قال حامد النجار وطابع الصدق يدمغ كلماته :

— ألم أقل يا مولانا بأنك ستسيء الظن بي، لقد كنت بالفعل مصراً على اعتصار رحيقها عنوة كما فعلت مع غيرها، نظرتها لي دفعتني لكي أنظر إلى نفسي في مرآة الحقيقة، قضيت طوال عمري أحرق في صورتني أمام مرآة الزيف، وعندما اكتشفت حقيقتي قررت أن أنزع عن جسدي ثوب الرثاء . أما هذه الفتاة فليس لها في نفسي الآن سوى كل احترام، ولا أتمنى لها سوى السعادة مع خطيبها .

تبدلت النظرة في عيني الشيخ نديم وعادت الابتسامة الهادئة، امتدت يده تربت ثانية فوق يد النجار، قد تكون بمثابة اعتذار عن شكه وقال :

— لقد أرحمت نفسي، والآن أستطيع أن أقول لك باطمئنان، أن ما بك هو هداية من الله، والله عز وجل يسبب الأسباب، وهذه الفتاة كانت السبب في دخولك طريق ستجني منه سعادة لا نهائية، وليس سعادة مؤقتة باعتصار رحيقها عنوة كما قلت، سر في طريقك وكلما وجدت الوقت تعال واجلس بجانبني فلقد آنت إليك .

تهلل وجه النجار، جرت في داخله ينابيع من السعادة، نهض وهو يشد على يد الشيخ نديم قائلاً :

— أنا الذي سأدعو نفسي للحضور دائماً لتزيد من إيماني .

وعد أخته ناديه بأن يفك سليم خطيبها من ورطته خلال ساعتين على الأكثر، عليه أن يفي بوعد، قد ترشحه هذه البطولة ليرتقي أمام أخته حتى ولو قليلا . قرر أن يبدأ بسؤال الجوكر فقد يكون حامد النجار ضالعا في هذا العمل، أو بمعنى أصح أن الجوكر قد علم بقصة سليم وخطوبته الغير المعلنة لناديه، فرأى أن من واجب الولاء لسيدة حامد النجار أن يزيحه، حتى لا تكون هناك عقبات أمامه في الطريق إلى ناديه . لماذا لم يخبره الجوكر ؟ مصيبة أن يكون الشك في ولانه وينقل هذا الشك لحامد النجار، الجوكر يعلم أنه هو الذي حاول أن يمهد الطريق لحامد نحو أخته ناديه، بالحفل الذي أقامه في قصر أبيه، إن كانت ناديه ركلت الجميع فليس هذا بذنبه . هي وأخوه رشاد من طينة غير طينتهم، اقتنصا لهما مبادئ وأخلاقيات عليا، في جو لم ترفرف فيه سوى مبادئ ومثل سفلى، كيف اقتنصاها هو نفسه لا يدري، هربا بها قبل أن تطولها يد الأب والأم ويذبحانها ويصنعا من دمها نبيذ معتق، طينة ناديه ورشاد تختلف عن طينته وطينة الجوكر ووائل وحامد النجار، لا يمكن أن تتشكل مع طينتهم وتصنع

إناءاً واحد . لا يمكن أن تندمج طينة لبنة مع طينة انصهرت في النار، فأصبحت كتلة يابسة مغلقة على فضائل يستحيل أن تتلائم معها الطينة اللبنة . يجب أن يفهم الجوكر هذا، إنه يمكن أن يمهد الطريق ولكنه لا يضمن الوصول لنهايته، هناك فرق أن يكون في نهاية الطريق تقف أخته نادية، أو تقف أمه فجر، طينتان مختلفتان، أمه فجر طينة لبنة، لا تنتظر أحد لأن يفتتها، هي التي تندفع لحضن الرجال وتتفتت عن طيب خاطر، أخته نادية طينة منصهرة في النار لو حاول أحد أن يفتتها تطير وتنقلب لطوبة صلبة تصيبه في مقتل . نظرة واحدة من عينيها أصابت حامد النجار في مقتل، مقتل حامد النجار في كرامته المريضة، يحاول إثباتها عن طريق اعتلاء النساء حتى ولو عنوة، نظرة نادية أوقفت نظراته السافلة وهي لم تصعد بعد إلى كعب حذائها . اقترب خالد من الجوكر شاحداً ذكائه لينتزع سر تليفك التهمة لسليم، امتلاً حيرة عندما سأل الجوكر سؤالاً مباشراً فنظر إليه الجوكر باستنكار قائلاً :

— أي سليم هذا الذي تتحدث عنه ؟

حاول خالد أن يتماسك، قد يكون الجوكر لا يريد إفشاء أي خبر عن هذا الموضوع لسبب في رأسه وقال :

— لقد علمت أنه ألقى القبض على شخص يدعى سليم صاحب محل شرائط فيديو، يقال أنه في حكم الخطيب لناديه أختي، توقعت أن يكون تم هذا بمعرفتك فأدهشني هذا لأنك لم

تخبرني، أنت تعلم جيدا أنني رهن إشارة حامد بك وإشارتك .

— أنني أعلم ولأنك، لكن موضوع سليم هذا لا علم لي به بالفعل، حامد النجار على ما أعتقد صرف النظر تماما عن نأديه أختك، لست أعلم أسبابه وهذا ما يجعلني مندهشا، هذه المرة الأولى التي يقبل فيها الهزيمة ببساطة تامة، ما زادني دهشة أنني لمحت أمامه بهذا مرة فنظر نحوي نظرة من نظراته التي تصهر الحديد وقال :

— أتركها في حالها، نوع آخر من النساء، يبدو أنني كنت جاهلاً به تماما، منذ ذلك اليوم لم يأت ذكرها أبدا .
قال خالد :

— لقد أثار حديثك دهشة في نفسي أكثر من دهشتك، وأتساءل عن الذي له مصلحة في تليفق هذه التهمة لسليم ؟

— وما الذي يدريك أنها تهمة ملفقة، ولماذا لا تكون تهمة مضبوطة، وأن هذا السليم يروج أفلاما مخلة بالآداب .
أجاب خالد :

— لا أظن هذا، أختي نأديه تؤكد براءته، أنا أعلم أنها ما كانت تدعه يقترب من سورها لولا تأكدها من نظافة سلوكه .

قال الجوكر وقد تجلت ابتسامته الوضيعة :

– لو أن الأمر يهملك وتريد أن تدعه يخرج لحال سبيله،
من أجلك ومن أجل ناديه، لا مانع من التدخل للإفراج
عنه، أنت حقيقة خير من تقدر خدماتي، علاوة على أن
هذا السليم لو كان بريئاً سيكون إطلاق سراحه هدية مني
للفنانة ناديه، أما إذا كان فعلاً من هواة اللعب في هذا
الميدان، فلتتركه لنا وسنفتح أمامه السوق على مصراعيه
للعب .

تمتم خالد في داخله .. لا تفلت فرصة للوضاعة أبداً أيها
الجوكر، وضع فوق شفتيه ابتسامة زيفاء، قال وكلماته تضخ
احترام مفتعل :

– سيادتك لا تدع فرصة إلا وتشملني بعطفك، خروج سليم
يعتبر قفزة لي أمام عيني أختي ناديه، انحدرت ثقتها بي
للحضيض .

من خلال الهاتف، وفي لحظات أنهى الجوكر كل شيء،
أخبر خالد أن سليم خلال ساعة سيكون حراً في الطريق إلى
منزله . بالرغم من ازدياد الشك داخله، أن تكون هذه من
فعلة الجوكر ولا علم لحامد النجار بها، إلا أنه أظهر امتنانه
المحشو بوعود خفية بأنه لن ينسى له هذا الجميل، الذي
سيبيض وجهه أمام أخته .

تكررت زيارات حامد النجار للشيخ نديم، عرف الطريق ولم يعد في حاجة لمرافق، يذهب متخفياً، لم يعلم أحد من مكتبه حتى الجوكر نفسه بأمر هذه الزيارات، يخشى انكشاف سر هذه الزيارات لسببين . أولهما أنه كان يعرف أن من حوله وحوش كاسرة وطبيعة عمله لا تسير إلا بالحديد والنار، البطش هو العصا السحرية التي تسير عمله على أكمل وجه . أما ثانيهما وهو الأهم أنه يعلم تماماً بأن أحدا لا يصدق بتاتا أن ينقلب طريقه نحو الدين، سيشيعون عنه بأنه فقد عقله، وأن الجنون هو الذي يحركه . ستكون فرصة لأن تبرز مخالف أعدائه وما أكثرهم لخمس وجهه وإقصائه عن منصبه، حتى العاملين معه سيتحول ولأنهم لجهنم قادرة على شي من يقترب منها، القوة هي الوسيلة التي لا يعرف سواها هؤلاء المنافقون، وهو باقترابه من الله من المؤكد أنه سيبيع بطشه وبالتالي سيختل ميزان القوى وتصبح كفته هي الخاسرة . أكثر من مرة يجاهر بما في نفسه للشيخ نديم، نصحه بأن يستخدم ميزان الحكمة في تسيير أموره، كان من رأي الشيخ نديم أيضاً أن الانقلاب المفاجئ قد يضر به، لكن في نفس

الوقت لا بد أن يعدل من سلوكه ولا يستمر في طريق الظلم والقمع، يعدل من خطواته بالتدريج حتى ينقل ميزان قوته من يد الشيطان إلى إرادة المولي عز وجل . كاد الجنون يسكن عقل الجوكر وهو يرى سيده وولي نعمته زاهداً في الفجور، إذا زهد سيده في الفجور فماذا سيكون عمله هو، لا يجيد سوى تجهيز الفراش ومستلزمات السهرات الحمراء، حتى سيدة الفراش من اختصاصاته، هو الذي يبحث وينتقي ويقرب ويستخدم القوة والعنف والمؤامرات إذا اقتضى الأمر، المهم في النهاية أن تصبح من يشير عليها حامد النجار ضيفة على فراشه، لليلة واحدة أو قد تطول لعدة أسابيع . ناديه هي الوحيدة التي قفزت فوق القاعدة . منذ ذلك اليوم وهو يرى سلوكاً جديداً لسيده، أصبح دمه أثقل من الحجارة، العفة لا تليق بمن كان على شاكلة حامد النجار، الكأس والنساء هما سبب ظرفه، أصبح لا يطاق بعبوسه الدائمة . حتى لسانه أصبح ثقيل الظل، خسر كثيراً من العبارات والألفاظ القبيحة التي كانت تشنف أسماعه، أو يستمع إليها من خلال حديثه مع الساقطات . تساءل الجوكر عن سبب هذه النكبة وحاول أن ينفذ إلى سيده، دائماً يجابهه الصد، حاول أن يحرك أعوانه لاستجلاب معلومات عن التحركات الخفية لسيده، أبداً لم يصل لسر الشيخ نديم وطريق حامد النجار الجديد .

الموسيقى حاملة، نظرات خجلى للقمر من خلف الأشجار،
ونسمة تحمل نفحات من أنفاس المحبين، تطير بها إلى
الورود التي امتلأت بها الحديقة، أنفاس ميرفت وعادل،
وسليم وناديه، وهم في رقصتهم التي تشبه رقصة الفراشات
حول الزهور . تحمل أريج حب تخفق أحلى الزهور في الإتيان
بمثله، تناسوا كل شيء حولهما . ألقى ميرفت برأسها فوق
كتف عادل، تعلقت عينا ناديه بعيني سليم، وكأنهما شدتا
إلى بعضهما برباط أبدي . الحاضرون ينظرون بإعجاب إلى
ثنائيات الحب النادر، حتى عازفى الكمان أطلوا في عزفهم
لتنمتع نظراتهم بهذا المنظر الفريد . انسحب جميع الراقصون
ولم يبق سواهم، عندما أشار والد عادل للعازفين لكي
يتوقفوا، لم ينتبه ثنائيات الحب لتوقف الموسيقى، استمروا
في أحلامهم، لم ينتبهوا إلا على دوي صفيق الحضور .
ساعتها فقط انفتحت أعينهم النائمة وبها نظرة عتاب لكل
الموجودين وكأنهم يقولون، من خول لكم أن تقتحموا جنتنا
وتنزعونا من أحضان الخلود . ضحك والد عادل قائلاً :

— هيا إلى إطفاء الشموع وتقطيع التورته ثم عودوا لأحلامكم
ثانية .

اليوم هو عيد ميلاد ميرفت، نادية وسليم على رأس قائمة
الضيوف، أمسك عادل بيد ميرفت متجها إلى تورته عيد
الميلاد، وهو يهمس قائلا :

— هل تتذكرين أمسية جنية بحور الشعر .

— وهل تتذكرها أنت .. قالت ميرفت وهي تتشبث بقبضة يده .

— ستظل محفورة في قلبي طوال العمر .

قالت نادية وهي تزداد تشبثا :

— كنت أظن أن علاء وعلياً أنسيك جنية بحور الشعر .

— السر في وجودهما هما جنية بحور الشعر فكيف أنساها ؟!

لمحت ميرفت نادية وسليم يرنوان نحوهما وفي أعينهما
إعجاب شديد، ابتسمت وجذبتهما وهي تقول .

— ألا يدفعكما هذا للغيرة وتعجلا بالزواج ؟

قال سليم وبريق الحب يضيء عينيه :

— لقد قرأت ما في عقلي بالضبط، هذا ما كنت أتحدث به لناديه .

وقالت نادية :

— ما شاهدته الآن في وجهك أنت وعادل، دفع بأطنان من الغيرة داخلي، وقلت لسليم لا بد أن نعلن خطوبتنا رسميا في الأسبوع القادم، وبعدها يكون الزواج .

صفت ميرفت كالأطفال مبتهجة وهي تصيح :

— ولن أقبل سوى أن يكون حفل الخطوبة هنا وأرجو ألا ترفضاً رجائي .

قالت نادية وهي تقبلها:

— ولو أن هذا سيثير حفيظة أبي وأمي وأخوتي، إلا أنني لا أستطيع أن أرفض طلباً لأعز صديقة لي .

دهشة عصفت برأس الجوكر وهو يرى رشاد ورمزي يتقدمان نحو غرفة مكتب حامد النجار، تعجب كيف استطاعا أن ينفذا إلى مكتبه مخترقين كل الحراسات الخارجية، طار نحوهما وهو ينظر إليهما ككلب على وشك العقر .

— إلى أين أيها الشجعان ؟

نظر إليه رشاد بلا مبالاة وقال :

— كما ترى إلى مكتب حامد بك النجار .

قال الجوكر وهو يرميها بنظرة مستهينة :

— وهل تظنان أن حامد بك النجار لديه من الوقت لاستقبال الأولاد ؟ .

تجاهلا وقاحته وقال رمزي :

— إننا على موعد معه .

ضحك الجوكر ضحكة مستهينة قائلاً :

— لم أكن أعلم أن لحامد بك النجار من يرتب له مواعيده غيري .

قال رشاد بحزم :

— من فضلك دعنا ندخل أو أخبره أنت بقدمنا .. فقد يسيء حامد بك أن ننتظر أمام بابه .

تاهت النظرات داخل عيني الجوكر وتمتم في داخله .. ما الذي يحدث، انسل إلى مكتب سيده، ضلت النظرات في عينيه تماما وهو يستمع لحامد النجار وهو يأمره بإدخالهما فوراً . استقبلهما حامد النجار بالترحاب، هو الذي شجعهما على زيارته في أي وقت يشاءون، قائلاً أنهما أصبحا في حكم أخوين صغيرين، النجار بعد أن عادت الحياة لقلبه، ينظر إليهما كنموذج جميل للشباب والصداقة والحب .

قال رشاد برجاء :

— نحن نعلم أن وقت سيادتكم ضيق، فاسمح لي أن أعرض ما جئنا من أجله، وهو في الحقيقة شيء يهم رمزي كما يهمني أنا بالضبط .

نظر النجار إلى رمزي وقال :

— أعرض ما جئت من أجله، وتأكد بأنني سأبني لكما أي طلب، أنتما لكما منزلة واحدة في نفسي .

— أشكرك يا حامد بك، هذا ما أعلمه جيداً، وهو ما شجعتني أن آتي وأعرض أمراً هو في الحقيقة تكليفاً من الأب يعقوب لأقوم بتوصيل رسالته إليك .

قال حامد ضاحكاً :

— وأيضا الأب يعقوب طلباته مجابه .

قال رمزي:

— هو في الحقيقة موضوع يتعلق بسور الكنيسة المتهم،
أنت تعلم سيادتك القوانين المعقدة لاستخراج تصاريح
البناء أو ترميم الكنائس .

— هل هذا كل ما في الأمر .. أنقل للأب يعقوب تحياتي
واخبره أنني في أقرب فرصة سأقوم بزيارته للتعرف
عليه، وأقدم له بيدي تصريحاً لإجراء أي إصلاحات أو
ترميمات بالكنيسة، بيوت الله يجب أن تكون لها مكانة
خاصة في قلوب الجميع .

قال رمزي وهو ينظر بإكبار إلى حامد النجار :

— أشكر سيادتك، هذا الخبر سيبتهج له كثيرا الأب يعقوب..
ضحك رمزي ورشاد عندما غادرا مكتب حامد النجار
مرورا بمكتب الجوكر وهما يريان عينيه خارج غرفتيهما،
نظر رمزي إلى رشاد قائلا:

— أنني غير مصدق لما سمعته أذنائي من فم حامد بك .

— ألم ننفق أن الله يهدي من يشاء .. قال رشاد مبتسما .

دق جرس الهاتف في شقة ناديه كلحن جنائزي، لم تدر ناديه لماذا تضاربت نبضات قلبها وهي ترفع السماعة :

— منزل الفنانة ناديه ؟

— نعم أنا ناديه ما الخبر ؟

— أنا إحسان، ممرضة أعمل بالقصر العيني، كلفني خطيبك سليم أن أتصل بك لأخبرك بأنه أصيب في حادثة سيارة .

ألقت ناديه السماعة من يدها، هرول رشاد ورمزي صديقه نحوها، أمسكا بها وهما يشاهدانها تترنح مع دموعها، علما بما حدث . أصرت على الذهاب معهما لترى سليم، من المؤكد أنه في احتياج لها بجانبه .

وصل ثلاثتهم لكن الموت طار قبلهم، زار سليم واصطحب روحه وهرب، كان بخيلا لحد الجبن، لم يعطه فرصة لبعض كلمات ليودعها وتودعه، لم يترك لها سوى جثة هامدة ما اختفي منها خلف الأربطة يفوق ما ظهر منها . بعينها التائهتين رأت وجوها يعتصرها الحزن والألم، الأب والأم في ذهولهما، يرفضان فكرة رحيل ابنهما البكر، رحل وترك لهما

أوجاع ليس لها دواء . أخواته تجمدت الدموع فوق وجناتهن، هربت الدماء وتركت الأبدان في برودة الثلج . المرة الأولى التي ترى فيها نادية والد سليم، لم تتمالك نفسها، ألقت برأسها فوق كتفه تغرقه بدموع تصهر الحديد والأب يهمس دون وعي .. كلمني عن حبكما كثيرا، كنا سنحضر لنخطبك له هذا الأسبوع، تحزين كل هذا الحزن وأنت لم تقابليه إلا منذ فترة قصيرة، ماذا يفعل أب كان أول من تلقفه على يديه ويراه أمام عينيه، كل يوم يضيف إلى عمره يوم جديد، إلى أن صار شاباً يملأ الدنيا، ماذا ستصير حياتي أنا وأمه من بعده. لم تتحمل نادية أحزان الأب، أطلقت ساقها مبتعدة، لحقها رشاد ورمزي، عادت إلى شقتها، لم يستطع أحد أن ينتزع السكين التي نفذت إلى قلبها، بالكاد وصلت لفراشها، ثم الانهيار الذي يعقب الزلزال، انهارت فوق الفراش منكسرة، تأوهات انهمرت لها دموع رشاد ورمزي، لم يجدا أمامهما سوى استدعاء الطبيب، أخذت لنوم تتخلله كآبة الموت على أثر الحقنة المهدئة.

مكث رشاد ورمزي في الحجرة المجاورة لها يخيم عليهما حزن صامت، عرفا سليم الفتى الطيب الذي أحب نادية، شاهدا قلبه في عينيها، قلب جميل صاف كاللبن الحليب، تكلله زهرة الحب. من الذي جرؤ واغتال هذا القلب الطفل، في المستشفى علما من أسرته أن سيارة مسرعة صدمته أمام منزله، أغلق سيارته وأثناء عبوره الطريق للجهة المقابلة للوصول لباب منزله، وفي منتصف الطريق أتى الموت كالصاورخ في

صورة سيارة مندفعة، لم يستطع أحد التقاط أرقامها، قذفت به لأعلى فطار كالكرة، هوى فوق سيارة واقفة على جانب الطريق، نقل للمستشفى وهو فاقد الوعي، فتح عينيه لثوان معدودة في المستشفى، بصوت هامس طلب من الممرضة التي كانت تقف بجواره أن تتصل بناديه ثم أغلق عينيه للأبد . انسابت من عيني رمزي دموع حزينة وقال وهو يجففها بكمه .

— رحم الله سليم كان شاباً طيباً.

قال رشاد وهو يجفف بكمه قطرات عينيه مقتدياً بصديقه رمزي :

— سليم انتقل لدار الخلود، لكن المشكلة في أختي نادية، ستشعر بطعم الموت وهي لا تزال على قيد الحياة .

لو قالوا لحامد النجار أن الجبال تنتقل وتسقط في البحار لصدق، لكن أن يُفتح الباب فجأة ويرى امرأة متشحة بالسواد تقتحم عليه مكتبه وخلفها الجوكر مهرولاً فهذا لا يصدق، خاصة لو كانت هذه المرأة هي نادية. وقفت تجلده بنظراتها، نظر إلى الجوكر الذي تحول لكتلة من الفضول وأشار بيده ليغادر المكتب، انسحب الجوكر لكن الفضول لم يغادر كيانه فوقف متصنّتا خلف الباب. حذق حامد النجار في عينيها وكأنه يدفع عن نفسه مزيداً من الشياطين، أشار لها بيده لكي تجلس وهو لا يدري ماذا يفعل، لم تأبه نادية لحركة يده. لصقت أذن الجوكر بالباب وأصبحت جزءاً من خشبه لكنه لم يستمع لشيء. غفلته صورت له أن نادية قادمة لتعرض نفسها على حامد النجار فأخذ يتمتم.. يتمنعن وهن الراغبات. لم يكن يعلم أن نادية تضع في حقيبتها المسدس الذي كان يمتلكه سليم ويحمله معه دائماً، ألحت عليه حتى أخذته وخبأته في دولابها خوفاً عليه. استيقظت في الصباح بعد عدة ليالي تقلبت فيها بين النوم واليقظة بالرغم من الحقن المهدئة عقب مقتل سليم، في لحظات اليقظة تفتح عينيها

وتحرق في الظلام، تتراعى لها صورة حامد النجار وكأنه يطبق بيديه على عنق حبيبها سليم . نهضت من فراشها محاولة التماسك، أثار هذا التماسك دهشة رشاد وصديقه رمزي الذي أصر أن يمضي هذه الليالي مع صديقه ليخفف عنه، وليكون بجانبه لو تطورت الأمور مع نادية . لم يحاول أن يسألها عن سر القوة التي تقمصتها وفضلا الصمت، لم يعلم أن قرارا اتخذته هو سر هذه القوة، قرار جنوني لكن لن يبرد نيران قلبها سواه . لا بد من موت حامد النجار بمسدس سليم، إذا تمكنت منه وقتلته بمسدس سليم، سيكون الأمر بالنسبة لها كما لو كان سليم استيقظ من الموت وانتقم لنفسه . لا بد لسليم أن ينتقم لنفسه من هذا الجبان الذي حرمه من الحياة قبل أن تذيقه من حبها، عاش من أجل هذا اليوم، النذل حرمه من الوصول إليه . تذكرت سليم وهو يقول لها ضاحكاً .. كلما فكرت في هذا اليوم يباغتني إحساس بأنني لن أصل إليه ش، وأن القدر الغادر سيحرمني أن أقطف ثمار الحب التي نضجت وفاقحت حد النضج، تضربه على يده معاتبة وهي تقول .. دعك من خيالاتك المتشائمة وانظر في عيني، لتعرف كم ستكون ثمار هذا الحب شهية ولذيذة . رحل سليم وهو جائع لقطفة واحدة من ثمارها التي حافظت عليها من أجله، أقل شيء تفعله أن تحرم من حرمة من هذه الثمار من الحياة نفسها، وبيد سليم نفسه، بمسدسه.

لم تأبه لإشارة حامد النجار التي يدعوها فيها للجلوس

مرة ثانية، بأعصاب باردة كالثلج، فتحت حقيبتها وأخرجت المسدس ووجهته نحو رأسه، قالت بصوت آت من الموت الذي جثم فوق جسد حبيبها.

— هذا مسدس سليم الذي قتلته ومن الواجب أن تموت به .

لم يطرف رمشه، سنوات طويلة أمضاها في عمل يحتاج لموت القلب حتى يجيده، أجاد عمله تماماً، وهذا يعني أن الموت سبق إلى قلبه وترك له الجسد فقط يعيش به . الأيام علمته وزادت في خبرته، بأن من كان مثل ناديه قد تكون له القدرة لرفع المسدس في وجه الغير، لكن أبداً لن يجرو الإصبع على الضغط على الزناد، حتى ولو كانت النظرات الملتاعة تملأ عينيها.

تمتم الجوكر وهو منحني ليستكشف ما يحدث من خلال ثقب الباب، أخرجي رصاصتك وأذهبي أنت وهو إلى الجحيم، لم يعد يهمني منه شيء بعد أن تحول من أسد إلى نعجة . انطفأ بريق فجوره، فقدت مكائتي التي استمدها من هذا الفجور، اقتاليه ودعيه يتقابل مع سليم، ولو أنني متأكد من استحالة تقابلهما فهذا له مكان وهذا له مكان، لا شك في ذلك. نظر حامد النجار إلى فوهة المسدس المصوبة إلى رأسه وإلى عينيها الحزنتين، تمنى لو تمكن من أن يحتويها بين ذراعيه ويهمس في أذنها، خففي من حزنك، في قلبي حب لك لو اطلعت عليه، لعلمت أنه يرجع الفضل إليه في إخراج

شيطان هذا القلب دون رجعة، ليحل بداخله ملاك الحب والإيمان معا، بدت على شفثيه ابتسامة باكية وقال :

— لقد قتلت سليم ومن حقك أن تقتليني، لكن لا بد أن تستمعى لدوافعى إلى قتله فهذا من حقى .

تطايرت جمرات من عينيها شعر بها تحرق وجهه وقالت :
— إذا فأنت الذى لفقت له تهمة ترويج الأفلام المخلة بالآداب من قبل .

قال النجار وفي عينيه نظرة لم تفهمها :
— وأنا الذى لفقت له هذه التهمة أيضا، ومن حقى أيضا قبل أن تقتليني أن تستمعى للدافع .

سألت نأديه وفي عينيها خشية الإجابة :
— هل لأخى خالد يد فى هاتين الجريمتين ؟
أجاب حامد والشك فى عينيه

— اطمئنى، أخوك خالد ليس له أى دور ولا علم له بأى منهما .

قالت نأديه والمسدس يهتز بيده :
— إذا فأنت تعترف بجريمتيك !!

أجاب النجار وفي عينيه لمحة صدق أثارت انتباهها :
— لا بد من الاعتراف، أنت أصدرت حكمك مقدما وأتيت

للانتقام، فحتى لو أقسمت بأنني لا أعلم عن أي شيء
تحدثين لما صدقت، وستصرين على إزهاق روحي .
قالت ناديه والشك يلاعب نبراتهما واليد المرتعشة تزداد
ارتعاشا:

— خوفك يدفعك للمراوغة، أليس كذلك ؟ لكنك لن تنجو من
يدي .

قال النجار وفي عينيه نظرة صادقة وجادة زادت من
دهشتها :

— لو كنت متأكدة من اتهامك مائة في المائة سلميني هذا
المسدس، وأقسم بأنني سأدع يدي هي التي تفرغه في
رأسي ولا تعرضي نفسك للعقاب .. نهض النجار واقفا، دار
حول المكتب، اقترب منها، أمسك بالمسدس ببساطة وفتح
حقيبتها ووضعها بها ثم أغلقها . دفعها برقة لتجلس على
المقعد وقد تغيرت قسما وجهه تماما، لأول مرة ترسم
لوجهه صورة غير التي اعتادت أن ترسمها .

تململ الجوكر في وقفته وهو يردد اقتليته أيتها الجبانة
وخلصينا من هذا الأسد الذي استأنس فجأة .

قالت ناديه وبعض الهدوء بدأ يشوب صوتها :

— هل لك أن تخبرني من الذي له مصلحة في قتل سليم
والتخلص منه غيرك ؟

– كان من الممكن أن يكون كلامك صادقاً لو عدنا بالزمن قليلاً للوراء، لكن الآن لا أعتقد أن لي مصلحة في التخلص من سليم أو غيره .

لاحقت عيناها المندهشة حركاته وقسماته وهي تتأمله ونداء يلح في داخلها بأنه صادق وقالت:

– وما الذي حدث في هذه الفترة القصيرة ليغير منك .

– من فضلك دعيني أحتفظ بالإجابة لنفسى، لأنها ستدينني أكثر أمام عينيك، وقد تعتبرينه نوعاً من استغلال موقف في وقت لا يسمح بهذا الاستغلال . لكن أؤكد لك بأنني لأول مرة أعرف بموضوع هاتين الجريمتين، وعندما أقدم الفاعل للعدالة في وقت أقرب مما ستتصورين، ستعلمين بأنني صادق في كل كلمة قلتها.

نهضت نادية وبعض من صدقه انتقل إليها، نهض النجار وصافحها وهو يقول ونبرة من الحزن لها رنة الحقيقة .

– إقبلي تعازي، وكما وعدتك ستعلمين قريباً بتقديم الفاعل للعدالة .

غادرت نادية مكتب النجار وهي تتسائل عن سر غضبها الذي تبخر أمام كلماته القليلة، والأغرب أنها أحست بصدقها .

بين الميل للتصديق ومناوشات الشكوك، تنازعت الأفكار في رأس نادية، سمعت وامتلات أذنيها بأفعاله، شيطان في صورة آدمية، ذهبت إليه في مكتبه ودافع من الانتقام يملكها ويسيطر على كل ذرة تنبض بالحياة في جسدها، على الأقل إن لم تسعفها قدرتها على أن تهدي إليه رصاصة من مسدس سليم، وهي تعلم مقدما استحالة ذلك لأنها لا تتفق مع أسلوب الشر، لكنها على الأقل ستضخ في وجهه اتهامها بقتل خطيبها وحبيبها سليم . تنفت عن نيرانها بنعته بأبشع الصفات الانحطاطية، قد يريحها هذا لكنه لن يعيد إليها سليم، على الأقل ستشعر بأنها فعلت شيئا من أجله . لم تدر لماذا قبلت دفاعه الموجز عن نفسه ببساطة، هل نقاء قلبها هو الذي دفعها لأن تستشف صدقه، أم أنها واهمة وأنه ممثل محترف أتقن دوره . حامد النجار كان بالنسبة لها وحش يمكنه أن يمزق دون رحمة، كيف تراجعت عن هذه الصورة لمجرد كلمات قليلة فاه بها، هل هو الصدق الذي كان يغلف وجهه ونبرات صوته، أم عينها الثاقبة اخترقت رأسه وأحست بأنه لا يكذب . الأمر ليس بهذه البساطة، حامد النجار كان يرغب

فيها بشدة كادت أن تقفز من عينيه . شاهدها فيهما ليلة الحفل الذي أقامه خالد أخوها في قصر أبيها، حامد النجار لا شيء يقف في طريقه، كالبدوزر يزيح من يقف في طريقه كورقة شجر جافة . قد يكون خياله صور له أن سليم هو العائق بينه وبينها، هو الفاعل، رفعت صوت تفكيرها .. ما دمت تفكرين بهذه الطريقة، لماذا صدقتيه ومددت يدك لتصافحيه وأنت خارجة من مكتبه وقبلت عزائه . لماذا شعرت بأن تياراً كهربائي سري في كامل جسدك عندما لامست يدك يده بالرغم من الحزن المسيطر على قلبك . لماذا لم تستطعي النظر إلى عينيه بالرغم من اختفاء نظرة الرغبة من داخلهما . هل لأن هذه النظرة تحولت لنظرة احترام وتقدير ؟ تباً لهذه الافكار والشكوك، اعتقد أن أحداً لن يستطيع إنقاذي منها سوى الشيخ نديم.

في المساء طرقت ناديه باب الشيخ نديم، بهتت من هول المفاجأة، حامد النجار يجلس مع الشيخ نديم، كيف ؟! ولماذا؟، ومنذ متى ؟ كدوامه هائجة هاجمت الأسئلة رأسها، تمتمت ببضع كلمات مبهمه، فهم منها الشيخ نديم اعتذارها ورغبتها في الانسحاب . ابتسم حامد النجار وهو يلاحظ ارتباكها وكأنها رأت شيطان يجالس ملاك، نهض واستأذن الشيخ نديم في الانصراف ليتيح فرصة لناديه للحديث معه، لم يزد عن ابتسامة خفيفة وتحية أخف ألقاهما عليها وانصرف .

ابتسم الشيخ نديم في وجه ناديه وهو يعلم أن داخلها فضول يعدو خلف حامد النجار فبادرها قائلاً :

- الناس أسرار يا ابنتي، والله قادر على أن يهدي من يشاء.
- لا تلم نظرات الفضول يا مولانا، لكنك لو علمت بسبب حضوري فقد تعذر هذا الفضول.
- أنا أعلم سبب حضورك، قلبك ملآن بالحزن على خطيبك، وشكوك حول حامد النجار في أنه هو الذي دبر هذه الجريمة، أليس كذلك ؟
- بلى، بلى، يا مولانا، قالتها ناديه وهي تحملق في دهشة .
- بالنسبة للحزن، الله هو القادر أن يلهمك الصبر والعزاء، أما بالنسبة للشكوك فاطرحيها من رأسك، لأن الرجل بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب .
- أراك متأكد من دفاعك يا مولانا .
- ألم أقل لك الناس أسرار يا ابنتي، وأنا مستودع أسرار لكل من أعرفه ويتحدث معي، وأنا أعلم الآن حامد النجار أكثر من نفسه، إطمئني من هذه الجهة .
- أعذر فضول سؤالي يا مولانا، هل تعرفه منذ وقت طويل؟
- ليست العبرة في طول مدة تعارفنا، لكن العبرة في النية يا ابنتي، حامد النجار أتى إلى هنا بدافع من داخله وليس مغصوبا، وهذا يكفي للإنسان كي يبدأ خطي جديدة . متى

عرف الطبيب المرض من السهل عليه أن يكتب العلاج،
وأفضل طبيب للإنسان في هذا الميدان هو نفسه، لو
أحس كل واحد بأخطائه وانفتحت عينه على مرضه فهذا
هو العلاج الصحيح .

انصرفت نادية والشكوك في حامد النجار انقلبت لخليط
من العجب والدهشة والفضول . ما هذا الزلزال الذي استطاع
أن يزلزل جبل هذا الرجل، حامد النجار ينقلب لمصلي ومن
مريدي الشيخ نديم . لو كانت جاءت هذه الخطوة نتيجة لفقده
منصبه لكان هناك بعض التفسير، لكنه لا يزال متربعا بكامل
قوته فوق عرش المنصب الخطير، هذا يعني أنه تخلص بكامل
إرادته عن كل رذائله وهو لا يزال يقبض على الصولجان .

زيارة من ميرفت وزوجها عادل، للتسرية عن ناديه بعد حادثة مقتل سليم خطيبها، لم يكن هما الوحيدين ذلك اليوم، أيضاً رمزي صديق رشاد الذي كان ملازماً لصديقه عقب الحادث . دق جرس الهاتف، حامد النجار يستأذن ناديه في الحضور لتوضيح بعض الأمور بخصوص مقتل سليم، شيء في داخلها يرحب بحضوره، رؤيته مع الشيخ نديم، وحديث الشيخ عنه، زكيا صدقه أنه بعيد كل البعد عن مقتل سليم . مفاجأة شديدة في عيار قبلة ألقاها حامد النجار . المجرم هو الضابط وائل صديق أخيها خالد، وهو الذي لفق تهمة ترويج الشرائط المخلة بالأداب لسليم من قبل، ليخلو له الطريق لطلب يدها . لم تأت عملية تليفق تهمة الشرائط بالنتائج المرجوة، خرج منها سليم، فقرر التخلص منه نهائياً ودبر جريمته . أكفهر وجه ناديه وهي تعتقد أن أخاها خالد معه، استشف حامد النجار ما يدور برأسها، ابتسم وقال لا تظلمي أخاك خالد، أؤكد لك أنه ليس له أدنى علم بما اقرفته يد وائل، ولم يكن له أي تدبير . شككت في وائل منذ البداية، لأنني كنت أعلم أنه يسعى للزواج منك، كما أخبرني أخوك

خالد . كنت أظنه سيسلك مسلك الرجال بعد أن علم بارتباطك
بسليم . عندما حضرت إلى مكتبي موجهة تهمتك لي، توقعت
أن يكون له يد في تدبير هذه الحادثة . انتظرت حتى تأكدت،
انتزعت منه اعترافا كاملا بخط يده وسيكون هذا دليل إدانته،
تم القبض عليه اليوم هو والمجرم الذي نفذ الجريمة . نهض
حامد النجار، عيناه تحملان نظرة عتاب رقيقة لناديه على
تسرعها في اتهامه وقال :

– أعتقد أن مهمتي انتهت وسأكون سعيدا بتلبية أي خدمة لك .

انصرف حامد النجار . لم يخف على ناديه دقائق قلبه
التي حاول أن يطمسها أثناء حديثه، النظرة التي في عينيه لا
يخطيء في تفسيرها من عرف الحب، وهذا ما دعى ميرفت
أن تميل على أذنها وقالت :

– أعلم أن الظرف غير مناسب لحديث مثل هذا، لكن هل أكون
مخطئة لو قلت أن نظرات هذا الرجل تقول أنه متيم بك ؟
هزت ناديه رأسها وقالت :

– سبحان من يغير النفوس .

انصرفت ميرفت ومعها عادل، اقتصرت الجلسة على ناديه
ورشاد ورمزي، نظر رشاد إلى ناديه بعتاب وقال :

– لماذا لم تخبريني بأنك ستذهبين لحامد النجار متهمة ؟

– كانت شكوكي كلها متجهة نحوه .

— لو كنت كشفت سريرة نفسك أمامنا لنصحناك بأن تحولي شكوكك لاتجاه آخر .

— وكيف علمتما ببراءته وأنتما تعرفان ما تعرفان عنه ؟

تقابلت نظرات رمزي ورشاد في ابتسامة، مما دعى ناديه أن تستوضحهما سر هذه النظرات الغامضة، هز رمزي رأسه وهو ينظر إلى رشاد وقال :

— اعتقد أن الأمور وضحت للجميع، ولا بأس من إخبار ناديه بما كنا نخفيه عنها كطلب حامد النجار .

زاد الفضول في عيني ناديه مع بعض الضيق، لأنها أحست أنهما يخفيان عنها شيئاً، قبل أن تصرح بضيقها قال رشاد :

— عندما نتحدث أنا ورمزي الآن عن حامد النجار، فإننا نتحدث عن حامد آخر غير الذي لوثت أذنك سمعته .

وأكد رمزي :

— بالضبط يا ناديه، حامد النجار تحول في غمضة عين من شيطان إلى ملاك وأصبحنا أنا ورشاد من أصدقائه . هذا غير جلساته التي لا تنقطع مع الشيخ نديم، الذي أصبح يكن له مودة وتقدير .

قالت ناديه وهي تهز رأسها :

— الآن علمت السر في وجوده مع الشيخ نديم عندما ذهبت لزيارته .

وقال رمزي مسروراً :

— حتى الأب يعقوب يشمله بدعواته الآن، بعد أن أسدى خدمة
للكنيسة باستخراج تصريح لترميم سورها .
لم يدر رشاد ورمزي أي نظرة تلك التي امتلأت بها عينا ناضيه.

هناك أشياء قد تكون مستبعدة وأحيانا تصل للاستحالة لكنها تحدث في الحياة . زواج ناديه من حامد النجار كان من الأمور المستحيلة والغير واردة في قاموس المنطق لكنه حدث، كيف ؟ ولماذا؟، لا أحد يستطيع أن يخمن الإجابة الصحيحة . المدهش أن يكون هذا الزواج يحمل على الأقل نوعا من الاستلطاف من جانب ناديه، حامد النجار كان يرغب فيها كأى امرأة من نساء فراشه، لكنه وخارج كل مقاييسه، استيقظ ليجد نفسه يسبح في غرام لم يسمع عنه من قبل . حياته لا تحمل سوى الشهوة المجردة، المشاعر والأحاسيس كانت بعيدة عنه وتتأفر معه، كيف حدث الانزلاق في حب ناديه هو نفسه لا يعرف . الحقيقة الوحيدة التي يعلمها تماما، أن حبها هو الذي صهره في بوتقة، خرج منها تاركا كل شوائب جسده ونفسه، هذا الحب هو الذي أعاد له الحياة الإنسانية، وهو أيضا الذي جعله يبتعد عن طريقها، حينما علم أنها مخطوبة لسليم متمنيا لها السعادة من كل قلبه . اكتفى من هذا الحب بأنه طهره من معاصيه التي لا تعد ولا تحصى، حتى بعد حادثة مقتل سليم لم يحاول التقرب منها، حتى لا

تظن أنه يسعى خلفها . شخصيته الجديدة هي التي ولدت في أعماقها هذا الاستطاف تجاهه، وقد يكون للشيخ نديم دور، وقد يكون لرشاد أخيها ورمزي جانب . أما ما لا شك فيه، هو اعترافها بفضلها عندما ذهبت إليه ورجته أن يستخدم سلطته في عمل الخير، ويعيد أمها وأباها إلى جادة الصواب ليكفها عن فضائحهما وعبثهما، قام بدوره خير قيام، أغلقت المرأة العابثة والرجل الذي باع شرفه الباب عليهما خوفاً، ثم ندماً، ثم توبة . أما خالد فلقد نقله إلى مكان لا يستطيع أن يحيد فيه يسارا أو يمينا . لا أحد يعرف متى بالضبط تغيرت زاوية نظرها تجاهه ومالت نحو الرضا، وبالرغم من فارق السن الذي يعد كبيرا وخارج عن المألوف تم الزواج . استقال النجار من عمله تاركاً السلطة، وما جلبته عليه من أعمال أصبح هو نفسه ينفر منها عندما يتذكرها . قرر أن يشارك زوجته ناديم في الإنتاج السينمائي . كل من يسمع عن هذا الزواج تصيبه الدهشة، كلما رآهما الشيخ نديم يقهقه قائلا .. لأول مرة يزداد إيماني بالمثل القائل .. ما محبة إلا بعد عداوة .

الأعوام تعدو سريعا، والليلة الاحتفال بعيد ميلاد نرمين الثاني عشر، نرمين ابنة نادية وحامد النجار، لم يكن بينهما حبا متأججا على الأقل من جانب نادية، لكن يمكن أن نقول أن الحياة بينهما كانت تسير على وتيرة هادئة، يشغلها عمل مشترك في المجال السينمائي . الحق أن حامد النجار أبدا لم يفكر في العودة لسيرته القديمة، أحب نادية، لم يكن يدخر وسعا لإسعادها، نادية على ما يبدو أغلقت قلبها على حب سليم خطيبها . عاشت مع حبها البكر أحلى أيام عمرها لكن وائل صديق خالد أخيها، هام في حبها فتخلص منه بخسة ونذالة، كلف أحد أصحاب السوابق ليصدمه بسيارة وظن أنه سيفلت بجريمته . وأن الأتظار ستتجه إلى حامد النجار، لكن حامد النجار هو الذي قدمه للعدالة . قضى مدة عقوبته بالسجن، خرج ولا يزال قلبه ملتهبا بحب نادية، كادت روحه تتركه وتفر من جسده، عندما علم أن نادية أصبحت زوجة لحامد النجار . قتلته الدهشة والغيرة معا، فضلت حامد النجار عليه . أرادها لنفسه، رفضته، ودفعه جنون هيامه بها للتخلص من خطيبها سليم، لن يفقد الأمل حتى لو كانت متزوجة من حامد النجار ولديها طفلة منه، تزوجت من حامد النجار الذي يكبرها بأعوام عدة، تؤهله لأن يكون

أبائها وليس زوجاً . سنوات أمضاها في السجن بسبب حبها وخسر عمله كضابط، لولا ثراء والده الله يعلم ماذا كان سيصبح مصيره بعد خروجه من السجن، لن يضيع كل هذا حتى لو اضطر لقتل حامد النجار نفسه . وقف وائل يتلصص من خلف قضبان سور حديقة فيلا حامد النجار، يعض على نواجذه، يرى السعادة على وجه نادية وهي تحتضن ابنتها نيرمين وتقبلها بعد أن أطفأت شموع الكعكة الإثني عشر . الجميع مبتهجون عادل وزوجته ميرفت وعلاء وعلياً، والد ووالدة نادية ورشاد ورمزي صديقه، وخالد التائب عن الرذيلة الذي تغير كل شيء فيه حتى خطواته التي تحولت إلى خطوات وقورة . ما الذي حدث في هذه الفترة ولم شمل الجميع!، هل حدثت معجزة! حتى المعجزة تعجز عن لم شمل هذه المتناقضات، تحرك وائل وأظافر الشيطان تمزق داخله وتزيد نزيف الحقد، وفكرة للوصول لناديه بأي ثمن.

قرب الانتهاء من حفل عيد الميلاد والجميع في سعادة بالغة، وبصورة لا يتوقعها أحد هوت نيرمين فاقدة الوعي . طار الجميع نحوها، اعتلى الخوف وجه عادل بعد أن وضع يده على جبهتها وأحس بها كالجمر . علاصوته يطلب استدعاء عربة الإسعاف لنقلها للمستشفى سريعاً، شحوب الموت على وجه أمها نادية ويد حامد النجار تمسك بها حتى لا تهوي . حامد النجار أظهر تشبثه بالشجاعة بالرغم من القبضة الحديدية التي أحس بها تعصر قلبه .

كارثة بهذه الفداحة كافية لتمزيق كل أوردة الحياة بجسدها الرقيق، هبت الأعاصير من كل جهة تتقاذفها، اهتزت الأرض تحت قدميها ومادت فلم تعد قادرة على الوقوف، الجدران لم تسلم من دقات رأسها، ولولا المسكين بها لحطمتها وتحطمت رأسها معها . ما الذي يبقياها في الحياة وقد هوت كل مصابيحها وتهشمت تحت قدميها، ارتدت الحياة عباؤها السوداء والأمل معدوم تماما في استبدالها . احترقت كل الزهور ولن تستنشق سوى رائحة الموت . رحلت « نيرمين » وانهارت أمها ناديه وألقت بنفسها في جب الأحزان، مفاجأة اهتز لها الجميع، زهرة في الثانية عشرة من عمرها، ذابت في عدة أيام وكأنها شمعة من الشمعات التي كانت تزين كعكة عيد ميلادها . لماذا يختطف الموت هذا الملاك الصغير ؟ ترددت على أفواه الجميع يستغفرون ربهم بعد النطق بها، حامد النجار تحول في زمن قياسي لشبح رجل، هدته المصيبة تماما، لا عزاء ولا مواساة . ماذا تفعل عبارات العزاء والمواساة في القلوب المنصهرة فوق جحيم الفراق، تساءل وتساءل ولا مجيب . هل لم تقبل السماء توبته، فعاقبته بجهنم

الحمراء يتلظى بها، وهو لا يزال على قيد الحياة . كلما فاهت شفاته بتخاريف أمام الشيخ نديم، يهزه ويصيح به، استغفر ربك يا رجل . رزحت ناديه تحت أكوام من الأحزان، عجز أقرب الناس إلى قلبها أن يطفو بها للسطح، حياتها تحولت إلى ليل دائم، لا تخرج من غرفتها إلا للضرورة القصوى .

ظل حديث طبيب المستشفى التي كانت تعالج بها نيرمين عالقا كجمرة داخل رأس حامد النجار، كاد أن يذهب بعقله للجنون . على أثر تحليل دم ابنته لمعرفة ما بها، فاه الطبيب بكلمات ظنها الهذيان في بادئ الأمر . ابنته مصابة بمرض فقدان المناعة أو ما أسماه العلماء بالإيدز . مرض جديد كيف يصل لابنته وقد أخبره الطبيب أن معظم الإصابة به تأتي نتيجة للاتصال الجنسي، أو عمليات نقل الدم، ابنته لم تذهب إلى الطبيب أبدا، لو تنقل إليها أي دماء، أو حتى مجرد قلع ضرس . هوت الحقيقة على رأسه كصخور الجبل، صارحه الطبيب وهو ينتقى كلماته بعناية، بأنه في هذه الحالة لا بد وأنه يكون انتقل إليها عن طريقه هو و زوجته ونصحه بإجراء تحليل ولزوجته أيضاً .

لم يشك ولو للحظة واحدة في زوجته، متأكد من براءتها وطهارتها، أشارت كل أصابع الشك نحو نفسه، ماضيه مع النساء طويل وعريض، لا يستطيع حتى حصرهم . العاهرات التي كان يلتقي بهن في رحلاته، الجوكر ينتقيهم ويضعهن

فوق فراشه، هذا المرض لم يسمع به إلا حديثا وإلا كان احتاط له، من هي التي نقلت إليه ما قتل به ابنته ؟ . من المؤكد أن نادية نفسها انتقلت إليها العدوى . المسكينة لا تعلم سبب النكبة، كيف يصارحها وهي في هذه الحالة، استشار الشيخ نديم، أشار عليه بأن الأمانة تقتضي منه أن يصارحها، حتى تتمكن من عمل فحوصات الدم، من المؤكد أن العدوى انتقلت إليها وخاصة أن الأبحاث أثبتت أنه مرض مُعدي . حاول أن يتذكر من هي التي أعطته هذه الجرعة من الموت، كأنه يبحث عن إبرة في كومة قش، فجأة ومضت في ذهنه المرأة التي كانت تشبه قطعة الشيكولاته الداكنة التي قدمها إليه الجوكر وهو يضحك قائلا.. أنها من جزر التاهيتي، وأن سعرها يفوق سعر الأوروبيات كثيرا، لأنها تملك من الحرارة ما يذيب الثلوج، ويطرد الروماتيزم المستعصي . نعم هي الفاتلة، شعر بعدها بتوعك لمدة طويلة، عرض نفسه على الطبيب أشار عليه بعمل تحليل لدمه، لم يعر نصيحة الطبيب أي اهتمام، لم يعاوده مرة ثانية . هل ممكن أن يظل بهذا المرض طوال هذه المدة، من الجائز فالطبيب أخبره أنه يمكن لإنسان أن يسير بهذا المرض لفترة طويلة، وأيضا يمكن أن يحمل فيروساته دون أن يصاب به . يمكن أن ينقله لغيره من خلال علاقة جنسية، او نقل دم . يا لهول ما فعلت يا حامد يا نجار، قتلت إبنتك بيدك وليس من المستبعد أن تلحق بها حبيبك وزوجتك، من المؤكد أن المرض انتقل إليها

هي أيضا، كيف يقنعها بالذهاب لتجري تحليلا لدمها، هل يصارحها كما أخبره الشيخ نديم، بأي وجه وبأي عينين ينظر إليها؟! . غفرت له نزواته السابقة، لكن كيف سيتحمل نظراتها وهي ترى فيه الأب والزوج الفاسق القاتل؟!، لطفك يا الله بي، استحق كل ما يحدث، أنا لا استحق أن أعيش لحظة واحدة، لكن ناديه ما ذنبها . فقدت ابنتها التي كانت بمثابة الروح لها، ومن المؤكد أنها وقعت هي أيضا بين براثن هذا المرض المتوحش، لطفك يا الله.

محاولات مستميتة لا تنقطع من ميرفت وزوجها عادل لإخراج ناديه من عزلتها، الأحران كانت شديدة الوطأة عليها، صورة ابنتها لا تفارق خيالها، انطفأت ومضة الحياة في عينيها . نيرمين كانت بالنسبة لها الحياة نفسها، ضاع من داخلها كل شيء، حتى الحياة نفسها لم تعد تهمها، كم من المرات تحلم بأنها لحقت بابنتها وتقابلت معها، كانت في حلمها تشعر بسعادة طاغية . هذا الشعور كان ينقلب لحزن كالجبال عندما تستيقظ وتعلم أنه مجرد حلم، وأن عليها أن تعيش أيام عجفاء وفراق ينهش روحها كحيوان مفترس . حاول حامد النجار كثيراً أن يسري عنها، لكن فشله مرة تلو الأخرى أوقفه عن المحاولة، هو نفسه إجتمع داخله حزن يكوئ أضلعه وألم يقبض على قلبه بيد من حديد . تنهشه أفكاره، النكبة كلها هو صانعها، ضاعت ابنته وفي أي لحظة ستضيع منه حبيبته وزوجته ناديه، التي استطاعت أن تجذبه من جب الفساد وشهواته الحمقاء، أبدلت حامد النجار القديم بحامد النجار الجديد . كثيراً ما كان يقف أمام المرأة وينظر إلى وجهه ويصرخ .. ليت ناديه تستطيع أن تغير من ملامحك، كما

غيرت من داخلك وحولته من السواد إلى البياض، حتى لا أتذكر أي شيء عن حامد النجار، أنساه بكل حماقاته وشروره وموبقاته . عندما أفاض بخاطره في أحد المرات للشيخ نديم ضحك وقال له .. نادية غسلت قلبك وما دام قلبك أصبح نظيفا، تأكد أن كل ملامحك تغيرت مع قلبك أيضا . يبدو أن القدر لا يعرف التسامح معه، ادخر له طعنة نجلاء، أرسلها إليه في وقت لم يتوقع من الدنيا سوى صفائها، فجأة غامت وأرسلت دموعها تهطل بغزارة على كل حياته . فراق إبنته، فراق زوجته المتوقع بين لحظة وأخرى، بل فراق نفسه فهو مهدد بالموت أيضا فالمرض يكمن بداخله . أحس بعقله يخرج في يده، وأن جمجته أصبحت كعلبة فارغة، يقبض عليها ويصرخ صرخات مكتومة في غرفة مكتبه .. لماذا أيها القدر العنيد لم تصب لعناتك فوق رأسي لوحدي، ما ذنب هاتين البرينتين، لماذا لم تتفنن في عذابك لي شخصا وتبتعد عنهما، صدقتي كنت سأقبل العذاب بابتسامة راضية مهما بلغت قسوته . أنا أستحقه بجدارة، أما هما فليس أكثر من زهرتين، دمرت إحداهما والثانية في الطريق، إن لم يقض عليها المرض سيميتها الحزن على ابنتها، تذوى يوما بعد آخر، لا أحد يقدر على مد يد المساعدة، حتى ميرفت تقف مكبلة أمام هذا الحزن الهائل، الذي يلف صديقتها نادية ويطويها بداخله.

استيقظت ناديه في الصباح، صباح ككل صباح، لم تعد
تفرق بين الصباح أو المساء، تنهض من الفراش وتذهب
للاغتسال بالحمام، تعود لغرفتها وسجنها . منذ رحيل ابنتها
تصر على أن تمام وحيدة في الغرفة، حتى تطلق لعينها
العنان لتروي الوسادة . في ذلك الصباح كان هناك شيء
ما لا تدري كنهه، شعرت به كأنقباضة تضيق الخناق على
أنفاسها، لمحت شيء يشبه مظروف الخطاب، يبدو أن يداً
قذفت به من أسفل باب الغرفة . نهضت وأمسكت به، أحست
به كثقل كبير وهي ترفعه من فوق الأرض، فضت الغلاف
لتقرأ ما هو مسطور بداخله، الكلمات سحلت نظراتها :
حبيبتي .. ولو أنني لا أجرو على النطق بها أو حتى تدوينها،
بعد أن علمت أي جرم أجرمته في حقك وحق ابنتنا نرمين
. لا تندهشي يا ملاكي الطاهر، نعم أنا المجرم الذي قتلت
بيدي أعز ما أملك في الحياة، قتلت ابنتنا وانتظر نهايتك
أنتِ أيضاً، أنا الناكب والمنكوب في آن واحد . آن لي أن
أعلم أن لعنة ما ارتكبته تلاحقني وتنصب عليكما، تنصب
على حبيبة لم أكن أحلم حتى بأن أقبل قلامة ظفرها، وابنتي

التي كنت أتنفس الحياة من خلال أنفاسها . أن لي أن أعلم
بأنني حملت في جسدي الحقير الموت لأعز حبيبتين لي في
الحياة . من حقك أن تلعينني، أن تبصقي على كل أيامك معي،
أن تلقي بدنس العالم كله فوق رأسي . ماذا سيفيد هذا، لن
يفيد بشيء، لن يعيد ابنتنا للحياة، أو يعفيك أنت من الموت،
لو كان بيدي لطلبت من الله أن يميتني كل يوم ميتة أشر
مما قبلها ولا تُمس شعرة منكما، أسمعك كثيرا بأنني أفديك
بروحي، وها أنا أقف كالمشلول لا أستطيع أن أقدم لك العون،
كسيح، ولا حتى ككسيح، الكسيح يمكن أن يزحف، لكن حتى
الزحف استعصى عليّ . اختطف الموت ابنتنا وها هو شبحة
يدنو منك وقدماي ملتصقتان في الأرض، هل تعرفين لماذا
يا حبيبتني ؟، لأنني أنا القاتل والمقتول . نعم أعترف لك الآن
بهذا، لكنني أقسم لك بكل ما هو مقدس، بأنني كنت أجهل
تماما أنني أحمل في جسدي اللعنة لك ولابنتنا، لم أكن أعلم
أنني سأدخل إلى دمائكما هذا الفيروس القاتل . لو كنت أعلم
كنت شنقت نفسي آلاف المرات لأبتعد عن طريقك، نزواتي
ألحقت بي الدمار، حملت هذا الفيروس في إحدى نزواتي مع
امرأة غريبة، هذا الفيروس الذي لم يكتشف كنهه الطب إلا
منذ وقت قريب وأطلقوا عليه الإيدز، عشت به ونقلته إليك
ونقلتته أنت لابنتنا . لماذا لم يقض عليّ وحدي منذ البداية
وقبل أن أتزوجك لست أعلم ؟، هل هي سخرية القدر؟!، أم
عقاب السماء على ما اقترفته يداي ؟، ما ذنبكما أنتما ؟. هل

أطلب منك السماح والمغفرة !!، أنا أعلم أنني لا أستحقهما، لا أملك الآن إلا أن أقول لك وداعا يا من أحببتك أكثر من نفسي .

ألقت نادية بسطور الهلاك من يدها، تلونت الدنيا بصبغة حمراء أمام عينيها، لون الدماء، عقلها يأبى أن يصدق أن زوجها حامد النجار، هو من ابتلاها بكارثة ابنتها و كارثة نفسها التي كانت تجهلها . قفزت والطعنات تنهال عليها، طارت نحو غرفة مكتب زوجها، لا ترى أمامها شيئا، فقط تسمع صوت تبعثر أي شيء يعترض طريقها وهي تعدو كالمجنونة، ضغطت على مقبض الباب، حامد النجار يجلس أمام مكتبه وأنهار الألم تتدفق من عينيها، يده تقبض على مسدسه الموجه إلى رأسه، تحشرجت الكلمات وهي تنهاوى من بين شفتيه الزرقاويتين .. كنت أعلم أنك ستأتين، سامحيني . ضغطت إصبعه على الزناد، دوى صوت الطلق الناري، تبعثرت أجزاء من جمجمته، تناثرت الدماء على الحائط خلفه لترسم خيوط المأساة، هوت نادية على الأرض دون أن تنبس بكلمة واحدة، أتت الخادمة على صوت الطلق الناري، تعالت صرخاتها لتنعي لكل الجيران انتحار حامد النجار.

فتحت ناديه عينيها، كغمامة رأت وجوهاً كثيرة، أبيها وأُمها وأخوتها جميعاً، عادل وميرفت، رمزي صديق رشاد مصطحباً عروسه، كان لا يزال في شهر العسل، سارع إلى المستشفى بمجرد أن سمع الخبر من صديقه رشاد ليكون بجانبه كما كان دائماً. الجميع حولها، في أعينهم الحب والحنان لهذه المسكينة، لم تفق بعد من صدمة فراق ابنتها حتى ابتلت بنكبة انتحار زوجها، استعادت ناديه شريط الأمس الذي انتهى بالرصاصه التي ألهمت رأس زوجها، فقدت الوعي بعدها، لم تفق سوى في هذه اللحظة لتجد الجميع تختلط لهفتهم مع خوفهم. لم تعلم سر القوة التي غزتها فجأة، تيقظ عقلها وقررت أن تكتم سر مصيبتها عن الجميع، لا يجب أن يعلم أحد السبب في انتحار زوجها، لا يجب أيضاً أن يعلم أحد بأن داخلها علة لا علاج له، من يصاب بها تنظر إليه العيون نظرة الريبة والشك والخوف والذعر من العدوى، ستدعهم يظنون أن حامد النجار انتحر حزناً على مصيبتة في فلذة كبده، لا بد أن تكون قوية وتواجه العالم وهي تعلم أن نهايتها قريبة، لا بد أن تعيش الأيام الباقية لها في الحياة، في النهاية سترحل

عن الدنيا وتلحق بابنتها، يجب أن تترك الحزن وتتمتع بباقي أيامها . أفكار كخضم السيول تتلاحق داخل رأسها، لا تعلم كيف انقلبت رأسها والأفكار معا. منذ يوم واحد فقط كان حزنها ينادي الموت بأعلى صوته، بعد أن علمت الحقيقة وانتحار زوجها حامد النجار شعرت بأظافرها تنشب بالحياة . عجب هو الإنسان عجيبة هي الدنيا، الشعور بأن عقد حياتها على وشك الانفراط، أصابها بالخشية على حياته . الأفكار تمرح داخل رأسها والجميع يقفون صامتين وهم يظنون أنها تجتر الأحزان، عليهم أن يصمتوا احتراماً لهذا الحزن . كسرت ناديه الصمت وبصوت يموج بالقوة أصرت على أن تغادر المستشفى، حاول الأطباء أن يثنوها عن قرارها، رضخوا أمام إصرارها . انتحى كبير الأطباء بعادل لعلمه بأنه طبيب، حذره بأن الصدمة كانت قوية ويمكن أن تترك تأثيراً سيئاً عليها، يمكن أن تصاب بانهيار عصبي في أي وقت، قد تصبح غير مسئولة عن تصرفاتها . أشار عليه بأنه من الأفضل عرضها على طبيب نفسي . بالرغم من إلحاح أبيها وأمها أن تقيم معهما لفترة حتى تستعيد عافيتها، إلا أنها رفضت رفضاً باتاً، أدهشتهم بقولها أنها ستعود لعملها السينمائي فوراً، وهذا ما دعا عادل أن يقطب جبهته وهو ينظر إلى زوجته ميرفت، تيقن أن توقعات كبير الأطباء بدأت طريقها، وأن ناديه غير مضبوطة من الناحية النفسية .

دق الباب، عادت الخادمة لتخبر سيدتها بأن هناك من يدعى وائل جاء للتعزية، عادت نادية للجلوس أمام المرأة مرة أخرى، تعنتي بزيبتها وما يبرز الجمال الذي أهملته في الفترة السابقة، تحول فجائي وغريب، من القطب إلى القطب . من الركن الأقصى للأحزان، إلى عالم النسيان واللامبالاة، لم يمض على انتحار زوجها سوى أيام معدودة، نسيت الدماء التي أزعجت الحائط خلفه عندما انطلقت الرصاصة إلى رأسه، بل لم تفكر كثيرا في أنه سبب المصائب التي لحقت بها، بدءاً برحيل ابنتها وانتهاء بتوقعها لزيارة الموت لها في أي لحظة . هذا هو رأي الطب فيمن يصاب بهذا المرض اللعين، لا علاج له ولا نجاة منه . عندما ذكرت الخادمة اسم وائل أمامها، خطوط من الغضب الثقيل اعتلت جبهتها، تذكرت أنه السبب الأول والرئيسي في نكبتها، كان من المفروض أن تكون زوجة لسليم حبيبها، جنون هذا الوائل دفعه لقتله . غير مسار حياتها لتجد نفسها أخيراً سائرة في طريق الموت، أنها تعلم أن قدومه للعزاء ليس سوى ذريعة واهية ومكشوفة للتودد إليها، خاصة أنه لم يعترف أبداً بجريمتة بالرغم من

اعترافه كتابة أمام حامد النجار، برره بعد ذلك بأنه اعترف تحت ضغط الخوف من أساليب حامد النجار . هو الذي دبر حادث السيارة التي لقي سليم حتفه أسفل عجلاتها، حتى بعد أن حكم عليه بالسجن، ظل مصرا على أنه ليس له علاقة على الإطلاق بهذا الموضوع، سليم رحل وحامد النجار انتحر . لماذا لا يعاود الكرة فربما يصيبه النجاح هذه المرة !!، النساء يمتلكن قلوب عجيبة، قد يصبح عدو الأمس حبيب اليوم، لماذا لا ؟.. ألا يقولون ما محبة إلا بعد عداوة، ألم تتزوج بحامد النجار، العدو الذي كان يريد أن يمتطي شرفها ويسير به في الوحل . انقضت خطوط الغضب الثقيل من فوق جبهتها، حلت محلها خطوط باهتة لا لون لها، ونظرة لا أحد سواها يدرك ما تعني . زادت من أحمر الشفاه، وسواد الرموش لتعطي للعيون سحر أكبر، استرسل الشعر لينام في نعومة فوق الأكتاف، ينفخ في الهواء نفحات من عطر يسكر الزاهد . توقع أن يرى السواد يغطي الجسد الذي عشقه في الصحوة والنام، ومسحات الحزن تذبل الوجه الفاتن . يحسب حساب هذا اللقاء وخاصة هناك اتهام بقتل حبيبها السابق، طار عقله من رأسه، عشش فوق الشجرة التي أرخت بعض أغصانها داخل الشرفة، تسابقت عيناه للجحوظ وهو يرى أمامه نادية أشد لمعانا من نادية التي عرفها . كل شيء فيها وعليها أشد فتنة وأكثر جمالا . لو أن عقله لم يسبق وطار، لطار ثانية وذهب بعيدا وهو يرى ابتسامة بهتت أمامها زهور الحديقة،

لحظات وقف كالجماد، فاق بعدها لتمتد كفه لتحتضن كف
في نعومة المخمل . ضاعت كلمات العزاء وتسربت من بين
شفتيه همهمة لكلمات ضاعت حروفها، ازداد تغريد الابتسامة
على شفثتها وهي تشير له بالجلوس وزاد معها ارتبائه .
قطعت عليه طريق الحيرة بكلمات ودودة، إحساس تولد لديه
بأن غيوم السماء كلها انقشعت، وأن أمطار الحزن قد جفت،
لكن لغز ما يراه أمامه لم يجد له تفسيراً . لو استوقفه ملاك
في الطريق وهو قادم وحكى له عن هذا اللقاء، لاتهمه بأنه
أكذب من بني البشر . لم يتعب رأسه الخاوي من العقل في
التفكير كثيرا، فضل أن يتمتع بهذه الجلسة الفردوسية والتي
تخللتها أكواب العصير والحلوى . ودعته حتى الباب بكلمات
رقيقة راجية أن يكرر الزيارة، نفذ من الباب، بحث عن عقله
فوق أغصان الشجرة، لم يجده، طارت به العصافير . هز
كتفيه دون مبالاة، جعلت خطواته على الطريق ترقص رقصة
الفرس وهو يردد كلمات أغنية هابطة .. طار العقل وطار ..
ومالي يا خويا بالعقل .. دا الحب في قلبي ولع نار . أغلقت
ناديه الباب خلفه، نظرت في المرأة الكبيرة التي تزين الحائط
يمين المدخل، حاولت عيناها أن تقرأ ما بداخل عينيها، شيء
غريب بدا بداخلهما، لم تفهمه، تنظر إلى وجهها وكأنه غريبا
عنها، وجه لم تعرفه من قبل، لم تعد تعرف حتى نفسها .
دوامة تطوي فكرها وتغوص به للقاع لتخمد أنفاسه، إحساس
قوي بأنها لم تعد تملك من أمرها شيئا، يد تدفعها لطريق

آخر، ليس له علاقة بالطريق الذي اعتادت السير عليه، حتى حروف أسمها أصبحت غريبة عليها وكأنها لم تقرأها من قبل، حاولت أن تقرأها بطريقة عكسية، ضحكت وارتاحت لمجرد التفكير بأن أسمها تبدل وأن أسم ناديه ضاع ولم يعد له أثر . قفزت صورة وائل إلى جانب وجهها وهي لا تزال تنظر في المرأة . شابت عينيها حمرة داكنة، حمرة الغضب وشت بما في داخلها، هذا الوائل سبب كل المصائب يجب أن يموت، يجب أن يذهب لسليم ويعترف له بأنه هو الذي حرمه من رحيق شفيتها ودفء حضنها . نعم يجب أن تذهب إليه روحه لتعذر له عن إطارات السيارة التي حطمت عظامه، بالطبع إذا خرج وائل من الحياة ستفارق روحه النجسة جسده وتطير، لتتقابل مع روح سليم وتعذر لها، ثم يفترقان، تذهب روح هذا الوائل للجحيم، وتطير روح حبيبها سليم الطاهرة للخضرة والماء، هذا ما يجب أن يكون . فاقت ناديه من غيبوبتها أمام المرأة لتجد نفسها تردد بصوت كالصخر .. هذا ما يجب أن يكون .. هذا ما يجب أن يكون .

بدأت ناديه عملها في فيلم جديد، عادت بعد انتهاء التصوير في ذلك اليوم لتجد أخاها رشاد في انتظارها، رحبت ناديه به، سألته لماذا لم يحضر معه زوجته وابنه، حلق رشاد في عينيها، نظرت إلى قدميها، إحساس بأنها غير قادرة على مواجهة نظراته الحزينة . قال بنبرة غامضة :

— حضرت وحيدا لأن بيني وبينك حديث خاص .

ضحكت ناديه وقالت :

— هل تريد العودة لأيام زمان عندما كنا نعيش معا مع أحاديثنا الخاصة ؟

سرت تنهيدة من صدر رشاد وقال :

— ليت هذه الأيام تعود يا ناديه، حتى أرى أختي وحبيبتي ناديه الحقيقية .

أجابت ناديه وقد علت ضحكتها :

— وهل الآن أصبحت ناديه مزيفة .

أجاب وهو يضع يده على كتف أخته بحنان .

- لست أعلم يا نادية ما أصبحت عليه، لكنني متأكد بأنك تغيرت كثيرا .. هناك شيء ما بداخلك لست أعرفه .
وضعت يدها على يد أخيها وقالت :
- وماذا ترى في أختك يا أخي ؟
- لو كنت أعلم ما انتابنتي الحيرة يا أختي .
أمسكت بيده وسارت نحو الأريكة، جلست وأجلسته إلى جانبها وقالت :
- أنني أصبحت أخاف نفسي يا رشاد .. عندما أنظر في المرأة أتخيل أنني أنظر لإنسانة أخرى .
- من الطبيعي أن ينتابك هذا الإحساس، بعد ما مررت به من ظروف قاسية في الفترة الماضية.
- هذا ما يزيد من حيرتي يا رشاد، الظروف القاسية التي تقول عنها، لم يعد لها مكان في تفكيري، حتى ابنتي عندما أتذكرها، أشعر بأنني فقدت شيئا من ممتلكاتي ليس إلا، أشعر بأنني فقدت سيارتي مثلا أو أي شيء آخر، كأنها لم تكن بالنسبة لي أغلى شيء في الوجود .
بدأ بعض الخوف يتسرب لعيني رشاد وقال :
- وزوجك الذي انتحر حزناً على ابنتكما .
شردت نظراتها بعيدا وقالت بصوت سحيق :

— هل حامد النجار انتحر لهذا السبب ؟، صدقتي لا أتذكر،
عموما الشعور الذي تولد بداخلي بعد هذه الحادثة، هو
شعور بأنني لم أفقد شيئا ثميناً :

قفز الخوف من عيني رشاد وترنحت الكلمات بين شفتيه :

— ماذا أصابك يا نادية، عندما فقدت ابنتك، تخيلت وقتها
من فرط حزنك عليها بأنك سرعان ما ستلتحقين بها،
زوجك انتحر حزناً على ابنته أمام عينيك، والآن تتحدثين
عنهما كما لو كانا شيئاً عابراً في حياتك . لا أصدق أنني
أمام نادية المفرطة في الحساسية، ومنبع الحب والحنان .

مطت نادية شفتيها وقالت وكأن الأمر لا يعنيها :

— لقد سألتني يا رشاد وأجبته بصرامة عما يعمل بداخلي،
حديثي مع رشاد أخي وحببي يختلف عن حديثي مع أي
شخص آخر .

ربت رشاد على ركبته وقال :

— ما رأيك لو ذهبنا سوياً إلى طبيب نفسي ونعرض عليه حالتك .

نظرات من الغضب والعتاب في عينيها وقالت :

— هل تظن بأختك الجنون يا رشاد !؟

أمسك بوجهها بين كفيه وقال سريعاً :

— إطلاقاً يا نادية، فقط قد تكون الصدمات المتتالية أعبت
تفكيرك .

- لا عليك يا رشاد أنا بخير ولا أحتاج لأطباء .
- بريق من الأمل في عينيه وقال :
- ما رأيك في زيارة للشيخ نديم، أنت تعلمين أنه يكن لك معزة خاصة .
- قلت لك لا تقلق يا أخي العزيز، سأصبح بخير قريباً، وبالطبع عندما أجد لدى الوقت سأقوم بزيارة للشيخ نديم .
- أتمنى أن يحدث ما تقولينه يا نادية، القلق يعصف بداخلي عليك .
- ربتت على وجنته وقالت :
- صدقتي لا تقلق يا رشاد، ودعنا الآن نتناول بعض الطعام فأنني على وشك أن أهلك جوعاً.
- هز رشاد رأسه لكن الخوف والحيرة لم يفارقا عينيه .

الابتسامة أصبحت جزءاً لا ينفصل عن وجهه وائل، لقاءه مع ناديه فتح أمامه أبواب كان يظن أنها لا تفتح، أو على الأقل ستحتاج للمستحيل لمجرد مواربتها . الحفاوة التي استقبلته بها والابتسامة التي شيعته بها أضاعت أمامه كل مصابيح الأمل، فرشت الطريق إليها بألوان زاهية . الحيرة لا تلبث تناوش أفكاره، ما الذي أحدث هذا الانقلاب الهائل في شخصية ناديه، يقولون أن النساء متقلبات المزاج والهوى، لكن ناديه ليست من هذا الطراز. يعرفها منذ وقت طويل، أخفى مناوشات قلبه تجاهها خوفاً من شخصيتها القوية وجديتها، خوفاً من نظرات الاحتقار التي كانت تسكبها عيناها كلما وقعت عليه، هذه النظرات كانت أبلغ من آلاف الكلمات، تعلم إلى أي طريق حقيق تردت أقدامه وهو يسير خلف الجوكر وحامد النجار ساحبا أخيها خالد معه . لم يجرؤ أن يفتحها ولصق لسانه بسقف فمه، رفضته عندما فاتها خالد بشأنه، انتقم من حبيبها وخطيبها سليم . لم يطف برأسه لحظة واحدة الأمل في مجرد الحديث معها وهذا سر حيرته، هل تكون ما مرت به في الفترة الأخيرة من أحزان قلب كل

المعايير، لكن أين هذه الأحران، لم ير عليها أي أثر منها .
نفض رأسه ليترد الماضي كله وهو يتمتم .. لا تشغل رأسك
كثيرا، لقد دعتك لزيارتها ثانية، فتحت أمامك أبواب النعيم،
انعم بالحاضر وليسقط الماضي .

أمسك وائل بالهاتف ووجيب قلبه له صوت في أذنيه، دق
رقم هاتفها، سمع صوتها على الطرف الآخر هادئا:
— هالو .

— مساء الخير يا نجمتنا العظيمة .

— أعتقد أنك وائل .. أليس كذلك ؟

— شرف كبير لي أن تتعرفني على صوتي من خلال الهاتف .

— وأنا سعيدة بسماع صوتك .

— كلماتك هذه أحييت روحي المائتة، ودفعت ببعض الطمع
في داخلي .

— هل تطمع في بعض المال ؟ قالت ناديه ضاحكة .

— صدقت .. أطمع في بعض الإحسان.

— إذا فأنت ضللت الطريق، الإحسان يمكنك أن تجده على
باب المسجد .

— الإحسان الذي أطلبه، لا يوجد سوى على بابك أنت .

— وأنا لن أغلق الباب في وجهك .

- أعلم أنك محسنة كبيرة، يدفعك قلبك المصفى كالذهب، لكن إحسانك علىّ وتسامحك معي لهو أعجب من عجائب الدنيا السبع .
- لا تكثر في الإطراء، فنعومة المرأة حينما تريد، تفوق نعومة الحية الرقطاء.
- هذا بالنسبة للمرأة لكنه لا ينطبق عليك، لأنك روح ملاك طاهر في جسد تغار منه فينوس.
- لم تكن في حاجة لهذه المقدمة لكي تدعوني بعدها للعشاء. أليس هذا ما يراودك ؟
- ألجمت المفاجأة وائل وأجاب بصوت يبتلع بعضه :
- في الحقيقة صدق حدسك .. فأنا كلي أمل أن توليني هذا الشرف .
- وأنا ليس لدى ما يمنع أن أوليك هذا الشرف، ولكن بعدما تخبرني إلى أي مكان ستدعوني .
- ما عليك سوى أن تشيرني حتى ولو كان المكان فوق القمر، لا ليس القمر فلقد عرف طريقه البشر، فنقل المريخ .
- لا أحب ركوب مركبات الفضاء، ولا أفضل الأماكن العامة، فإذا كانت شقتك تصلح سأرحب بهذه الدعوة .

طارت تسعة أعشار عقله وتشبث بالباقي، الجنون هو أقرب شيء له الآن، ناديه هي التي تدفعه لكي تذهب إلى شقيقته، لماذا؟ أليس هذا برهان ودليل كشروق الشمس أنها تريده، خطت خطوة عملية واختصرت له طريق، كان يري فيه طريق الألف ميل الذي يجب أن يبدأ بخطوة واحدة، ما أروعك يا ناديه، الطريق قطع في خطوة واحدة.

استيقظ وائل والشمس تتوسط السماء، ليجد نفسه في خضم من الفوضى فوق الفراش وحوله، منضدة تناثرت فوقها الكؤوس بين واقف ونائم، زجاجة من الويسكي استلقت على جانبها وروت مساحة من أرض الغرفة بما تبقى بها من السائل الذهبي، أطباق لا تزال عامرة بطعامها . غاصت أصابعه في شعر رأسه بحركة تلقائية في محاولة لاستحضار ذاكرته، حلم ما كان فيه أم علم، لو كان حلماً فما حوله يكذب هذا، ولو كان علماً فأين نأديه، ما حدث حقيقة ولا جدال في ذلك، عطرها لا يزال يتمخضر بالغرفة، حضنها الدافئ لا زال يحس به بين ذراعيه، جنون الرغبة لا يزال يعبث بعقله . نعم كانت هنا، ذقت معها ليلة لا تحسب من ليالي الأرض، أنا مستيقظ تماماً وفي كامل قواي العقلية، لو شككت لحظة في رقادها بجانبني على هذا الفراش سأكون مجنوناً، هي التي رفضت فكرة العشاء في مكان عام، اقترحت أن يكون العشاء هنا، ظن أنها تبتعد عن الأماكن العامة لكونها فنانة مشهورة، وأنها ستذهب إليه في شفته لتتناول معه العشاء ثم تنصرف . ما حدث بعد العشاء كان فيه العبد المأمور، هي التي سحبت

من يده كفتى مراهق إلى الفراش، عشقها لم ولن يكون له
مثيل . غريبة حواء منذ أن خلقت ولآخر نسلها، كيف انقلب
البغض المتحجر إلى حب له رخاوة القشدة والعسل . لم تكن
تطبق النظر إلى وجهه حتى قبل حادثة سليم خطيبها، الآن
تعرف ومتيقنة من أنه هو السبب في موته لكنها لم تبخل
عليه وسقته كؤوس الحب مترعة . كان يظن أنه لا بد أن
يسير طريق الألف ميل حتى قبل أن يجروا ويفاتحها بهواه
ويطلب الزواج، في قفزة واحدة تعدى الألف ميل بمراحل، الأم
تحمل طفلها صابرة تسعة أشهر، حتى تسمع أول صرخة له
وهو يستقبل الحياة، وهي حملت له الحب وولدت في ساعات.
كان يعد نفسه لصبر كصبر أيوب، وفي ليلة رضى عنه
القدر، عفاه من أن يقرض حلقه بمرارة الصبر، عاد لأغنيته
الهابطة.. وآه يا ليل يا قمر، يا للي رفقت قلب الحجر، وآه يا
ليل يابتاع المواويل، زينت قلبي بحب الجميل، وآه، وآه، وآه .
من يرى وائل في هذه اللحظات وهو يقفز داخل الغرفة
يرقص ويغني يظن أن الخبل أصابه من جميع جوانبه .

لم يكن وائل يحلم، لكنها الحقيقة، نادية بشحمها ولحمها قضت الليلة كلها تذيقه الحب وتسكره به، كانت تفعل هذا برغبة صادقة، تدفعها قوة لا يدري من أين مصدرها، مزيد من القبلات لا بأس، والعودة للحب مرة واثنان، كل مرة تشعر بنشوة لم تسمع عنها من قبل . السعادة والنشوة ولدا بداخلها قوة دافقة ل تمنحه أكثر وأكثر، وفي النهاية استكانت الأنفاس . عيناها لم تغمضا مثل عينيها، ذهب في سبات عميق يحلق في سماء الأحلام، عيناها مفتوحتان عن آخرهما تحدقان في السقف، السقف لم يعد أبيض، انقلب للأحمر، لونه يتبدل سريعا، عاد للأبيض، أسود، هذه المرة أزرق، ثعابين بنية رقطاع تزحف فوقه، تتقاطع وتتقاطع، أصبح السقف كله تقاطعات لثعابين تفغر فاهها، أنيابها البيضاء تبدو على وشك أن تحقن سمها في الفراغ، مصيبة أن يقطر السم فتنسب قطراته نحو ركن فمها، لم تذق سم ثعبان من قبل، يقولون أنه لا يميت إلا إذا تسرب للدم، ليس من المستبعد أن ترتخي عضلات أحدها ويفقد السيطرة على وضعه المعلق في السقف، يهوي إلى الفراش وينشب أنيابه في لحمها . الانتظار

مجازفة، نهضت في عصبية، وقعت عيناها على وجه وائل
النائم في ابتسامة سعيدة، استغربته، كيف أتى هذا الوجه إلى
جانبها، جسدها العاري بدا في المرآة أمام عينيها، حجت
تدبيها بكفيها، إحساس بأنها تقف في الطريق عارية ومئات
من الرجال العراة يتقدمون نحوها، كادت الصرخة تشق ظلام
الليل، تماسكت وتخلت عن ثديها وأغلقت فمها بكفها، ومض
بعض البرق داخل عقلها المظلم كان كاف لأن يعطيها بعض
الضوء . تخلت عن فمها وثديها وببيدين مرتعشتين لملت
ثيابها، ألقتها فوق عريها وحجبت ما يجب أن يحجب . لم تدر
كيف زحفت قدماها داخل الحذاء، فتحت باب الشقة وتركته
مفتوحا وطارت، تعرفت على سيارتها أسفل العمارة، حاولت
أن تعثر على جسدها الضائع، ألقت به داخل السيارة، حملته
بالكاد إلى فيلتها . جاهدت حتى وصلت به إلى الفراش،
حملت في السقف الأبيض الخالي من الثعابين، استرخت
أنفاسها وأغمضت عينيها وسكن الجسد المرهق.

هبت نادية فزعة على صوت رنين الهاتف، دقائقه تشبه دقائق سيارة المطافئ، وضعت الوسادة فوق رأسها متجاهلة إلحاحه، لحوح لا يكل ولا يبدي رغبة في التوقف، أمسكت السماعاة متأففة، الصوت الذي انساب في حنان من الطرف الآخر بذر في داخلها بعض الارتياح .

— أسفة يا ميرفت لقد كدت أتجاهل رنين الهاتف فلم أكن أعلم أنك أنت .

— أسفة يا نادية على إزعاجك فلم أكن أعلم أن الكسل سيمتد بك إلى الرابعة بعد الظهر .

قالت نادية وهي تتثائب :

— حلمت بك وها حلمي تحقق بسرعة .

— لم أكن أعلم أن حلمك بي سيوقظك مفزوعة .

— كابوس مفزع يا ميرفت، حلمت بمخالب سوداء طويلة، حادة مدببة، تقترب من عنقي وأنا أصرخ منادية عليك، مخالب لم أسمع عنها ولا في أساطير القصص الخرافية، أحاول أن أعرف من أين تنبت ولا أستطيع، كلها عبارة

عن مخالِب فقط، بح صوتي . فجأة وجدت نفسي أمام منزلك، ظلمت أدق بابك بكلتا يداي، فتحت أنت الباب وتلقيتني في حضنك وأنا أصرخ بك أن تغلق الباب قبل أن تلاحقني المخالِب، أغلقت الباب سريعاً . فجأة وجدت أن المخالِب تنبت من يداي أنا، للأسف أطبقت على عنقك وأنت تقاومين وتنادين على زوجك عادل، أتى عادل سريعاً لينقذك تركت عنقك وخمشت وجهه، سال الدم منه. بعدها سقطت على الأرض وقد امتلأ جسدي بريش أسود اللون بدأ يتطاير، الجزء الذي يتطاير منه يضمحل حتى لم يتبقى مني سوى الرأس، أقامك عادل وبالرغم من آلامه كان يبتسم ويقول، كنت أعلم أنها هي التي ستموت، لكنك صرخت ترجينه أن ينقذني وأنت ترددين بأني مسكينة .

قهقهت ميرفت وهي تصيح :

— لم أكن أعلم أنك شريرة بهذا القدر، ولولا علمي بمدى محبتك لي لتحاشيتك منذ اليوم .

قالت نادية وهي لا تزال واقعة تحت تأثير حلمها :

— تمزحين ياميرفت وأنا كنت على وشك الاختناق أثناء نومي .

قالت ميرفت معاتبية :

— إنني سعيدة بهذا الكابوس، فما رأيته هو تعبير عن إهمالك السؤال عني .

— صدقيني يا ميرفت أنا محتاجة إليك للسؤال عني، لست أعلم ماذا أصابني، إنني أنظر في المرآة الآن فأشعر بالغربة عن وجهي، أحس كما لو كنت أصبحت إنسانة ثانية غير نادية التي تعرفينها، تنتابني نوبات من اليأس ثم تنقلب إلى لا مبالاة بكل شيء . أحيانا أفكر إنني على أبواب الجنون .

— لا يا حبيبتي، حذار أن تسترسل في هذه الأفكار، باب الحياة مفتوح على مصراعيه أمامك، لا تغلقه دونك، الإنسان القوي هو الذي يزداد صلابة بعد الأزمات، وأنا أعرف فيك القوة، وهذا هو وقتها .

— صدقيني يا ميرفت لم يعد هناك حتى بصيص من الأمل، ولا أرى في ضوء النهار سوى ظلام الليل البهيم .

— لا تقلقيني عليك يا نادية بهذا اليأس الأسود، وعموما لن أتركك تسترسلين في أفكارك التائهة هذه، سأحضر فوراً أنا وعادل ونصطحبك لطبيب نفسي حتى لو اضطررنا أن نحملك إليه حملاً .

— ستعلمين يوماً أن ما بي لا يشفيه أطباء العالم كله .

لم تكذ تعيد سماعة الهاتف عقب محادثتها مع ميرفت، حتى هب يدق ثانية، كادت ترفضه لكنها خشيت أن تكون مكالمة من مخرج الفيلم بخصوص العمل، بيد كسولة مرتخية رفعت السماعة، قبل أن تتحرك شفتيها انساب إلى أذنها صوت حاول أن يغلف نفسه برقة العشاق.

— مساء الخير على أجمل زهرة في الوجود.

— من المتحدث ؟ سألت نادية باستياء .

قال وائل متلمسا النعومة لكلماته :

— لا أعتقد أن بضعة ساعات تنسيك صوت من أطعمته

بيديك شهد الحنان، ورويته من من حب لا يوصف .

قالت نادية والغضب يزحف سريعا لصوتها :

— أليس من الأفضل أن تنطق باسمك قبل أن أعيد السماعة

لمكانها .

قال وائل وقد حلت الدهشة محل الرقة والنعومة :

— هل من المعقول أن تكوني نسيت حبيبك وائل وليلة الأمس
يا نسمة الخلود .

أجابت وغضب حقيقي يملكها .

— أي وائل وأي ليلة أمس أيها المجنون .

— كم كنت أتوق لخفة ظلك هذه، إنك تمزحين أليس كذلك ؟

قالت ناديه وصوتها يحتد ويعلو :

— ومن تكون حتى أمزح معك، أم نسيت أنك قاتل، أما إذا
كنت مشتاقاً للسجن فمن السهل أن تعود له ثانية .

— اسجنيني، اقتليني، اذبحيني بيدك، لكن لا تقولي أنني واهم،
وأن ليلة الأمس وهمساتك ما هي إلا وهم صورته لي الخيال،
في هذه الحالة يجب أن أقود قدمي لمستشفى الأمراض العقلية .

قالت ناديه محتدة جدا وهي تغلق الهاتف :

— أنصحك أن تخطو هذه الخطوة فوراً .

علت دقات الهاتف كالنحيب، أعادت السماعاة إلى أذنها،
في صوت ممزق مغسول بالدموع سمعت صوته :

— ناديه أرجوك لا تنتقمي مني، قد أكون أخطأت في حقك،
لكن أقسم لك لم يدفعني لهذا سوى حبك، لم يترك خلية
في جسدي لم يحتلها، أنا متأكد أن قلبك الرقيق لن يسمح
لنفسه أن يذبح قلبي وينثر دماغه فوق جثتي، ما كان بيننا
ليلة الأمس يؤكد لي أن ما بيننا حب كبير.

– أي حب أيها الأحق، أنا لم أر وجهك منذ سنوات، منذ أن
نشرت وحشيتك دماء سليم خطيبي على الطريق، وذبحت
بيدك القذرة قلبي، والآن أذكرك من ملاحظتي ثانية،
فأعتقد أن ماضيك سيسهل لك الطريق للسجن ثانية إذا
شكوتك للشرطة .

أعادت نأديه السماعه بعصبية، متأففة من هذا الوقح
القاتل الذي لم يكفه تحطيم حياتها فظهر ليلاحقها ثانية،
أغمضت عينيها وهي لم تزل مسترخية فوق الفراش، تفكر
وتتعجب لهذا الوائل وما يدعيه من ليلة الأمس . فتحت
عينيها وحدقت في السقف، تلون من الأبيض للأحمر ،أسود،
ازرق، عاد للأبيض، ثعابين بنية متقاطعة ترحف فوقه، أنيابها
البيضاء بارزة وكأنها ستتنفس سمها في الفضاء، ماذا لو
تسربت بعض قطراته لركن فمها، يقولون أن هذا السم لا
يقتل إلا إذا تسرب إلى الدم، وجه وائل يرقد بجانبها، عارية
كما ولدتها أمها، قفزت نأديه من فوق الفراش، هرولت نحو
المرأة . قرأت عينيها، بداخلها سطر واحد يقول، وائل لم يقل
سوى الحقيقة، ليلة الأمس كنت تسبحين في حضنه، أمسكت
رأسها بكنتي يديها، أحست بها مشجوجة أسفل أصابعها، لو
تركتها ستملأ الدماء الغرفة وستغرقها، ارتمت فوق الفراش
صارخة: أه يا إلهي لقد نقلت له هذا المرض القاتل، من
المؤكد أن فيروساته اللعينة تسبح الآن في دمائه، يستحق
الموت لكن لم أكن أتمنى أن يكون موته على يدي. نهضت

وكان شيئاً لم يكن وهي تتمتم، هذا هو قدره، ليس بيدي ما
أفعله من أجله، ذهبت إلى الحمام، غسلت وجهها، عادت إلى
المرآة تنظر مبتسمة إلى جمال موهوب وفي رأسها فكرة
لقضاء السهرة بالخارج .

الساھرون بفيلا الممثلة هاله سالم لا يصدقون أن النجمة ناديه أصبحت من أهل السهرات، المعروف عنها في الوسط الفني أنها لا تهوى ليالي أهل الفن وحكاياتهم . من المنزل للإستوديو ثم العودة كما كانوا يتندرون عليها . صفة مميزة لها حتى قبل الزواج والإنجاب، كان أخوها رشاد يقيم معها، وهو السائق الخاص، زاد من دهشتهم الظروف الأليمة التي ألمت بها، كيف تمكنت أن تطرح من رأسها كل هذه الأحداث المؤسفة التي تحني الظهر، وتصبح أحد العلامات المميزة في سهرات هاله سالم . كثيرون من الوسط الفني انضموا، بعد أن بلغت أذانهم أن ناديه أصبحت شخصية لها بريقها في عالم اللهو والمرح، وأنها تبلغ أوج قمتها بعد الكأس الثاني، قيل أنها تمتع الجميع برقصاتها بعد أن تتخلى عن حذاءها وترقص حافية القدمين . كان أول من رحب أن يكون عضوا في هذه السهرات هو المخرج راضي القمصنجي، الذائب في هوى ناديه منذ فترة طويلة، اقترب وصدته، ثم حاول وصدته، ابتعد وهو يلعن قلبه ويلعن جفائها. لم ييأس وعرض عليها أن تكون بطلة لأحد الأفلام التي يخرجها، حتى تكون هناك

فرصة للالتحام فقد تلين، أدركت لعبته واعتذرت عن الفيلم، ظل يصارع هواها بكل ما يملك من دهاء الذئاب، لكنه كان يمني بالهزيمة دائما. تطرقت لأذنه الأخبار بأن ناديه أصبحت من أبرز الأعضاء في صالون هاله سالم، شد الرحال إلى هناك، يحذوه أمل أن تكون ناديه بشخصيتها الجديدة التي أصبحت حديث الوسط الفني تحمل قلبا غضا يسهل عليه اختراقه. لم يتوقع منها هذا الوجه الباش لاستقباله، سهلت له بضعة كؤوس قذفها إلى حلقه من بدء الحديث معها، لم يصدق أحد من الساهرين أن الراكع أمام نادية يلثم ظهر يدها هو القمصنجي، الذي تسبقه غطرسته دائما. لم يبال بهم عندما تشابكت أيديهم وظلوا يدورون حولهما وهم يصيحون .. الثعلب فات فات .. وفي ديله سبع لفات. لم ينهض على قدميه، إلا بعد أن امتدت يد ناديه الثانية تداعب شعر رأسه، أحس ببعض الارتياح فهذا بدء الرضى. انسحب سريعا نحو البار، أتى بكأسين وجلسا سويا على أريكة منفردة، أطلقت الخمر لسانه كما أطلقت ضحكات ناديه مجلجلة، انقضى بعض الوقت وهما في واد بعيد عن كل ما حولهما، لم يشعر بهما أحد وهما ينسلان معا خارج الفيلا.

ترددت عيناها بين الانفتاح والانغلاق، بين الاستيقاظ والغفوة ثانية، شيئا ما أيقظهما للحظات، حدثت في السقف الأبيض، تحول للأحمر، أسود، أزرق، عاد للأبيض، ثعابين بنية تزحف عليه وتتقاطع، أنيابها تبدو كما لو كانت ستنفث

سمها في الفضاء، ماذا لو بضع قطرات هوت على ركن
فمها، لكنهم يقولون أن السم لا يمت إلا إذا سرى في الدماء
. ما الذي أتى بوجه راضى القمصنجي بجانبها؟!، ما الذي
أتى بها هي إلى هذا المكان؟!، قفزت على قدميها، جسدها
العاري في المرأة أمامها والناس ينهشونه، حجبت ثدييها
بكفيها، صرخة وشيكة أن تقلق الليل، تخلت عن ثديها لتغلق
فمها قبل أن تهرب الصرخة منه . ألقت سريعا فوق جسدها
المبعثر من ثيابها لتحجب عريها، ألقت بجسدها داخل سيارتها
التي وجدتها بحديقة الفيلا، تتساعل عن سبب وجودها في
هذا المكان، حالة من الشك الشديد أن ما تحمله ليس هو
جسدها، وأن هذا الجسد لا يمت لها بصلة، اندفعت بالسيارة
في الطريق، كل شيء يبدو كالحلم، ألقت بجسدها على
الفراش وهي تتمتم دون وعي، غدا أبحث عن جسدي، هذا
الجسد الغريب لا يمت لي بصلة .

دق جرس الهاتف، أمسكت بالسماعة وهي نصف مغمضة،
صوت على الطرف الآخر لم تميزه :

- صباح الخير يا نادية هانم .
- صباح الخير .. من المتحدث .. أجابت وصوتها يغلب عليه
النعاس .
- أنا المخرج راضي القمصنجي يا نادية هانم .
- أستاذ راضي لقد سبق واعتذرت لك عن قبولي الفيلم فلا
داعي للإلحاح.
- فهقه المخرج راضي بصوت أحست به يثقب أذنها وازداد
علوا وهو يقول مستظرفا :
- خفة الظل معروفة عنك يا حبيبتي لكن لم أكن أعلم أن
روعة الأتشي يمكن أن تجتمع مع خفة الظل .
- قالت نادية بلهجة غاضبة :

— أعتقد أن العلاقة بيننا لم تصل لحد رفع الكلفة يا أستاذ راضي .

ارتفعت القهقهة بصورة اشمازت لها ناديه وقال :

— حبيبتي خفة ظلك هذه تضيف روعة جديدة إلى ما ذقته من روعة بين أحضانك ليلة الأمس، لكم شعرت بوليد فقد حنان أمه عندما استيقظت ولم أجذك بجانبني .

قالت وقد علا صوت غضبها .

— أستاذ راضي إن لم تتوقف عن هذا المزاح السخيف، والذي ينقصه الأدب سأضطر أسفة لإنهاء الحديث .

بدأ القلق يغزو صوت راضي وهو يقول :

— هل هناك شيء خطأ يا ناديه في حديثي، كنت أظن ما حدث بيننا أمس قد أزال حد الكلفة بيننا ؟

أجابت ناديه بصوت منقسم بين الجد والغضب :

— بالطبع هناك شيء خطأ، ويبدو أنك في حاجة إلى مصحة عقلية .

قال راضي ورنة أمل في صوته أن يكون الموقف كله مزاح من ناديه .

— أنني يا عزيزتي لم أفقد عقلي، لكن حديثك هذا هو الذي قد يذهب بي لأن أفقده، فما أحدثك به حقيقة وليس

مزاح، كل شيء في الغرفة يتنفس رائحة عطرك الذي لم يسكرني شيء في حياتي مثله .

تأكد المخرج راضي أن ناديه لا تمزح عندما أغلقت الخط بغلظة وهي تردد بلهجة عنيفة .

— أحذرك من العودة إلى مثل هذا الهراء، بل أحذرك من الاتصال بي نهائيا .

ظل المخرج راضي واجما للحظات، نهض وهو يردد .. لم أكن أظنك بهذه القسوة يا ناديه، تذيقيني العسل وعلى حين غرة تدفعين بالعقم إلى حلقي .

وضعت ناديه يدها على جبهتها، شعرت بشيء غريب يعدو داخل رأسها، بعد الحديث الذي دار بينها وبين المخرج راضي، صعدت عيناها إلى سقف الغرفة، أبيض، أحمر، أسود، أزرق، أبيض، ثعابين بنية اللون تتقاطع فوق السقف، أنيابها البيضاء بارزة، وجه المخرج راضي، قفزت قفزة الذي يحاول أن ينجو من حريق يطارده، ويوشك أن يمسك بطرف ثيابه، تطلعت إلى المرأة، قرأت في عينيها قصة الأمس، المخرج راضي يركع أمامها، يدها تعبت في شعره، رأت في وجهه كل الرجال، رجال تقلبت أمها في أحضانهم، أبوها ووجهه المهزوم وهو يسمع غنج أمها وهي في حضن رجل آخر، شرفه الذي سلبه بيده وألقاه طائعا لتسحقه الأذى . وائل الذي قتل سليم ودفن فرحتها، حامد النجار يحاول أن

ينهش شرفها، حامد النجار الذي قتل ابنتها وأهداها الموت
وقتل نفسه، تجمعت الوجوه المخطئة كلها في وجه المخرج
راضي، جلست بجانبه، رحبت بالذهاب معه إلى فيلته لتقضي
ليلة فاجرة . لم يخطر ببالها أبدا أنها ستتحدر إلى هذه
البشاعة، لم يهمها بشاعة انحدارها قدر بشاعة حكم الموت
على المخرج راضي بنقل المرض اللعين إلى جسده .

الصدقة الحميمة بين ناديه وميرفت وزوجها عادل، لم تشفع لأن تبوح لهما بسرهما القاتل، بعد ليلة المخرج راضي القمصنجي أحست ناديه بالاثقال تكبل ضميرها، أسيرة داخل نفس شريرة، تدفع بالموت الغادر دون أن تقول خذ حذرك كطعنة في الظهر . لا تعطي للمجني عليه حق الدفاع عن نفسه، المصيبة أنه موت شديد التفرع، هي تهديه للضحية التي تلهث خلف أحضانها، والضحية الغافلة عن هديتها القاتلة تهديها بدورها إلى من يلقيها حظها العاثر فوق فراشها، زوجة أو صديقة أو حتى عاهرة . الأخيرة أشدها فتكا حيث تنتقل من فراش لفراش بسرعة لا يحكمها قانون أو ضوابط، في كل انتقاله توزع بكرم شديد ما تحمله داخل جسدها من بذور الموت . ناديه تعلم تمام العلم أن راضي القمصنجي زير نساء، مغامراته لا تتوقف، كريم جدا، رفض الزواج ليفسح فراشه دائما ليستضيف من تقع في حباله، وهذا هو ما عكر فكر ناديه ودفعها لأن تذهب لزيارة ميرفت وعادل، باحت لهما بأنها متعبة، تشك في أعصابها، بأنها تحس في نفسها شيئا غريبا يدفعها دائما لأن تكون شخصية ثانية غير ناديه، لكن

أبدا لم تبح لهما بسرهما القاتل أو مغامرتها مع وائل وراضي القمصنجي .

استكان زعر ناديه قليلا وميرفت تحتضنها، تبث في أذنها كلمات مطمئنة أنها بخير، عادل أقنعها بأنه لا بد لها من زيارة طبيب نفسي، اقتنعت ناديه على أن يتم هذا في سرية تامة حتى لا تتناقله الصحف ويؤثر على وضعها كفنانة . اختار لها عادل أحد الأطباء، أصر أن يصطحبها إليه في الزيارة الأولى، أخبرها عادل أن هذا الطبيب ليس صديقه لكن له شهرته في الوسط الطبي، شعرت ناديه باطمئنان لا تعرف مصدره وهي جالسة في السيارة بجانب عادل، دقت النظر في وجهه الطفولي الملامح، أحست بأن صديقتها ميرفت لم تخطيء في حبها الشديد لزوجها عادل . لم تدر لماذا ذكرها وجه عادل بسليم حبيبها وخطيبها، شعرت بدقات قلبها تتسارع عندما تذكرت سليم وقصة حبها التي وطأها وائل بقدميه، إحساس انتابها بأنها انتقمت لسليم من قاتله، لم يهمها أمر ما أصاب وائل على يديها، لكن خشيت على تعيسة الحظ التي سيسوقها قدرها إلى فراشه بأي صورة سواء كانت زوجة أو صديقة، ظهرت على وجهها شبكة من الحزن رآها عادل في المرأة وهو يقود السيارة، نظر إليها بوجه طفل وقال :

- صدقيني كل شيء سيكون بخير، أرجوك أن تبترسمي وتعودي كما تعودنا أن نرى وجهك إشراقاً الحياة.
- اختلطت ابتسامتها مع بقايا من حزن وقالت وهي تنظر إليه:
- هل تظن ذلك سيحدث يا عادل .
- بالطبع سيحدث بإذن الله .. قال عادل مؤكداً وهو لا يعلم مأساتها .
- الله أعلم .. قالتها ناديه مع تنهيدة حارة .

تكررت زيارتها للطبيب النفسي، الدكتور ذهبي العناني، رجته أن يحافظ على سرية زيارتها، من باب الحرص خصوص لها موعداً متأخراً، بعد أن يكون آخر مريض قد غادر العيادة . في كل مرة تستلقي فوق الأريكة، تغمض عينيها، تتحدث عن أي شيء وكل شيء، تحدثت عن طفولتها التي قضتها بعيداً عن أمها وأبيها، مشغولان عنها وأخوتها، في رحلة اصطيد المال ليرتفعاً لطبقة أبعد ما تكون عن ماضيها . تحدثت عن الوسط الفني وشباك الغراميات التي تنصب من حولها وكيف تمكنت من تمزيقها . عن حامد النجار والجوكر وحتى أخيها خالد وقد تضافر الجميع لإيقاعها في حزن حامد النجار . أيامها الحلوة وحب سليم، غدر وائل ومقتل سليم، توبة حامد النجار وزواجها منه، مصيبتها في ابنتها وانتحار زوجها، تحدثت وتحدثت لكن عقلها ظل واعياً لكل كلمة تتفوه بها . أخفت مرضها الذي أورثه لها حامد النجار، لم تشر إلى ليلة قضتها بين ذراعي وائل، تجاهلت ليلة قضتها مع المخرج راضي القمصنجي . سجل جهاز التسجيل حديثها، لم يع

منه الدكتور ذهدي أي كلمة معتمدا على سماعها فيما بعد، غارقا في أفكاره بعيداً عما تسرده ناديه، هي تتحدث وعيناه تتفحصان جسدها المسترخي فوق الأريكة . خيالاته تبحر أسفل فستانها، رآها في أحد أفلامها وهي في لباس البحر . قال عقله أنه قوام منحوت على يد فنان ماهر، تقسيماته تحكي عن جسد أنثى حقيقي لم تلمسه يد التزييف، وهي خارجة من الماء، انحسرت القطعة العلوية قليلا فكشفت عن مقدمة تعد بالكثير. فجأة رفعت ناديه غطاء عينيها، رأت في عينيه ما تفهمه النساء جيدا، لملت أطراف ثوبها واعتدلت جالسة . عاد الدكتور ذهدي من واديه السحيق وابتسم وكأنه يعتذر عن أفكاره . لم تبد ناديه اهتماما لكنها أيقنت أن الدكتور ذهدي كان يلعبها بعينه . الدكتور ذهدي طبيب نفسي مشهور لكنه للأسف يحتاج هو نفسه لطبيب نفسي كي يعالجه . نشأ الدكتور ذهدي وحيدا، أبت أمه أن تنجب غيره للمحافظة على قوام بنت الباشوات، قبل أن تمتد يد الزمن لتنتهي هذه الطبقة، لكنها ظلت وريثة لكل صفاتها، تعضدها ثروة في حجم الفيل . أبوه من عائلة متوسطة لكنه متعلم ومثقف ويشغل وظيفة حكومية بارزة، هذا المنصب كان يتضاعف أمام سطوة زوجته، جميلة وثرية أنفها مرتفع لأعلى يكاد ينفذ من السقف . حينما كان ذهدي صغيرا، لم يكن فهم بعد سر الغرفة المغلقة على آدم وحواء، أحس بضعف أبيه أمام أمه، يراه دائما وهو يتسول منها شيئا، تصر أن تنام في غرفة بمفردها، كم من المرات رأى أباه يقف على بابها كسائل الصدقة. في إحدى

المرات تناهى إلى سماعه صوت أبيه يستعطفها، لكي تسمح
له بمقاسمتها الفراش حتى الصباح. الاستعطف ضاع مع
رفضها القاطع وهي تأمره بلهجة حازمة :

— اذهب يا عناني إلى غرفتك، يجب أن تكون ممتناً بإنهائي
عقابك وسمحت لك بهذا الوقت .

قال أبوه في ملحق للاستعطف :

— أرجوك اتركيني طالت فترة العقاب هذه المرة ولدي رغبة
شديدة في أن أبقى بجانبك حتى الصباح .

— قلت لك يا عناني أذهب الآن فأني متعبة وقد أسمح لك
غداً أو بعد غد.

أجاب بصوت ذليل .

— وقد لا يحدث لفترة طويلة إذا أنزلت بي عقاباً ثانياً .

— هذا يعود إليك، حاول ألا تغضبني حتى تنال مرادك .

— ربنا يستر .. قالها الرجل وكأنه يفوض أمره لله .

إختبأ زهدي سريعاً وتلصص على خروج أبيه مطروداً
من الغرفة، يسير منكسراً نحو غرفته، رأى فيه صورة من
المتسول الذي يقف على باب مدرسته، يعطف عليه ويتقاسم
معه مصروفه. منذ ذلك اليوم شعر بأنه يحب أباه جداً ويشفق
عليه أكثر، ابتدأت نظراته تتلون نحو أمه وهو يحس بأنها
السبب في تعاسة أبيه، لم يكن يعلم سر هذه التعاسة . مرت
الأيام وخطأ زهدي أعتاب المراهقة، ساقته الفطرة وما يسمعه

من زملائه في المدرسة، إلى معرفة الرابطة التي تجمع بين حواء وآدم منذ بدء الخليقة، انكشف أمامه سر تسول أبيه . الأب يستعطف والأم ترمي له بكسرة الخبز أو تحرمه منها، وجبة الفراش تتحكم فيها الأم لتجبره على طاعتها . لي ذراع شهواته حتى يظل طوع بناتها، نوع آخر من النساء، اتفقت تماما مع فجر زوجة جاد الكومي في طريقة استخدام الفراش كوسيلة لإرضاخ الزوج، واختلفت معها تمام الاختلاف في المحافظة على كرامتها وعدم عرض شرفها في سوق الرجال . ازداد تعاطفه مع أبيه وشيئا من التمرد على الأم تعجبت له . كُشف كل شيء أمامه، محاولات الأب التي كان معظمها ينتهي بالفشل، ومناورات الأم التي لا تهدأ أبدا . اجتاحتها مرارة الرجولة المجروحة، أصبح ينظر للنساء على أنهن متعجرفات بما يملكن أسفل ثيابهن . كان يتألم لأبيه الذي يحبه وهو يختلس النظرات إليه ويرى انكساره أمام زوجته . تعلم ذهدي أن يعيش وقتا طويلا طائرا مع الخيال، يقف وتحت قدميه أنثى تتدلل لكي يشبع رغبتها، يرفض باباء، تتلج صدره دموعها المنهمرة فوق حذائه، يركلها بقدمه فتقلب على ظهرها، يطير رداؤها حاجبا وجهها وكاشفا ما بين فخذيهما، يقضي وطره ثم يتركها والرداء لا يزال يحجب وجهها .

ذات ليلة نهض ذهدي بعد منتصف الليل ليستذكر دروسه، كان باب حجرة الخادمة مفتوحا، مر من أمامه، المنظر الذي يحلم به دائما في خياله، الخادمة ذات الخامسة عشر ربيعا راقدة على ظهرها، فستانها انزلق ويكاد يغطي وجهها كاشفا

ما بين فخذيهما، شعر بقوة دافعة تدفعه لداخل الغرفة وإغلاق بابها، لم تبد الخادمة مقاومة تذكر، نهض وهو يشعر بسعادة غريبة، شعور قائد انتصر في معركة حربية يملأ داخله. نظر إلى الهزيمة في وجه الخادمة المحتجب أسفل رداءها على أنها الوسام الذي يستحقه لفوزه في المعركة. تركها دون كلمة، يردد في داخله، انتصرت لك يا أبي من جنس حواء. تكررت انتصاراته وهزيمة الخادمة، استهوته لعبة الانتقام من حواء، يرقد وينهض دون أن يبادلها كلمة واحدة، يزيد إحساسه باللذة شعوره بأن الخادمة تتقبل الهزيمة وهي راضية. ذات ليلة وفي غمرة انفعاله سمع صرير الباب وهو يفتح، نظر للخلف سريعا، كيف قفز على قدميه لا يدري. لم يسمع سوى صرخات الخادمة، صفعات أمه انهالت على وجهها، ولم يرحمه منها سوى تمكنه من الإفلات نحو غرفته وإغلاق الباب خلفه. بعدها لم يسمع شيئا عن الخادمة المسلوبة الشرف، لم يحاول أن يسأل. ما بين انكسار أبيه أمام باب غرفة نوم زوجته، وهزيمة الخادمة أمامه وصرخاتها يوم أن ضبطتهما أمه، وضعفه أمام نظراتها الفولاذية، لم يجروا حتى عن سؤالها عن مصير الخادمة المسكينة. ترسبت في نفسه ظلال قاتمة بالنسبة للنساء، وما يحدث خلف أبواب غرف النوم المغلقة، هذه الظلال ظلت رفيقته حتى هذه اللحظة، تاركة علامة قاتمة في نفسه تحتاج لطبيب نفسي، لكنه لم يجروا.

في الجلسة التالية لها بعيادة الدكتور زهدي، تحركت عقارب الساعة نحو منتصف الليل، وهي لاتزال مسترخية فوق الأريكة. الدكتور زهدي يصر على أنها تخفي شيئا من الحقيقة وهي مصرة على الإنكار. أمام مجابهة الدكتور زهدي لها أنها مريضة بانفصام الشخصية نتيجة لصدمة عصبية قاسية، تركت في نفسها ميول عدوانية نحو الرجال وحب الانتقام منهم، اضطرت أن تعترف له بليلة وائل، وليلة راضي القمصنجي، وكيف انزلت لاحضانهما دون وعي منها، لتستيقظ بعدها على كابوس السقف الأزرق، الأحمر، وتقاطعات الثعابين البنية. روت كل شيء ولكنها أخفت سر المصيبة، مصمة ألا تشي بمرضها حتى لا تدخل دائرة الوحدة بقدميها، لو تسرب الخبر ستنبذ وتصبح كالتاعون يفر من أمامها الجميع. أمرها بالتوقف لتكمل من بعد أن أحس بلامحها المجهدة، لاحت ابتسامة فوق شفثيه بعد استماعه لقصة وائل وراضي. خبرته الطبية أخبرته أنها على وشك الدخول في حالة الانفصام. تحركت داخله أيضا كوامن مرضه النفسي، السالب والموجب أصبحا قاب قوسين

أو أدنى من بعضهما، امتدت يده نحو ركبتهما وهي لازالت في رقدتها المسترخية، تحركت لأعلى ساحبة معها ذيل الفستان، لم يبدر منها أدنى رفض لمسكه . ملامح وجهها تقول أنها لن تمنع إذا تلامست الأسلاك، استمرت يده في الصعود ساحبة معها ذيل الفستان، توقفت يده بعد أن حجب الفستان وجهها . تراءت في ذاكرته الخادمة ووجهها المهزوم، تلامس السلكان وأفرغ كل منهما شحنة مرضه في الآخر، كانت أكرم منه فزادته شحنة مرضها القاتل . دأب الدكتور ذهدي على محاولة الإيقاع بعملياته، مدفوعا بمرضه الذي تحكم في خط سيره الطبيعي فغير اتجاهه رافضا الزواج متأثرا بانهزام أبيه أمام أمه وصفعات أمه والمصير المجهول للخادمة المسلوبة الشرف. رفض الزواج وكيف أموره ليثأر لأبيه من بنات حواء، عيادته وسكنه شقتان متجاورتان يفتح بينهما باب . فريسته دائما من مرضاه، يستقبلها بعد انتهاء العمل بالعيادة وانصراف العاملين، بحجة أنه يريد أن يخصص لها وقتا أطول، ثم يبدأ في لعبته إلى أن يرتفع طرف فستانها ليحجب وجهها . في هذه الليلة ظن أنه بلغ القمة بهزيمته لناديه ولم يعلم أنه تلقى شر هزيمة، هزيمة الحياة أمام الموت.

هرولت ناديه إلى المستشفى عقب حديثها الهاتفي مع عادل، ميرفت صديقتها العزيزة، ترقد هناك، محبة صادقة جمعت بينهما، رأت فيها ناديه الأخت الحميمة التي حرمت منها، أمها أنجبتها وحيدة وسط ثلاثة من الذكور، كم تمنّت لو كانت لها أخت تجمعهما أسراراً مشتركة. شعرت ببعض العزاء في صداقتها لميرفت التي تجدها دائماً بجانبها. حين أخبرها عادل بإغماء ناديه ونقلها للمستشفى، دارت بها الدنيا وطوقها الانزعاج، ارتدت ثيابها على عجل، طوت سيارتها الطريق إلى هناك. أحاطت علاء وعلياً بذراعيها ودمعة في عين كل منهما تحكي عن لوعة وخوف ينهشان قلوبهما الصغيرين. ميرفت بالنسبة لهما ليست الأم التي أنجبتهما، لكنّها الملاك الذي يظلّ عليهما بجناحيه ويحميهما في طريق الحياة الذي لا يخلو من العقبات. رأت عادل يخرج من حجرة ميرفت وهو يحاول أن يخفي رعشة الخوف التي تهزه عن طفليه. امتدت يد ناديه إليه تصافحه دون أن تنبس بكلمة،

ما نقلته كفها إلى كفه يفوق كثيرا ما كان يمكن أن ينطق به اللسان من عبارات التشجيع، إحساس داخلي اقتحمها بأنها تود أن تأخذه بين ذراعيها وتريح رأسه المتعب فوق صدرها. انتحت به جانبا بعيدا عن طفليه، نطق قلبه بمصيبته، ميرفت في غيبوبة وهناك اشتباه في ورم بالمشخ و هذا ما ستكشفه نتيجة الأشعة، انهمرت دموع ناديه بالرغم من محاولتها المستميتة لتبدو صلبة، حتى لا تزيد من مخاوف علاء وعليها . أصابت العدوى عادل واندفعت قطرات من عينيه واشية بنيران قلبه . أصرت ناديه أن تدخل غرفة صديقته ميرفت، أطلقت لدموعها الحرية لتروي أرض الغرفة، وهي ترى صديقته الحبيبة ترقد بلا حراك كجسد الموت . بالأمس فقط كانت تعارك الحياة وتتحداهما، قبلت جبهتها وخرجت وهي تحاول أن توقف نزيف عينيهما . رجت عادل أن يذهب ليستريح وتظل هي بجانبها، ابتسم عادل ابتسامة باكية قائلا .. لا يستطيع الإنسان أن يتحرك من مكانه وقلبه يرقد في غيبوبة . سألته أن يترك الأولاد في رعايتها حتى تعود ميرفت بالسلامة لمنزلها، ربت على ذراعها شاكرا وهو يقول .. بأنه لم يكن يتردد في تلبية رغبتهما لو لم تكن جدتهما ألحت عليه في إرسالهما إليها. وأن جدتهما ليس لديها ما يشغلها . غادرت ناديه المستشفى وهي تشعر ببلادة هذه الحياة، بكت من أجل ميرفت وهي تعلم أن الموت يتربص بها هي أيضا، بذره حامد النجار داخل جسدها في ليلة حب، لم تكن تعلم أنها ستلد

طفلة تحتضن الموت وإلا كان من الأرحم أن تتخلص منها وهي لا زالت جنينا صغيرا داخل أحشائها . تعجبت لأحوال الدنيا، أمها التي سقطت في الرذيلة لأذنيها تابت وأصبحت لا تفوتها صلاة، وهي التي حاربت بشراسة لتقي نفسها شر السقوط، حاصرتها النيران دون ذنب أو جريرة، ودفعتها دفعا للرذيلة، قد تكون سقطتها مع وائل وراضي دون إرادتها، وقد تكون أول سقطة مع الدكتور زهدي دون إرادتها، لكن الثانية والثالثة وما بعدها فلا .

لم تدر نأديه بالضبط إن كانت أول مرة جمعها الفراش مع الدكتور ذهبي كانت في وعيها، أم كان عقلها تسرب للحالة المرضية التي تعاني منها . تتذكر عندما امتدت يده لتسحب ذيل فستانها، تتذكرها جيدا، لكنها كانت تشعر كما لو كانت مخدرة، كانت تعلم جيدا أنه في الطريق لإطلاق رغبته المسجونة داخله منذ أول مرة وقعت عيناه عليها . كلما كانت ترقد مسترخية على الأريكة لتحديثه عن ماضيها، كانت تلمح هذه الرغبة تعربد داخل حدقتيه. في الليلة التي كتب فيها على نفسه الموت، لم تستطع دفعه بعيدا عن جسدها، بالرغم من تأكدها بأن هذه القفزة فيها الندامة بالنسبة له. أحست كما لو كانت مشلولة، لم تستطع أن تفتح فمها لتعترف له بمرضها القاتل، حتى الآن تتشكك إن كان هذا تم دون وعي منها. تركته ينهل السم وهو يظن أنه شراب الورد، ضميرها يئن ويزعجها، تحاول أن تغلق فمه بحجة حالتها المرضية التي تسوقها لهذه الأفعال وهي غائبة عن الوعي، صُغِبَ إغلاق فمه وهي تتذكر كل شيء وكيف كان يتعامل مع جسدها كجائع يأكل آخر زاده . ضببطت نظراته المنتصرة

وهو يحدق في وجهها وهي في كامل استسلامها . نعم أنها تعي لهذه اللحظات، كانت مختلفة تماما عما قبلها مع وائل وراضي، انتهى من غزوته المنتصرة وانتصب واقفا دون أن يقبلها . ينظر إليها نظرة غريبة وكأنه طرزان وقد انتهى لفوره من ترويض لبوة هائجة . لم تدر أنه كان ينتقم لمذلة أبيه أمام جبروت الأنثى، أحست وقتها بشيء من الخجل . اكتفت بأن تدع عينيها تحدقان في السقف الأبيض ولم تهتم حتى بستر أدق تفاصيل جسدها . نعم الواقعة مضبوطة بدليل أن السقف ظل أبيض، لم يتغير للون الأزرق أو الأحمر، لم تظهر تقاطعات الثعابين البنية . عادت يومها وعقلها يقلب كل الأفكار، لماذا تركته يقترب من الخط الأحمر دون أن تحذره، هل الشلل الذي أصاب إرادتها كان من توابع مرضها النفسي، أم لأنها لا تريد أن تفشي سر مرضها القاتل، كان يمكنها أن تبعده بقوة عنها تحت عنوان الشرف والفضيلة . كان سيبتعد عنها خوفا من الفضيحة لو حاول بالقوة واستنجدت . لماذا تركته يتورط مع مرضها وهي راقدة كالدمية . هل صاح بداخلها نداء الأنثى وصعب عليها أن تخدمه فلبت النداء . قد يكون داخلها المنكسر، وشعورها بأنها عليها أن تحرم هذا الجسد من لذته في حضن زوج حتى يوم فراقها للحياة، هو الذي أيقظ أنوثتها بعنف فلم تستطع مقاومتها . هزت نادية رأسها بشدة وكأنها تريد أن تلقي بعقلها خارج نافذة السيارة لتصبح فارغة ولا تستطيع أن تحاسبها أو تبكتها .

اعتادت الرقدة المسترخية على الأريكة، تنتهي الجلسة بيده التي تسحب ذيل الفستان لأعلى ليشن الحرب على الأثني وينتصر لأبيه . تكررت الجلسات وأصبحت متأكدة بأن غزوات الدكتور ذهدي تتم وهي في كامل وعيها وتمام موافقتها . أكرست ضميرها عندما حاول أن يصيح في وجهها ذات مرة، متذرة بأن المرض بالتأكيد انتقل إليه منذ أول مرة اقترب منها، دائما تحاول أن تؤكد لعقلها أن المرة الأولى تمت وهي واقعة تحت حالتها المرضية . أما المرات التي تلت ذلك فهي كتحصيل حاصل بالنسبة له فالمرض لن يزيد أو يقل، يقولون أن الشاة لا تهتم لسلخها بعد ذبحها . الدكتور ذهدي ذبح من أول مرة والمرات التالية بمثابة السلخ، لماذا لا تشبع رغبتها قبل أن تفارق الحياة، لماذا تموت وهي مقهورة حتى في أنوثتها المتدفقة، قد يكون ما تفعله الآن معه هو الثواب بعينه، هو غير متزوج وكُتب عليه الموت بعد أول مرة تلاقى جسداهما معا .

لم تنقطع عن زيارة ميرفت في المستشفى، تجلس معها لتخفف عنها هذا الكابوس، الذي اقتحم سعادتها دون إنذار . فافتت ميرفت من غيبوبتها، المصيبة في هذا الورم الذي أظهرته الأشعة داخل المخ، عادل أوشك أن يفقد خطواته بعد أن أطلع على صورة الأشعة . لوثة تصيب عقله عندما تهاجمه أفكار الفراق عن حبيبة قلبه وعينييه وكل خلية في جسده . هل يمكن أن يكون هناك شيء قاس أسمه الموت يفرقه عن جنية بحور الشعر . تتكاثر عليه الأحزان، يحاول أن يهرب منها بنظرة إلى السماء . نادية تبذل أقصى ما في وسعها لتضيء بعض الشيء هذا الظلام الذي يلفه، تحاول ألا تقصر يوما عن زيارتهما، إذا اضطرتها الظروف لعدم الذهاب، تسارع للهاتف للاستفسار عن صحة صديقتها العزيزة، تتحدث مع عادل في أي موضوع لتوقف دوران عقله حتى ولو لعدة دقائق . مجموعة الأطباء عفتحوا ثغرة من الأمل أمام وجهه، أخبروه أن جميع المؤشرات تدل على أنه ورم حميد ولا داع للتدخل الجراحي في الوقت الحالي، على أن تظل بالمستشفى تحت علاج مكثف لمدة ثلاث أسابيع يقررون بعدها أن كان

هناك داع للجراحة . الأمل كبير أن يضمم الورم خلال هذه الفترة، لأول مرة تلمح ناديه انفراجة لشفتيه بعض الشيء منذ دخول ميرفت المستشفى، انتهزتها فرصة لدعوته للعشاء في مطعم قريب من المستشفى، حتى تخرجه من قوقعة الحزن الذي يعيش فيه، كان لهذه الدعوة أثرها بالفعل . الدنيا أحيانا تلد إنسانا غريبا، لكنها لم تلد مطلقا من كان في غربة ناديه، استطاعت بحكاياتها وضحكاتهما وهي جالسة معه في المطعم، أن تقتطع هذا الوقت من دائرة همومه بمرض زوجته . تحكي وتضحك وكأنها تحمل داخلها كل سعادة الدنيا وتهب منها لمن تشاء . لو لم يكن عادل قريبا منها ويعلم كل ما تعرضت له في الفترة السابقة، لظنها إنسانة خالية تماما من المشاكل، وأن الأحزان تخشى أن تقترب منها . احتار عادل في محاولتها المستميتة للتسرية عنه وقدر لها هذا . لو كان يعلم بمصيبتها الكبرى التي تتلاشى أمامها كل مصائبها الأخرى لحط عليه الجنون، لو علم أنها متأكدة بأنها سائرة في طريق الموت، لترك كل حزنه على مرض زوجته وبذل أقصى ما في وسعه ليرفه عنها . كانت هذه المصيبة خبيثة نفسها لا يعلم بها إلا الله وحده، لم تحاول حتى الذهاب إلى طبيب، كل ما نشر عن هذا المرض يؤكد أن لا علاج له، موت ابنتها به يؤكد أنها هي مصابة به أيضا . الطبيب الذي كان يعالج ابنتهما، كان يحمل قدرا لا بأس به من اللامبالاة، لا يحب الخوض في المشاكل، لم يعر الموضوع أي اهتمام وتناساه .

ساعتان وهما يتجاذبان الحديث في المطعم، لم يشعر عادل بالوقت الذي تبخر سريعا، أصرت نادية أن تعود معه للمستشفى لتطمئن على ميرفت، وتسألها أن كانت في حاجة لأي شيء لتجلبه معها في الغد، ربت ميرفت على يدها وهي تشكرها لأنها استطاعت أن تخرج عادل من عزلته لبعض الوقت، ابتسمت نادية وقبلتها وهي تقول لها .. أنها لا تفعل سوى واجب الأخت نحو أخيها.

خطواتها اعتادت الطريق لعيادة الدكتور ذهدي، استسلمت للأريكة وما بعدها، يعذبها شعور بالحب نحو الدكتور ذهدي بدأ يدب في قلبها، تعلم أنه حب مقضي عليه بالإعدام شنقاً، لا أمل بين الإثنين مكتوب عليهما الموت، هي تعلم وهو لا يعلم، هذا ما كان يقلق مضجعها . ترى في عينيه الحب ومتأكدة أنه سيفاتها يوماً في الزواج، سترفض لأنها يجب أن ترفض، سيلج في معرفة السبب، سيحاول أن يجلو هذا اللغز، فليس هناك سبب معقول، يدعها ترفض أن تخرج بعلاقتها معه للنور . هذه العلاقة التي تقاربت فتراتهما وأصبحت شبه يومية . في آخر مرة ذهبت إليه استرخت على الأريكة كالمعتاد، أمسك بيدها وأنهضها، استرخى هو على الأريكة، أغمض عينيه، قال لها من فضلك أجلسي فوق مقعدي ودعي جهاز التسجيل يعمل فأنت طبيبتي اليوم . قهقهت وهي تظنه يمزح، ملامح وجهه ظلت مستكينة وهادئة وهو يرجوها أن تنفذ ما طلبه منها، جلست على المقعد وهي لا تزال تظن أن الأمر سينتهي بمزحة، بدأت الكلمات تتسرب بطينة من بين شفثيه :

قد تندهشي لمطلبي هذا، لكنك ستندهشين أكثر إذا قلت لك أنت بالفعل طبييتي، التي شفتني من مرض عشش بداخل نفسي منذ فترة المراهقة، جئت لكي أعالجك وحتى الآن لم أضع إصبعي على موطن الداء، وأنا طبيب متخصص في الأمراض النفسية ولي شهرتي . بينما أنت استطعت في هذه الفترة أن تضعي إصبعك على موطن الداء بي وتشفيني، قد يكون هذا تم مصادفة، لكني أحيانا كنت أشعر ونحن على الفراش سويا كما لو كنت طبيبة وتعالجينني . من حقك أن أشكرك على صنيعك هذا، لكن دعيني أولاً أشرح لك ما كنت أعانيه . ازداد توتر شفتيه وهو يسرد لها قصة أبيه المهزوم أمام أمه الأثنى المتجبرة بما تملكه، ووجبات الحب التي كان أبوه يتسولها، استخدامها الفراش في سياسة الثواب والعقاب لتطوع أباه كما تريد، ما تركه هذا من أثر في نفسه هو، أمنيته التي ملأت كل فراغ رأسه بأن يسحق بنات حواء بالكامل، كيف ابتداء في تنفيذ هذه الأمنية مع الخادمة المسكينة والتي لم ينس نظرة الانهزام في عينيها بعد كل مرة يضاجعها . مصيرها المجهول له بعد أن اكتشفت أمه علاقته بها . عرف طريق المومسات بعد أن فلتت الخادمة من بين يديه، كان يدفع لهن من أجل إذلالهم بأفعاله الشاذة معهن . كيف ارتقى بعد ذلك وتوصل لفتيات الأسر يعيث بأجسادهن فسادا ثم يلقيهن بكل نذالة . رفض الزواج واستغل عيادته في الإيقاع بكل من يستطيع الإيقاع بهن، السعادة البالغة

عندما كان يرى نظرة الانهزام في أعينهن . تنهد وهو يحرك رأسه يسارا ويمينا وعيناه مغمضتان، وكأنه يعلن عن أسفه وهو يخبرها بسعادته في أول مرة جمعهما فراش واحد . شعوره بأنه امتطى النساء جميعا، ولما لافهي نجمة مشهورة ويعرفها الجميع ويتمنون نظرة منها، وها هو يمتطيها كأني أنثى أخرى، لا تفترق عن الخادمة التي امتطاها في بدء مراهقته . فتح عينيه لأول مرة منذ استرخائه واستدار لتواجه عيناه عينها وأكمل .. نعم يا ناديه شعور بالانتصار أسكرني عندما نهضت ونظرت إلى جسدك العاري ونظرة الخضوع في عينيك . استمرت الانتصارات في المرات التالية، لكن فجأة أحسست بأنني أنا المهزوم وأنت المنتصرة . مهزوم بمرضي وأنت منتصرة بأسلوبك الفريد كأني . فجأة أصبحت أشعر بأنني طفل يعبت وبأنك تتمهلين على زجري كنوع من العلاج . أحسست في داخلي بأنك عالمة بعلة نفسي وبأنك تحاولين علاجي، وها أنا أعترف بهذه العلة أمامك، وهذا يعني في الطب النفسي بأنني شفيت منها . أعتدل في جلسته وأمسك بيدها يقبلها وهو يقول .. وما يؤكد شفائي هو رغبتني الملحة والتي لا تفارقتني أبدا في أن تكوني زوجة لي .

كانت ناديه متأكدة من أنه سيفاتها يوما في أمر زواجه منها، وبالرغم من هذا لم تكن مستعدة بالإجابة، من المستحيل أن تقبل، كان يجب عليها أن تعد له سببا مقنعا لرفضها، في هذه اللحظة كانت رأسها خالية من أي سبب مقنع . حاولت

أن تتهرب من الإجابة، فتح لها منفذ الهروب عندما قال لها بأنه يعلم أن هناك شيئاً مجهولاً في حياتها لا يعلمه حتى الآن، وهو ما دعاها لأن تحضر للعلاج . وأنها لا بد أن تعترف له بكل خفايا الماضي كما اعترف لها هو حتى تستطيع الشفاء من علتها، وقتها ستجد أن عرضه للزواج هو الطريق السليم الذي سيمضيان فيه طوال حياتهما معا . هزت رأسها موافقة على رأيه لتكسب فرصة للتفكير، نهضت لتجلس فوق ركبتيه وتقول باغراء .. ألا ترى أننا أطلنا الحديث اليوم، قبلها ودخلا في غيبوبة لذيدة، ليس بها مهزوم أو منتصر. فجأة اعتدل جالسا وهو يسعل سعالا شديدا ويمسك برأسه، قفزت مرتاعة وهي تحرق فيه، تصيح دون وعي، ماذا بك .. ماذا بك .. نسي ألمه وحاول أن يهدىء جزعها وهي تبدو وكأنها على وشك الموت . أخبرها بأن هذه الحالة تكررت أكثر من مرة في الأيام السابقة، أغضت عينيها بكفيها وهي تهذي بكلام غير مفهوم . فجأة قفزت من فوق الفراش، ارتدت ثيابها بسرعة فائقة وهو لا يتمالك دهشته، أخذت حقيبتها وفرت سريعا من أمامه وهو يناديها، وصلت إلى منزلها وهي تتلمس الطريق لسيارتها، ألقت بنفسها فوق الفراش وهي تنتحب بداية هلاك الرجل .

أسبوعان والدكتور ذهدي يحاول أن يراها، تنهرب منه دائماً، تحاول أن تبتعد عن طريقه بالرغم من حب بدأ يتسرب لقلبها نحوه، لا تخشى مرضه لأنها واقعة تحت نفس المرض وهى التي أهدته إليه . لكنها تخشى أن تنهار أمامه إذا هاجمه السعال والدوار مرة ثانية وتقرأ الموت في عينيه. لا تعلم كثيراً عن أعراض هذا المرض، لكن تعلم أنه يفقد مناعة الجسم قوتها، وأن أي لفحة هواء يمكن أن تقضي على المصاب به، متيقنة أن سعال الدكتور ذهدي أول بوادره، قرأت أنه يمكن للمصاب به أن يعيش فترة قد تمتد لسنوات، لكن يبدو أنه متعجل النهاية مع الدكتور ذهدي . حتى لو تحملت وطأة هذا اللقاء فكيف ستهرب منه لو ألح عليها بالزواج وقد اعترفت له بحبها . دق جرس الهاتف، تغلبت على ترددها ورفعت السماعة، جاءها صوته وكأنه صوت آت من القبر .

قال ذهدي بصوت باهت :

— لماذا تهربين مني يا طبييتي وشافية نفسي .. وأول وآخر من أحببت .

أجابت ناديه متلعثمة

- أنني لا أتهرب ولكنني كنت مشغولة في العمل.
- هل أزعتك رغبتني للزواج منك ؟
- أبدا .. أبدا وأن كنت لم أأخذ قرارا بعد لكنك لم تزعجني بطلبك هذا على الإطلاق، بل سررت به لأنه دليل لا ينقصه التأكيد على حبك لي .
- لو تعلمين مقدار حبي لك، ما كنت تركتيني طوال هذه الفترة أبحث عنك وأنا كالتائه الذي ضل طريقه، الآن ستحضرين مرغمة، يدفعك فضول النساء وغيرتهن، فلقد خطبت غيرك .
- خطبت غيري ؟ قالت ناديه وموجة من الدهشة والخوف تلطماتها .
- نعم خطبت الموت، وأنا على وشك أن أزف إليه، أنا راقد في المستشفى أعد نفسي لهذا اليوم .
- أمطرت الدنيا ظلاما أمام عينيها، خرجت الكلمات حادة كالرماح من فمها .
- مستشفى، أي مستشفى ؟
- مستشفى الحميات، يكذبون علىّ بأمل مشروخ، يظنون أنني أصدقهم، لا يعلمون أنني أرى الموت وهو يزحف نحوي .

ألقت سماعة الهاتف، تبعثر عقلها ولم تستطع جمعه،
نهبت الطريق إلى المستشفى، كان آخر ما تلفظ به وهو
يمسك بيدها :

- استطعت أن تشفيني مرة، فهل تستطيعين شفائي من هذه
العلة، ماتت شفتاه فوق ظهر يدها . لم تنتظر، هربت إلى
الطريق وهي تتمم بطريقة هستيرية .
- هل تطلب من قاتلتك الشفاء؟ .. أنا قاتلتك .. أنا قاتلتك .

يومان لم تر شمس الله، تغفل عيناها وتقفز على شبحه،
جالسة فوق الفراش وعلى جانبيها وسادتان، لا تريد أن تفرد
جسدها، أصبحت تخشى النوم . شفتاه الباردتان لاصقتان فوق
ظهر يدها، تحاول أن تقتنع نفسها بأن لقاء الفراش الأول معه
تم وهي غير واعية لنفسها، بين أن تصدق نفسها وتكذبها
حرب لا هوادة فيها . أحبته وكانت تعلم أن الزواج محال
بينهما، فهي لا تضمن الظروف وقد تنجب منه فيولد والموت
معه، تريده كما هو دون زواج . أنيس لها في غربتها مع
الحياة، تنتظر نهايتها وهي لا تعلم تحت أي رقم سُجل أسمها
في كشف الراحلين، لم تعلم أن رقمه سبق رقمها . رحل
وهو لا يعلم أنها هي التي سجلت إسمه في كشف الراحلين
بيدها، سحقت الأفكار رأسها، استجارت بالكؤوس تحتسيها،
دارت رأسها وهي تشكر للخمر صنيعها . زحفت لأسفل وألقت
برأسها على الوسادة ما بين اليقظة والغفوة، استكانت لنعاس
كانت في أشد الحاجة إليه.

دار العقرب الصغير للساعة على الأقل خمسة عشر دورة قبل أن تستيقظ نأديه، تذكرت رحيل الدكتور زهدي وكأنه مر عليه أعوام، تمت بصوت خافت رحمه الله . نهضت وهي تشعر بنشاط يدب في جسدها، اغتسلت وتناولت طعامها، أمام المرأة ابتسمت لروعة عينيها وهي تظل غطاءهما بلون قريب منهما، تذكرت موعدها بالإستوديو لتصوير فيلمها الجديد، قررت أن تعرج على المستشفى لزيارة ميرفت بعد الانتهاء من التصوير .

استقبلتها ميرفت بنظرة عتاب لانقطاع زيارتها لأكثر من يومين، همست لها بأنها كانت على وشك أن تهااتفها بالمنزل لأنها تحتاج إليها لأمر هام، قبلتها ناديه معتذرة لانشغالها عنها مبدية استعدادها لتلبية كل ما تطلبه .

نظرت ميرفت إليها ووجهها ينطق بالرجاء وقالت :

— عادل ..

قفزت ناديه وعيناها تدوران في الغرفة تبحثان عن عادل والكلمات تتساقط من فمها :

— عادل .. خير .. ماذا حدث له .. أين هو ؟

ظهرت بعض الدهشة على وجه ميرفت لجزعها الملفت وقالت سريعا :

— إهدأي يا ناديه عادل بخير .. كل ما في الأمر إنني قلقة عليه، والاصفرار باد على وجهه، يصر أن يجلس بجانبى كل ليلة، ولا ينام سوى قليلا، ما أرجوه منك أن تصرى على اصطحابه معك حتى يذهب لمنزلنا ويأخذ قسطا من الراحة .

قالت ناديه وهي تقبلها :

- إذا دعيني أنال شرف مرافقتك هذه الليلة .
- ولا أنت يا ناديه، فأنا أعلم أنك مرهقة فأنت طوال اليوم بالأسوديو، ثانيا لأنني أريد أن تصطحبي عادل في سيارتك لأنني لا أريده أن يقود السيارة وهو مرهق.

قالت ناديه مازحة :

- شرف كبير أن أكون سائقة للدكتور عادل يا فندم، ولكن أين هو ؟ .

- ذهب يستطلع نتيجة الأشعة التي أجريت لي اليوم .

حضر عادل إلى الغرفة ولاحظت ناديه ارتبأكه واصفرار وجهه الشديد، عيناه زائغان برغم محاولته الابتسام ليخفي قلقه، قال وهو يتكلف المزاح مرحبا بناديه:

- هل رأيت قدومك دائما يجلب معه الخير، نتيجة الأشعة رائعة، والأطباء أقروا بأن هناك تقدما ملموسا مع العلاج .

بدا الارتياح على وجه ميرفت، لكن ناديه فطنت أن عادل لا يقول الحقيقة، أصرت أن تصطحبه معها كـ رغبة ميرفت بالرغم من رفضه الشديد، أمام رجاء ميرفت وإصرار ناديه رضح وسار خلفها كطفل مطيع . توقفت سيارتها أمام فيلا عادل، رجاها أن تصعد معه لأنه يشعر بضيق في صدره، رحبت ناديه . ألقـت ناديه بجسدها المتعب فوق المقعد، اليوم كان

يوما طويلا بالنسبة للعمل بالإستوديو، لاحظ عادل إرهاقها،
قال بلهجة متأسفة :

— أسف لو كنت ألححت عليك في الصعود معي وأنتِ
مرهقة، دعيني أكفر عن ذنبي بأن أقدم لك شيئا يعيد لك
نشاطك .

ضحكت نادية وقالت :

— لا أعتقد أن لديك المشروب الذي يعيد لي نشاطي، لأنني
أعلم أنك لا تحتسي الويسكي .

قال عادل وهو يأتي بزجاجة من الويسكي الجيد وبعض الثلج :
— لكنني أحتفظ ببعض منه، وقد لا يخلو الأمر من كأس أو
اثنتين في بعض المناسبات .

انزاح إرهاقها، طردت ملامحه وعيناه حزنهما بعد أن أتت
الكأس الثانية بمفعولها، جلست قبالتها وسألته أن يخبرها
بالحقيقة التي واراها عن ميرفت في المستشفى، الحقيقة التي
أظهرتها الأشعة، وضع يديه فوق رأسه كمن يفيق من حلم.
لمعت الدموع في عينيه، لعنت نفسها على نكأها لجرحه،
سارعت بصب كأسين من الويسكي وقدمت أحدهما له، دفعها
إلى حلقه كمدمن شراب، لم تستطع عيناه الاحتفاظ بمائهما،
تسرب فوق وجنتيه، أحست بالنيران تكوي قلبها . انفرجت
شفثاه عن الحقيقة بأن علاج الفترة السابقة لم يأت بأي
تقدم، وبأن الجراحة الغير مضمونة العواقب باتت محتمة،

انتقل كل ألم قلبه لقلبها . دون أن تدري وقفت أمامه واحتوت رأسه بين كفيها، أسندتها إلى وسادتي صدرها تضمه إليها بقوة، أحاطت ذراعاه بخصرها، انطفأت كل المصابيح بما فيهما مصابيح عقليهما، لم يعد شيء مضيء سوى وجهه في عينيها ووجهها في عينية . كؤوس الويسكي ألقت بكل العالم أسفل أقدامهما، تشبث كل منهما بالآخر، ضياع كل منهما تجسد في اللحظات التالية، قبل أن تغيب عن وعيها تماما، سمعته وهو يهذي مناديا زوجته بصوت ذبيح .. لا تتركيني يا ميرفت .. أرجوك لا تتركيني وحدي في هذا العالم القاسي، أنتِ تعلمين كم أحبك .. إن كنت تنوين الرحيل اسمحي أن أرحل معك .. تلاشى كل شيء حولها .

السقف الأبيض المتقلب الألوان من الأبيض للأزرق للأسود للأحمر يعلوها، ثعابينه البنية المتقاطعة تنظر إليها بشراسة، أبعدت عينيها بسرعة لكنها وقعت على ضرب من المستحيل، وجه عادل يغط في نومه بملامحه التي لا تفرق عن ملامح الملائكة، لسعتها نيران الفراش فقفزت كالمجنونة، وخزات كالحراب في كل جسدها، من هؤلاء الذين ينهشون بنظراتهم كل ما كشفه الجسد العاري، سابقت الريح نحو منزلها، لاذت بحضن الفراش في غيبوبة كغيبوبة الموت .

استيقظت على رنين الهاتف، صوت عادل المتعثر كطفل في أولى خطواته، يعتذر ويقسم أنه لم يقصد أن يكون بينهما ما حدث، وأن الخمر أفقدته وعيه . انتابتها دهشة

وهي تستمع لكلماته التي تقول بأن ليلة حب كانت بينهما، ظنته يهذي، وقعت عيناها على قميصه الذي ارتدته خطأ، عندما فرت من منزله، عادت إلى ذاكرتها ألوان السقف وثعابينه ووجه عادل الملاكي وهو يغط في نومه، صرخت صرخة مروعة، ألقت بالسماعة، صوت عادل يتسرب منها مستعطفا ومعتذرا على حماقته . لم يكن يعلم أن صرختها لم تكن سوى للخنجر الذي نفذ إلى قلبها، عادل وهي معا في الفراش، هذا معناه أنها وضعت في جسده مرضها القاتل، عادل العزيز على قلبها قتلته بيدها، قتلت زوج أعز صديقة . لو كان على الخيانة وحدها ما كان يهم، ستعتبرها نزوة لا يعودان إليها، ويظل عادل كأخ وميرفت كأخت، لكن أن تقتل الاثنين معا . لو مات عادل ستموت ميرفت، روحاهما معلقتان ببعضهما، موت واحد يعني موت الثاني. عاد إلى ذاكرتها هذيانه الليلة الماضية، يتشبث بحضنها وهو يظنه حضن زوجته ميرفت، ودت للحظات أن تهدم الحائط برأسها وتتلاذذ بمرأى دمانه، ودت لو تمكنت من تعليق حبل في السقف وتشنقه بعنقها، ودت لو دقت عنق الشارع بجسدها المتهاوي من الطابق السابع عشر، لكن لم تهدم ولم تشنق ولم تدق عنق الشارع . تشبثها بالحياة أصبح أقوى من أي وقت آخر، انتظارها للموت زاد من قبضتها على الدنيا ومتعتها، نعم الألم يلوي قلبها ليا على فداحة المصيبة التي أهدتها لعادل، وكأنها تهديه زهرة في عيد ميلاده، لكنها لم تكن

في وعيها على الإطلاق، هذا لن يقدم أو يؤخر شيئاً، الموت سيزحف نحو عادل زحفاً، سواء كانت هذه الزحفة واسعة الخطى أو ضيقة، سيأتي ولا ريب في ذلك . ما يشغل تفكيرها هو هل تنسى ما حدث ولا تخبر عادل كما فعلت مع وائل والمخرج راضي والدكتور زهدي الذي فارق الحياة وهو لا يعلم أنها قاتلته، أم تخبره وليكن ما يكن، كيف تواتيها الجرأة وتقتله ثانية، إخباره بالحقيقة لن يكون سوى باقة زهور مخبأ بها عبوة من الديناميت، ما أن يلمسها حتى تنفجر فيه وتقطعه إرباً . قد تكون الحقيقة فيها الخير حتى لا تنتقل العدوى لأسرته بأي طريقة من الطرق، لكنها ستقتله بمجرد علمه بها، تشتت ذهنها ونظرت في المرأة ولأول مرة تشعر بأنها تنظر إلى غول يفترس كل من يقترب منه .

بعد انقطاع أسبوع عن زيارة صديقتها ميرفت بالمستشفى، زرعت بداخلها بعض الجراءة وتوجهت إليها، المعاناة ستكون حولها من كل جهة، كيف ستنظر في عيني أعز صديقة لها بعد أن خانتها مع زوجها . لو وضعت الأمور في نصابها لقلنا بعد أن قتلت زوجها، جريمة مزدوجة خيانة وقتل . كيف ستواجه عيني عادل الذي بذل من أجلها الكثير وكان أقرب الناس إليها في محنها، تخشى أن تنهار أمامه وهي تعلم أنها وضعت بداخله قنبلة موقوتة ستنفجر وتمزقه في أية لحظة . طرقت الباب، دخلت وهي تشعر بثقل قدميها وكأنهما ترزحان تحت كتل صخرية، التقت عيناها بعيني ميرفت، تركزت عليهما وكأنها تجتهد أن تقرأ ما بداخلهما، لم تقرأ سوى فرحة مجلجلة . أشارت ميرفت بإصبعها نحو الرباط الذي يلتف حول رأسها، لم تفهم نادية في بادئ الأمر، همست ميرفت في أذنها بأنها أجرت العملية وانتهت آلامها، داهمت نادية أحاسيس ومشاعر متعددة في لحظة واحدة، هل تزغرد فرحة من أجل صديقتها ؟، هل تصرخ وتلطم وجهها من أجل زوجها عادل ؟، هل تغطي وجهها بيديها لتحجب

عار خيانتها ؟ . تجمعت كل هذه المشاعر والأحاسيس داخل القطرات المنهمرة من عينيها، وميرفت تربت ظهرها وهي تظنها دموع صديقتها الفرحة . أحست نادية بحركة في ركن الغرفة، اتجهت بنظرها، كان عادل يقف . لم تنتبه له عند دخولها، نظرها وإحساسها كله كان منصبا على ميرفت، قرأت في عينيه اعتذار صامت وكأنه يحمل نفسه كل الخطأ، إذا كان يعتذر إليها محملا نفسه خطأ هذه النزوة، فمن الواجب أن تقدم له اعتذار عن حياته كلها . أحست بحبل يلتف حول عنقها ويكاد يزهق أنفاسها، حاولت أن تتماسك وهي تمد له يدها مهنئة بسلامة ميرفت، اعتذر كفه لكفها وبكى كفها في حضن كفه . رغبة تدفعها أن تركع على ركبتيها وتقبل قدمه ثم ترفعها وتسحق بها رأسها، يقولون أن الأفعى لا تموت إلا إذا سُحقت رأسها، وهي لا يجدي معها سوى سحق الرأس . لا فرق بينها وبين الأفعى كلاهما ينهش فيخرج المنهوش خارج الحياة، وهي نهشت وائل وراضي وذهدي وأعز الناس عادل . ومن المؤكد أنها لن تتوقف عن النهش حتى ينهشها مرضها، حينها فقط سيتوقف سمها . متى يحدث هذا الله وحده الذي يعلم، كم بئس كُتب عليه النهش بأنيابها لا تعلم، القضية الآن ليست قضية من الذي سيأتي عليه الدور، قضية الذي وقع عليه الدور بالفعل . ماذا ستفعل ؟، إن صمتت ستكتب على ميرفت الموت عند عودتها للمنزل ومعاشرتها لزوجها، ومن يدري فقد ينتقل للأولاد أيضا بأي

طريقة فهذا المرض لا يزال في طور الغموض ، كيف ستواتيها
الجرأة وتخبره بأنها قاتلته ، ومرملة زوجته ، وميمنة أطفاله
. تحتاج لجبل من الجرأة يدفع لسانها للنطق بحكم الإعدام
عليه ، لا بد من هذه المواجهة ، إن كانت تحبه وتحب ميرفت
وأولادهما لا بد من إخباره بالحقيقة ، ولتتحمل حتى لو سحق
رأسها أسفل قدمه بالفعل . بنظرة مُنسحقة وجادة أخبرته أنها
تريد أن تراه لأمر عاجل ولا يحتمل الانتظار ، هز رأسه مطيعا
وكأنه يؤكد لها أنه على استعداد لتقبل أي حكم منها لنزوته
معها ، النبيل دائما يدفعه لأن يعاقب نفسه على خطئه وأخطاء
الآخرين .

ذهبت في الموعد المحدد، كان في انتظارها، عندما نظرت إليه تصاعدت إلى وجهه حمرة الخجل، ربتت على كفه وقالت :

— صدقتي لم يكن خطأك أو خطأي لكنها الظروف التي جمعتنا معا، في لحظة كل منا يسيطر عليه حزن داخلي . وساعدت كؤوس الويسكي على إلغاء عقولنا وحدث ما حدث . وتأكد لو كان الأمر توقف عند هذه النزوة ما كنت أهتم، لأنني أعلم كما قلت أنها نزوة خارجة عن الإرادة، ستمحيها حبك لزوجتك وأولادك، وإعزازي الشديد لميرفت كأخت . تنهدت وهي تردد بصوت مخنوق .. ليت أن الأمر توقف عندها فقط، ليت الأمر توقف عندها فقط..

سأل عادل ودهشة متوجسة غمرت ملامحه :

— ماذا تقصدين بقولك ليت الأمر توقف عندها فقط .

أخرجت من حقيبتها خطاب مغلق، وسلمته له وهي تقول :

— أنا أعلم أنك رجل وعند كلمتك دائما، عدني ألا تقرأ هذا الخطاب قبل الغد في مثل هذا الوقت .

ازدادت دهشته وتوجسه وقال وهو يرمق وجهها وكأنه يراه لأول مرة :

— أعدك، ولو أني أشعر بالفضول يحاربني بشدة، أثرت قلقي .

— ستعلم كل شيء حين تقرأ الخطاب، والآن أستودعك وأتمنى لك كل خير أنت وميرفت والأولاد، لأنني مسافرة وقررت ألا أعود .

قال عادل راجيا :

— تسافرين، إلى أين ؟ ولماذا ؟ أنت نفسك قلت أنها كانت نزوة غير مقصودة البتة، لماذا هذا العقاب الشديد على نفسك وعلينا؟ أنت تعلمين معزتك عند ميرفت وعندي أيضا، وأنا متأكد أننا سنتغلب على لحظة ضعفنا وسنعود كما كنا كأخوة أعزاء .

لاحت على شفتيها ابتسامة حزينة وقالت :

— عندما تقرأ خطابي ستفهم كل شيء وقد تلتمس لي العذر، لم تعطه فرصة لمزيد من الحديث، نهضت، ازدادت دهشته واستغرب سلوكها، خطف يده وقبلت ظهرها وولت هاربة من أمام وجهه .

حبيبي عادل

دعني الآن أقولها بحرية وصراحة بعد أن كتبتها بين
 ضلوعي طوال هذا الوقت، وقت ليس بالقليل وأنا أراك أمامي
 ويكاد قلبي يقفز ويقبلك، أدفعه بقسوة ليعود مكانه ويبكي
 صامتا. نعم أحببتك يا عادل، أحببتك وأنا أعلم أنه حب يائس
 ولا أمل فيه، فأنت زوج أعز صديقة لي وأب لطفلين، كان على
 أن أكبح جماح قلبي. نجحت في هذا وأنا أشعر به يرفرف
 كالطير الحبس داخل صدري، لم تنتبه أنت لأن عينيك ودقات
 قلبك دائما محصورة في زوجتك الرائعة ميرفت، كنت أسعد
 عندما أراكما دائما تغردان وتنشدان أروع كلمات الحب.
 اكتفيت بأن أكون قريبة منك وأسعد لسعادتك، كنت محتاجة
 إليك وإلى حنانك الذي لا ينضب معينه، بعد أن نُكبت نكبات
 لا يقوى على حملها جبل من الصخور العاتية. كنت أضع
 حاجزا من الجرانيت بيني وبينك حتى لا أضعف وأتخطأه،
 النكبة التي اهتزت لها حياتي كزلازل مدمر كانت سببا في
 إصابتي بانفصام في الشخصية، صحبتني أنت بنفسك إلى

الدكتور ذهدي، لكنك لم تكن تعلم عن هذا الموضوع أي شيء . تظن أن ما بي لا يعدو اضطرابا عصبيا تسبب عن الظروف الأليمة التي مررت بها، لم تعلم أن هذه الظروف الأليمة كانت من الألم الذي لا تصلح فيه أي مسكنات أو عقاقير مخدرة، تخيل بالطعنة التي أصابت أحشائي بعد أن كنت أعيش مع أسرة وأحاول أن أصنع لها السعادة . فجأة تموت ابنتي ولا عزاء بعد أن علمت أن موتها كان نتيجة لإصابتها بهذا المرض اللعين الذي يسمى بالإيدز، نعم أصيبت به لأنني أنا مصابة به أيضا ولم أكن أعلم، وإصابتني جاءت نتيجة معاشرتي لزوجي حامد النجار . أعتقد أنك تعرف سيرته جيدا ونزواته في الداخل والخارج قبل أن يهتدي ويعرف طريق الصواب، هذا الطريق الذي أتى متأخرا للأسف بعد أن كانت العلة كمنت به، وكأن القدر يسخر مني فقبلت الزواج منه وأنا أعلم ماضيه . شاهدهت بعيني بعد توبته، والحب الكبير الذي كان يكنه لي، قبلته كزوج بعد أن كنت قد فقدت خطيبي سليم، قبلت وأنا لا أعلم أنه سيكون لعنة لحياتي وحياة ابنتي وحياة غيري، وحياة من أحبه قلبي بكل ذرة تختلج به . لم أعلم بهذه الكارثة إلا بعد انتحاره وعثوري على الخطاب الذي اعترف لي فيه بكل شيء، وبأنه هو الذي طلى المستقبل كله أمامي باللون الأسود. مرفق مع خطابي هذا الخطاب الذي كتبه حامد النجار بخط يده قبل انتحاره مباشرة، لست أعرف لماذا أسرد عليك كل هذا، وهو لا يهم أمام المصيبة التي

زعزعت نفسي وفكري، وجعلت الحياة أمامي لا تعدو صندوقاً
للقمامة . الكارثة التي وضعتك في إطارها، الله يعلم بأنني لم
أكن في وعيي وقتها، لأنني لو كنت أملك ذرة من الوعي
في هذا الوقت لقتلت نفسي وأنا راضية، هذا أرحم من أن
أقتلك أنت . أنت بالنسبة لي كنت الأمل الذي أنظر إليه فقط
فأعيش، أقسم لك أن ما حدث في هذه الليلة لم أكن واعية
له على الإطلاق، وإلما معنى أن أذبحك بيدي . عندما فقت
لنفسى وعلمت بأي مصيبة دفعتك إليها دفعا وأنا أقذف إليك
بهذا المرض اللعين، وبأنني سأكون السبب في موتك وتشريد
أسرتك وقتل الأمل في قلب أعز صديقة لي، اتخذت قراري
. هذا القرار الذي سأكون قد نفذته عندما تقرأ هذا الخطاب،
قرار خروجي من الحياة كلها فأنا أصبحت جرثومة لا علاج
لها، جرثومة لا تفرق بين عدو أو حبيب. نعم يا عادل عندما
تقرأ هذا الخطاب سأكون تخلصت من حياتي التافهة، أرجو أن
تسامحني فالله يعلم أنه كان أهون على أن أذبح نفسي بيدي
آلاف المرات، ولا أرى قلامة ظفر منك يصيبها الأذى، أرجو أن
تسامح امرأة عاشت تحت سيف الأقدار، وداعا يا عادل .

على غير موعد ودون سابق معرفة، تقابل المخرج راضي القمصنجي مع وائل في مكتب المسئول الكبير بوزارة الصحة، جلسا على مقعدين متواجهين أمامه، نظرات الفضول ترسل إشارات المستطلعة عن سبب هذا الاستدعاء المستعجل . إزدادت دهشتها عندما تجاهل المسئول أيديهما الممدودة لمصافحته واكتفي بإيماءة من رأسه، تجاهل المسئول أيديهما بالرغم من كونه طبيبا وقرأ كثيرا عن هذا المرض، ويعلم أنه لا ينتقل بتلامس الأيدي، لكنها الطبيعة البشرية والخوف من المجهول، كثير من جوانب هذا المرض كانت مجهولة في ذلك الوقت . التردد على وجه المسئول يوحي بأن هناك شيئا في جعبته، والورقة التي ينظر فيها ثم يضعها جانبا، تقول بأن الأمر غير عادي، خيوط من القلق بدأت تظهر على وجهيهما، أخيرا ومن خلال نظرة جادة صارمة تكلم المسئول :

— في الحقيقة استدعيتكما إلى مكتبي لأمر خطيرا جدا، أرجو أن يكون الحديث بيننا متسما بالصراحة والوضوح، حتى يمكن تجنب ما يمكن تجنبه من العواقب الوخيمة .

نفرت عروق التوتر والقلق فوق وجهيهما، يجهلان الموقف، تحول التوتر والقلق إلى نموذج للتعبير عن الدهشة حين أردف المسئول قائلا :

— أعتقد أن كل منكما كانت له علاقة مع الفنانة المنتحرة نادية .
نظر كل منهما للآخر وكأنه يكتشف وجوده لأول مرة، اتجهت نظراتهما نحو المسئول وشعور بأنه يعريهما، لا يعلمان إلى أين ستصل هذه التعرية . لم يجدا في نفسيهما الجرأة للإجابة، من مبدأ الصمت يعني الموافقة، لم ينتظر المسئول إجابتهما وأجاب مباشرة وهو يشير نحو الورقة التي كان يمسك بها عند دخولهما :

— هذا خطاب من الفنانة نادية كتبته وأرسلته قبل إقدامها على الانتحار، تعترف فيه بأنها كانت على علاقة لليلة واحدة مع كل منكما، ليس هذا هو المهم، أو على الأقل ليس هذا ما يعيننا في الموضوع، الأهم من هذا والخطر جدا في نفس الوقت، وأرجو أن تتماسكا عند سماعكما ما سأقوله الآن، وهو الشطر الذي يخصنا في هذا الموضوع، هو اعترافها بأنها مريضة بالإيدز، انتقل إليها من زوجها المعروف بأن مغامراته النسائية كانت لا تعد ولا تحصى، وعلى ما أعتقد أن إصابته كانت من إحدى مغامراته في الخارج كما لمحت نادية في خطابها . كما أوضحت أن موت ابنتها كان نتيجة لإصابتها بهذا المرض الذي انتقل

إليها منها . النتيجة أن نأديه أصيبت بصدمة عصبية على أثر موت ابنتها وموت زوجها منتحرا وعلمها بالحقيقة من الخطاب الذي تركه لها قبيل انتحاره، هذه الصدمة أدت إلى حدوث انفصام في شخصيتها . العلاقة معكما تمت وهي في حالة اللاوعي، بعدها جئنت أن تخبركما بالورطة التي وقع كل واحد منكما فيها نتيجة اتصاله معها، للأسف من المؤكد أن المرض القاتل انتقل إليكما نتيجة هذا الاتصال وعلينا أن نعالج الموضوع في سرية تامة، وما أرجوه ألا تكون دائرة المرض اتسعت نتيجة علاقتكما بنساء أخريات في الفترة السابقة .

هوت الجبال فوق رأسي وائل وراضي، تمنيا لو تقتلها في التو واللحظة، أبقت عليهما لتزيد من ألمهما، فقد التحكم في إرادة حركاتهما، قاما ثم جلسا، أعادا النهوض ثم الجلوس، قشعريرة بدنيهما كان لها صوت . المسئول يشير بيده يرفوهما تمالك أعصابهما، انهار وائل وعلا نحيبه، انطلقت يده تجذب شعر رأسه في حركة هستيرية، هوت الكلمات من بين أسنانه كفرقة السياط :

— قتلت زوجتي وطفلي الذي لم ير النور .. قتلت زوجتي وطفلي الذي لم ير النور .

— هل أنت متزوج ؟ .. سأل المسئول وقد أدرك أن المهمة ازدادت تعقيدا .

- نعم، بعد أن يأسست من الزواج من ناديه، تزوجت بابتة عمي منذ ثلاثة أشهر وهي الآن حامل .
- هل لم تتصل بأي نساء قبل أو بعد زواجك؟
- إطلاقا .
- ألم تجر أي عملية جراحية أو نقل دم لشخص آخر خلال هذه الفترة ؟
- لا .

جاء دور المخرج راضي وقبل أن يطرح عليه المسئول أي سؤال، هز رأسه بشدة وكأنه يريد أن ينفذ عنها الكابوس الذي هو عليها فجأة، الكابوس لم يغادر رأسه لأنه حقيقة واقعة، تفرقت نظراته بين وائل والمسئول وهو يعترف بالحقيقة المخيفة قائلا :

- لا بد من الاعتراف بكل ما حدث بعد الليلة التي أمضيتها مع ناديه، الضمير هو الذي يقول هذا، الفضيحة أخف وطأة من الإنكار الذي سيتسبب في مزيد ومزيد من الضحايا . ما أرجوه يا سيدي هو أن لا تتسرب هذه الاعترافات لمن يجد لذة في التشهير .

- تأكد من أن هذا لن يحدث، كان من الممكن أن نستدعيكم عن طريق الشرطة، ولكن حرصا مني على عدم تسرب خبر مثل هذا يمكن أن يحدث بلبله شديدة، استدعيتكم مباشرة لمكتبي .

أكمل راضي ونظرة من اليأس القاتل تدور داخل عينيه :

— في الفترة الماضية كانت لي علاقات تزيد على عدد أصابع اليدين من الوسط الفني وخارجه، وسأكتب لك في ورقة الأسماء والعناوين لكل منهن . أما الطامة الكبرى فهي علاقتي مع أحد النساء اللاتي تخصصن في بيع أجسادهن لمن يدفع، تعمل ضمن مجموعة في شقة تديرها سيدة مجتمع معروف أنها تقتنص السياح . والشيء المؤسف والمؤلم أنني توجهت أيضا لأحد أطباء الأسنان لقلع ضرس خلال هذه الفترة، لم أكن أتخيل أن إفراطي في العلاقات مع النساء سينتهي بكارثة لا يعلم مداها إلا الله . لم يتمالك راضي نفسه بعد هذه الاعترافات ، أجهش بالبكاء وانتقلت العدوى إلى وائل، لا أحد يعلم إن كانت الدموع على أنفسهما أم على ضحايتهما . حاول المسئول جاهدا حتى هدأ منهما وهو يقول :

— كنت أتمنى أن أشارككما البكاء لو كان يجدي الآن، لكن حجم المصيبة لا تكفيه ولا تحله دموع العالم كله . علينا أن نعمل بمنتهى السرعة لحصر كل من يشتبه في انتقال الإصابة إليه وخاصة تلك السيدة التي تقول أنها تنتقل بين الرجال، وهؤلاء العابثين من الرجال الذين يأتون من بلاد أخرى، يجب معرفة أسمائهم والاتصال بالمسئولين في بلادهم . علاوة على طبيب الأسنان الذي بالقطع تردد

عليه المئات خلال هذه الفترة، ومن المعروف أن مستوى التعقيم للأجهزة المستخدمة لا يزال تحت مستوى الشبهات. مجهود ليس بالسهل يجب أن يبذل لمحاولة حصر هذا المرض اللعين قبل أن ينتشر أكثر وأكثر، يجب أن يذهب الجميع لعمل الفحوصات والتحاليل للتأكد، ولو أنني اعتقد أنها طالت الجميع فمن المعروف الآن أن الاتصال الجنسي هو من الأسباب الرئيسية لانتقال هذا المرض .

كانت رسالة ناديه لمسئول الصحة لا تحتوي سوى على أسم وائل وراضي، لأن الدكتور ذهبي تعلم جيدا أنه مات ولم تحدث بينه وبين إي امرأة أخرى علاقة في هذه الفترة . أما عادل خبرته بنفسها في الرسالة التي تركتها له، وهي تعلم أنه لم يكن هناك اتصال بينه وبين زوجته في هذه الفترة التي كانت ترقد فيها داخل المستشفى، علاوة على كونه طبيباً وسيدرك بنفسه مدى خطورة الموقف . الأهم من هذا وذاك رفضها أن تشهر به وتضعه في نفس الموقف، الذي جابهه راضي ووائل، اللذان لم تهتم لهما أبداً، ولولا صحوه من ضمير لتركتهما، لكن الكارثة ليس في إصابتهما لكنها فيمن سينقلون إليه الإصابة .

لم تتوقف دموعه منذ أن وطأت قدمه أرض الطائرة، يضع فوق عينيه نظارة سوداء ليخفي بها حزنه الهائل، عندما أقلعت الطائرة لتترك أرض الوطن، الأرض التي يعيش عليها أغلى من له في الحياة، أحس بخنجر ينفذ إلى قلبه ويقتطع منه ببطء حتى يزيد من عذابه، خاصة أنه يعلم أنها رحلة الالعودة. عادل وقراره القاطع الدامي للهرب في صمت. هرب بعد أن علم بالمصيبة التي تكمن داخل جسده. لم يستطع تقبل فكرة أن يعيش مع أعز من لديه في الحياة مُهدداً بمرضه ومُهدداً إياهم بالإصابة. عادت زوجته ميرفت بعد نجاح العملية وتمائلها للشفاء، وعاد علاء وعلياً من منزل جدتهما، كان الجميع تطير بهم الفرحة، وكان عليه أن يبدي أمامهم فرحته المزيفة. محكوم عليه بالموت وعليه ألا يلامس زوجته التي أحبها من شغاف قلبه، جنية بحور الشعر، عليه أن يكون حذراً في الاقتراب من أولاده، امتلأت نفسه بأنه جرثومة تلوث جو المنزل، وقد تنتقل في أي وقت لتقتل أعز من أحب. دهشة ميرفت شديدة، أمام إصراره على النوم منفرداً في غرفة أخرى، لم يحاول حتى أن يُقبلها منذ عودتها من المستشفى. ساورتها الشكوك أن يكون عادل حبيبها زهد في حبها، طرحت الفكرة تحت قدميها، من السهل

أن تشك في حبها لكن حب عادل لا . لم يهادن عادل أفكاره التي تتقلب كجمرة نار داخل رأسه، ماذا يفعل ؟، الصمت جريمة وسيبعث على الشكوك داخل ميرفت، عندما يطول الوقت وهو على حاله من هجرها . ماذا لو ضعف أمام حبه لها وتلامس معها دون وعي !! معنى هذا أنه سيطعنها بيده ويتركها تنزف حتى تلفظ أنفاسها، أنه لا يعدو قبلة موقوتة قد تنفجر وتقتلهم. مرضه ليس له علاج، سيظل يصارع داخله حتى يقتله، لا يهم أن يموت هو لكن هم يجب أن يبتعدوا عن طريقه تماما، أصبح يشعر بأنه كالقطار يدهم من يقف في طريقه . ليالي ساهرة وأيام وهو يقلب الأمر على كل وجوهه، الطرق دائما كانت تنتهي عند طريق الهروب . نعم يجب أن يهرب منهم جميعا، لو كان بيده لقتل نفسه كما فعلت ناديه، لكنه لا يريد أن يخسر آخرته كما خسر حياته دون قصد منه، ليهرب بجسده ويترك قلبه معهم فهذا أفضل حل له وللجميع . ذهب لزيارة أبيه وأمه ، عرج على جميع أحبائه وهم لا يعلمون أنه يودعهم الوداع الأخير، عاد إلى منزله يداعب ميرفت وعلاء وعليها، مما أحيى الأمل داخل ميرفت في أن تكون هذه الليلة نهاية هجره لها ورقاده في غرفة منفصلة . خاب ظنهما عندما ولج غرفة الهجر وأغلق الباب، ظل ساهرا حتى الفجر يكتب في خطاب لها، يرويهِ بدموعه، تسالت خيوط الفجر الأولى، انسل خارجا نحو المطار بعد أن ودع كل شيء حتى جدران المنزل .

اتخذت قرارها، يجب أن تفتحه وتناقشه في سبب هجره لغرفة نومهما، لا تشك لحظة في حبه لها لكن ما هو السبب؟، الليلة كلها قضتها متقلبة في الفراش، لم يغزو النوم عينيها إلا مع خيوط الفجر الأولى، في نفس الوقت الذي كان فيه عادل يستعد لهجر حياته بالكامل معها وليس من غرفة النوم فقط . بالرغم من تأخر نعاسها استيقظت مبكرا، تدفعها فكرة إنهاء هذا الهجر الذي ليس له مبرر، ليااليهما لم تكن سوى وصال من الحب الذي لم تخبو جذوته الأعوام، كيف تتحول هذه الجذوة إلى رماد تكاد تذروه الرياح . فتحت باب غرفته برقة لتوقظه بقبلة طال اشتياقها لها، تقابلت عيناها مندهشة مع الفراش الخالي، بحثت عنه في كل أرجاء المنزل، الساعة لم تتجاوز السابعة وهو غير معتاد أن يغادر المنزل إلى عمله قبل العاشرة . لم يخبرها بالأمس أنه مضطر للخروج مبكرا لأي سبب من الأسباب، عادت إلى الغرفة ثانية، جذب انتباهها المظروف المغلق والموضوع على المنضدة والمعنون باسمها، فضت مظروف النهاية بالنسبة لها، ومع كل كلمة من كلماته كانت تخرج روحها وتأبى أن تعود :

حبيبتي وأغلى شيء لي في الوجود، جنية بحور الشعر،
هل تتذكرين أول مرة تقابلنا فيها يا جنيتي، وحلقت بي إلى
جنة الله التي لم يسمع عنها أحد سوانا . أتذكر هذا اليوم
الآن، أقارن بين حالي في تلك الليلة وحالي هذه الليلة،
جالس أكتب لك وقلبي يتلظى فوق جمرات متوهجة، أعلم
تماماً أن هذه الجمرات لن يخبو توهجها لآخر يوم لي في
هذه الحياة . قد لا تصدقين إن قلت لك أنني أشعر بلذة الألم
وهي تشوي قلبي بنيرانها المستعرة، نعم يا حبيبتي الألم
أحياناً يعطي الشعور بالذلة . في حالتي هذه الشعور بالذلة
يتولد من أنني أعاقب نفسي أشد العقاب من أجلك، أكتب
على نفسي الموت من أجلك، ألا تعلمين أن الموت قد يكون
له طعم مستساغ لو قورن بابتعادي عنك . لا تعلمين أي موت
كنت فيه في الأيام السابقة، أراك أمامي وأعجز عن احتوائك
بين ذراعي، لم يكن أمامي الخيار، إما أن استسيغ الموت
وأهجر حضنك، أو أحتويك بين ذراعي وأنفث فيك سما ناقعا
يفوق سم الحية الرقطاء . لا تندهشي يا حبيبتي ولا تتألمي،
أتخيل عينيك حبيبتي وهما يذرفان دموعاً بالنسبة لي أغلى
كثيراً من حبات الماس . لم يكن أمامي سبيل سوى أن أهرب
من نفسي للأبد حتى أدعك تعيشين، لم يكن أمامي سوى
الهرب النهائي، أفضل من رؤية نظرة عتاب ولو للحظة
واحدة تطل من عينيك. أخطأت ولكن أقسم لك أنه خطأ لا
يحتسب عليّ، هذا الخطأ أشارك فيه عاملان ولم يكن لي

ضلع فيه، الأول هو خروجي عن وعيي، والثاني جبال الحزن التي تراكمت فوق قلبي بمرضك. في تلك الليلة التي رجوت فيها نأديه أن تصحبني إلى المنزل لأخذ قسطاً من الراحة، وقعت الواقعة، أنا خرجت عن وعيي بعد عدة كؤوس من الويسكي، كنت أظنها ستنسني بعض من ألم يعتصر قلبي لمرضك، ونأديه خرجت عن وعيها بمرضها الذي كنا نجهله، مرض انفصام الشخصية الذي أصابها عقب صدمة عصبية حادة، إثر علمها بأن سبب الكوارث كلها كانت بسبب مرض الإيدز الذي نقله لها زوجها وهي أورثته بدورها لابنتها. لم تعلم بهذه الحقيقة المرة إلا بعد انتحار زوجها حامد النجار، نزوتي أنا ونأديه لم يكن مدبراً لها، لم يجلب بخاطري أو خاطرها بمثقال ذرة أن أخون حبيبتي وزوجتي التي ملكت حياتي كلها، وهي أيضاً كان من المستحيل أن تخون صداقتها لك وأنت في منزلة الأخت لها. كان من الممكن لولا هذا المرض الذي من المؤكد أنه انتقل إليّ منها، أن نجى نحن الاثنين معا ونعترف أمامك بخطأنا، وأنا متأكد بأنك كنت ستغفري لنا لأنه خطأ كانت له ظروفه الخارجة عن إرادتنا، وليس المقصود منه خيانة إنسانة نعتز بها ونحبها. القدر الأعمى الذي يضرب ضربته دون أن ينظر لمن يوجهها، كاللنا جميعاً لكلماته الحديدية، التي انتهت بانتحار نأديه تحت وطأة تأنيب ضمير شديدة، وبني أنا للفرار من جنيتي التي كنت أعيش في نعيمها، وبك أنت ترقدين تحت أكوام من

الحزن الهائل أمام هذه الحقيقة المفجعة، التي أخشى أن لا
تتحملها أعصابك المرفهة فتسوقك للحتف، وأكون قد قتلتك
بيدي يا جنية بحور الشعر .

اغفري لي وسامحيني فليس أمامي سوى أن أعاقب نفسي
بالهروب القاتل بالنسبة لي، هذا أفضل من أن أزهد روعي
كما فعلت ناديه، أرجو أن تقبلي أمي وأبي وقلذات كبدي
علاء وعلياً . وأنا واثق أنك ستجدين ما ستخبرينهم به دون
أن تشوهي وجهي أمامهم .. الوداع .

طريد الحياة

عادل

هبطت الطائرة، نقلت شديدة من مصر إلى أمريكا، دبر كل شيء، اتخذ طريقه نحو منزل أسرة زوجته المغلق منذ أمد طويل، كانت مفاتيحه معه، ذهب إلى هناك عندما سافر في زيارة لأخيه . عندما قرر الفرار، أراد أن يكون فرارا بعيد المدى في مكان لا يعرفه فيه أحد، حتى أخيه لن يعلمه بوجوده في أمريكا، عليه أن يعيش ويموت في الخفاء . سيقضي أيامه وحيدا دون أنيس أو رفيق، يحمل بين جنبيه قسوة الحياة كلها، المرض والفرار ممن أحبه و انتظار الموت وحيدا . قد لا تُكتشف جثته إلا بعد أن تُصبح هيكلا عظيما، سنوات طويلة والبيت مغلق، قد تمر سنوات وسنوات ولا يفكر أحد دخوله، ما يشغله كيفية الاطمئنان على أحبابه دون أن يكتشفوا مكانه، لا بد أنه سيجد وسيلة. سيعيش يحتسي المر، سيكون أشد حلاوة من المر الذي كان سيحتسيه لو ظل بجانبهم، وهم يعلمون أنه يحمل مرضاً فتاكاً، أو لا يعلمون ويقرأ الحزن في عيني حبيبته على هجره لفراشها . الشك لن يجعل عينيه تغمضان خوفاً أن ينتقل لهم المرض بأي وسيلة من الوسائل، هذا المرض اللعين لم تكتشف كل جوانبه

بعد، الأفضل أن يظل بعيداً كالكلب الأجرب . وجد المنزل كما هو، لم يتغير به شيء، الورقة كما هي التي تحمل عنوانه في القاهرة التي تركها في زيارته السابقة، على أمل أن تأتي ماري خالة ميرفت وتجدها وتتصل بهم . كان يأمل أن تحدث المعجزة ويعرف أي خبر عن والدته ميرفت، ليخبرها بالحقيقة التي تركها له ناجي عنايت، رحل وهي تظنه أباه. من كان يفكر بأن هذا المنزل الذي كانت تحيا فيه أم حبيبته وأبوها سيكون قبراً له، يعيش داخله منتظراً نهايته بمرض مشبوه . فتح غرفة أبيها وأمها، دقق النظر في الصورة التي تجمعهما معاً، ميرفت تحمل شبيهاً كبيراً لأمها، نزع الصورة واحتضنها، وضع وجهه عليها وغسلتها دموعه، قرر أن يتشبث ببعض القوة، لتعينه على أيام لا يعلم كيف سيقضيها وحيداً مع الغربة، وذكريات لا تنسى، وحاضر يتوثب كوحش ضاري .

لم يكن من السهل على ميرفت مجابهة الواقع بكل قسوته، لم تكد تنجو من مرضها الخطير حتى لطمتها مصيبة أشد من قسوة المرض، مقتنعة تماما بأن ما حدث بين نادية وعادل لم يكن خيانة، لم تكن سوى لحظات من الضعف حاصرتهما فانزلقا دون وعي، لم يبيتا النية لأي شيء من هذا القبيل، عادل زوجها وتوأم روحها، وناديه صديقة بمثابة الأخت. لو كان الأمر اقتصر على تلك الليلة لهان الأمر وسامحتهما من كل قلبها. لكن الكارثة نتيجة هذا اللقاء الذي كان شديد الوطأة على الجميع. اختفى عادل من حياتها للأبد غير مصدقة أنها يمكن أن تعيش بدونه وانتحرت نادية. شعرت بالأسف الشديد نحوها، تخيلت قسوة العذاب الذي عاشت وماتت فيه، نادية رحلت واستراحت من عذابها، لكن هي ستبدأ رحلة العذاب. بماذا ستخبر ابنها وابنتها عندما يسألان عن اختفاء أبيهما؟!، كيف ستواجه أمه وأباه بهذا الخبر. يجب أن تبقى صورة عادل نظيفة أمام الجميع، يجب أن تكتم سرها بين ضلوعها، عليها أن تخلق أكذوبة كبيرة، أكذوبة لا تثير الشك وعلامات الاستفهام حولها. كل شيء

سهل ويمكن أن تدبره، لكن المستحيل أن تعيش وهى لا تعلم
إذا كان عادل على قيد الحياة أم غادرها، أبدا لن تدينه على
ليلته مع نأديه لكنها تدينه بشدة على هربه . تمنى لو لم
يخبرها وعاش معها كزوج لينتقل إليها المرض ويفارقان
الحياة سويا، كما عاشا أيام الحب والسعادة سويا . قررت ألا
تستسلم، ستكرس نفسها ووقتها للوصول إلى عادل، اشتاقت
أن تأخذه في حضنها وتهمس بدموعها في أذنه، إن كان كتب
عليك الموت فلتمت على صدري أفضل من أن تموت غريبا،
كنت لا أنام وأظل مستيقظة حتى حضورك ليلا، لأطمئن عليك
وأراك وأنت تغمض عينيك والسعادة تملأ وجهك، وأنت تنهل
من نبع حبي، تعالى حتى أطمئن عليك في إغماضة عينك
الأخيرة، كي أعرف أين ترقد، وتصبح زيارتك هي تعزيتي
الوحيدة حتى ألقاك. لم أكن أعلم أنك قاسيا، قاسمتني قلبك
وكل مشاعرك وحياتك، فلماذا لا تقاسمني أحزانك وأكون لك
اليد الحانية التي تمسح عنك ألمك لآخر لحظة في حياتك،
أنت تعلم أن جنبة بحور الشعر لا تطيق فراقك، عد أيها
الحبيب لأنى أقسمت ألا تغفل عيني إلا بعد أن أجذك .

على الجانب الآخر، في أمريكا، كان قلبه يحترق، وقسوة لا تعرف الهوادة، لا تفرق بين ليل أو نهار، تشد سياطها على ظهره ولا تتركه إلا بعد أن تنهك قواه . تضمد جراحه ليس رحمة به لكن لكي تعيده للوعي ثانية لتشد سياطها من جديد . الدموع والآهات والألم شيء لا يعبر عن عذابه بدقة، حبس بين الجدران لا يغادرها إلا للضرورة القصوى. لم يحاول عادل أن يتصل حتى بأخيه سامي خوفاً من أن تدفعه رقة مشاعره لأن يفشي بمكانه لميرفت . فكر أكثر من مرة للذهاب إلى مستشفى متخصص ولكنه يعلم كطبيب أن هذا المرض لم يكتشف له علاج حتى الآن، هل يذهب من أجل بعض عقاقير قد تطيل من عمره، ولماذا إطالة العمر، قصره أفضل من إطالته، ففي القصر راحة وفي الإطالة عذاب . تساوت كل الأفكار وتجمعت في فكرة واحدة، كيف أنتم الآن يا أحبابي ؟، كيف أنت يا جنية بحور الشعر، فكرة واحدة وسؤال واحد يسيطر على رأسه مع كل دقة من دقات قلبه .

كان غارقاً في فكرته عندما سمع دقات على الباب، فزرع كلص تناهى لسمعه صوت قدم رجل الشرطة تدب خلفه . من الذي يمكن أن يدق بابه في مكان لا أهل ولا معارف ولا حتى جيران . المنزل منعزل تحيط به الأشجار من كل جهة، أقرب جار يبعد عنه بما لا يقل عن نصف ميل . الساعة تجاوزت الخامسة بعد الظهر، هل يكون أحدهم لاحظ النور في المنزل بعد طول انطفاء، عليه أن يفتح حتى لا يثير الشبهات . تقدم نحو الباب وهو يزحف وخوف مفاجئ تملكه . مفاجأة مذهلة، لم يتوقع أن تكون الدقات لأخيه سامي، كاد أن يلقي بنفسه داخل حضنه لكنه تراجع للخلف والأسى على وجهه، تقدم سامي منه وجذبه نحو حضنه يقبله وهو يقول .

– كيف تكون طبيباً ولا تعلم أن هذا المرض لا ينتقل من شخص لآخر لمجرد التلامس الخارجي.

قال عادل والمرارة تسيل من فمه :

– أعلم هذا ولكن العلم شيء والشعور شيء آخر يا أخي، الشعور الذي يملكني هو أنني أصبحت كلباً مسعوراً أعقر كل من يقترب مني .

– هون عليك، ليست الأمور بهذا السوء، أنت حتى الآن لا تستطيع البت، اعتقد أنك حتى لم تقم بالفحوصات الواجبة في مثل هذه الأحوال .

– أنت على حق فالصدمة كانت شديدة على نفسي، بتر عادل حديثه وحقق في وجه أخيه، قال وكأنه لم يفق بوجوده إلا في التو واللحظة .. ولكن كيف علمت بمكاني ومن الذي أخبرك بمرضِي ؟

– إهدأ يا عادل ولا تدع العصبية تسيطر عليك وسأوضح لك كل شيء .. كان من الطبيعي أن تتصل بي زوجتك لتستجد بي في نكبتها المزدوجة، مرضك وهربك، كانت المسكينة تتحدث معي ككلى فقدت وليدها . أخبرتني بما تركته لها في خطابك، انهارت عبر الهاتف وهي تقول بأنها مستعدة أن تفقدك بعمرها، وعدتها بأني سأسافر إليها . لكن بعد لحظات من انتهاء حديثي الهاتفي معها وأنا أقلب الأفكار في رأسي عن أي مكان تكون قد اختفيت به، وخاصة أن ميرفت أخبرتني بأنها بحثت عنك حتى في جحور النمل، لست أعلم ما الذي دفع داخل رأسي بهذا المنزل الذي رافقتك لاستكشافه عند زيارتك السابقة، كانت برفتنا نأديه إن كنت تذكر، من باب الأمل قررت أن آتي هنا ولن أخسر شيئا، والآن أحمد الله الذي ألهمني بهذا الخاطر .

تقدم منه عادل، تشبث بذراعه وهو يستحلفه ألا يخبر ميرفت عن مكانه، وخاصة أنها لا تعلم شيئا عن الموضوع برمته، فهي تظن حتى الآن أنها ابنة ناجي عانيت. هز سامي رأسه موافقا وقال:

– لن أخبرها بشيء لو انصعت لنصيحتي وأتيت معي لإجراء الفحوصات اللازمة لنرى ما يمكن عمله، الوضع لا يمكن أن يستمر بهذا الشكل .

قال عادل بصوت يأسه :

– أنت تعلم جيدا أنه لا فائدة من كل هذا، الأبحاث حتى الآن تقول بأن الذي يصيبه هذا المرض مقضي عليه لا محالة .

قال سامي مشجعا :

– نحن لا نستطيع أن نقرر أي شيء بدون الفحص أولا، كما أنك تعلم أن الطب في تقدم مستمر والذي ليس له علاج اليوم سيكون له علاج في الغد فعلا كل هذا اليأس .

قال عادل بكلمات مبتلة :

– هذا لو ترك المرض من ابتلى به حتى الغد، وحتى أرضيك ولو أنني أعلم مقدما بأنه تحصيل حاصل سأرضخ لإرادتك، لكن بعد أن تتعهد لي بأنك لن تخبر ميرفت بأي شيء حتى لو رحلتُ عن الحياة فهذا أفضل . شربت كأس الحزن مترعا عند اختفائي، لا أريد لها أن تتجرعه مرة ثانية، يكفي ما قاسته هذه المسكينة .. لكني أحملك نفس الأمانة التي حملني إياها عمها ناجي عنايت التي كبرت وهي تظنه أباه، بأن تخبرها بالحقيقة، وعلى العموم سأوفر عليك هذا الجهد، فقط أخبرها بمكان المذكرات التي تركها

ناجي عنايت التي يوضح فيها كل شيء بالتفصيل . ومعها بعض التوضيحات بخط يدي التي تركتها بمكان أمين في منزلي، الآن أعتمد عليك أنت بعد أن توصلت لمكاني .

ابتسم سامي ابتسامة غامضة وقال :

— ومن قال لك بأن هذه المسكينة سيتوقف حزنها، صوتها الملهوف عليك ينطق بأنها تموت كل يوم أربعة وعشرين مرة، أخبرتني أنها لن تهدأ ولن يغمض لها جفن حتى تعثر عليك، يكفيها منك أن تراك وتسمع صوتك .. هز رأسه ثم أردف .. بأي قلب يا أخي تباعد عن امرأة تحبك هذا الحب العظيم.

قال عادل متألماً :

— لأنني أحبها فعلت هذا، أنا أخطأت في حقها ويعلم الله أنه خطأ غير مقصود البتة، وما زاد الأمر تعقيداً، بل بمعنى أدق أغلق كل المنافذ أمامي، هو خطاب ناديه الذي تعترف فيه بإصابتها بهذا المرض اللعين، كان الخيار الوحيد أمامي هو الهرب، حتى لا أحمل أعظم حب بالنسبة لي عذاباً جديداً، يكفي ما تحملته المسكينة أثناء فترة مرضها .

قال سامي وهو يعانقه وفي داخله ألم يخشى الإفصاح

عنه :

– لا تحمل نفسك فوق طاقتها يا عادل، فهذا هو قدرك، نحن
لا نستطيع أن نأمر الأقدار لتسير طوع بنائنا، غدا سنذهب
إلى المستشفى، تفاعل خيرا وكن قويا كما عودتنا يا رجل ..

بالرغم من المحاولات المستميتة التي بذلها سامي لاصطحاب أخيه عادل معه إلى منزله، إلا أنها كلها باءت بالفشل المطلق، اضطر سامي أن يتركه، ليعود لمنزل أسرة زوجته بعد انتهائه من عمل التحليلات اللازمة، على أن يذهب إليه في عطلة نهاية الأسبوع نظرا لبعد المسافة بين منزليهما، واعدة أنه سيهاتفه يوميا للاطمئنان عليه ويخبره بنتيجة التحليلات . قبل أن يأتيه أخوه سامي كانت نفسه أقل صراعا عما هي عليه الآن، انتهى من التفكير في كل ما يتعلق بالحياة، محكوم عليه بالإعدام ينتظر داخل زنزانته لحظة التنفيذ، يخاف لحظة الموت ولكنه أدرك النهاية . جاء سامي فانفتح منفذ الحياة الذي بذل جهدا خارقا لغلقه، رسم له صورة الحياة ثانية ووضعها أمامه، تركه يتأملها وهو يعلم أنه يرتدي حلة المحكوم عليهم بالإعدام . من يستطيع أن يقف أمام الذهن الجامح الذي أخمده بقسوة، أتى سامي ليشغل عود ثقاب ويلقيه عليه فعاد إلى تأججه ثانية، من يضمن أن البركان الخامد لن يثور ثانية لأقل سبب، ثار داخله لمجرد خروجه من السجن الذي حكم على نفسه به . ذهابه لإجراء

التحليلات في حد ذاته نوع من الثورة والرفض للواقع الذي أوهم نفسه بالرضاء عنه، صورة زوجته الملهوفة عليه كما أخبره سامي تحركت بكامل عنفوانها داخل عقله، أحدثت هزة شديدة أحس بها كما لو كانت ستقتلعه من جذوره، أعادت له عمره الذي صاحبت فيه جنية بحور الشعر . زفرائه النيرانية تكاد تثقب الحائط، أيقظ سامي بداخله الحياة بأكملها، ما يصعق أعصابه أنه لم يهنأ بفرحة نجاة ميرفت من مرضها، لم يسعد بهذه اللحظات ولم يسعدها، كان يحلم باليوم الذي تعود فيه ثانية لعشهما الذي لم يفتر أبدا . عندما عادت وجدت العش قد تراكم عليه الجليد، تركها تتجمد بعيدا عن حضنه، كان يحاول تجاهل نظراتها المتسائلة عن هروبه للغرفة الأخرى . أول مرة منذ زواجهما يكونان بالمنزل معا ولا يقبلها ويملي نظره من إشرافة وجهها قبل أن يغمض عينيه فتملاً حتى أحلامه . عندما علمت السبب كان أشد مرارة آلاف المرات من الهجر، قبض بيديه على رأسه الذي يكاد يتفجر وهو يتذكر رقة وجهها التي اكتست بالحزن . آه يا حبيبتي أستمع لدقات قلبك وأنا بعيد عنك بآلاف الأميال، أسمع صوتك يصرخ .. عد يا حبيبي وسأفتديك بروحي، ما جدوى الاحتفاظ بنفسى وأنت تعلم أنها ماتت بالفعل منذ تركتني . خمسة أيام لم يهاتفه سامي وهو الذي وعده بأنه سيهاتفه كل يوم، السبب معروف ولا يحتاج لإيضاح، تسلم سامي نتائج التحليل وخنقته الحقيقة الجافية، النتائج تولول

صائحة في وجهه .. كان لك أخ أسمه عادل، أرح نفسك وانسأه
فالحياة أصبحت خلف ظهره . فيروسات المرض تخرج له
لسانها الدموي، كإرهابي يرقص مع خنجره الأحمر الملوث
بالدماء . الطبيب أخبر سامي أمامه بأن النتائج ستظهر خلال
ثلاثة أيام، لماذا لم يهاتفه إن لم يكن الأسى أمسك بلسانه،
كيف يستطيع أن يقول له عد أيامك على أصابع يديك . كيف
سيتحدث معه وسيول عينيه تملأ سماعة الهاتف وتفيض من
حوله، كدوامة في البحر تُخمد أنفاس من يدخل في لجتها .
لماذا فتحت النافذة التي أغلقتها بمزاليج العالم كله يا سامي،
لماذا لم تتركني مع المجهول إلى النهاية، أليس هذا أفضل
من أن تقرأ على عريضة الحكم بإعدامي . تلقفت أذناه بضع
دقات، قفز ويده على مقبض الباب، كان سامي ومعه ابتسامة
باهتة، تراجع عادل للخلف أمامها، لم ينتبه عادل أن سامي
ترك الباب خلفه دون أن يغلقه تماما، كل ما في ذهنه هذه
الابتسامة الباهتة كعنوان في صفحة النعي بالجريدة، نظر
إليه سامي وقال بصوت باهت كابتسامته :

— ما بك ترحف للخلف وكأنني شبح أمامك، ما الذي تخشاه،
أنت تعلم بوضعك الصعب ولهذا هربت واختفيت هنا، فما
الذي تخافه، بالعكس ما أظهرته النتائج أخف وطأة مما
كان برأسك، نعم أنت مصاب بالمرض ولكن سنبدأ العلاج
فورا، سأصطحبك للمستشفى وستلقى العلاج هناك .

ازدادت خطوات عادل المهرولة للخلف، يدفع بيديه للأمام وكأنه يصد من يهاجمه وهو يصيح بصوت تقطعت إنياطه :

— لن أذهب للمستشفى، لن أذهب للمستشفى، أنك تريد أن تصطحبني لأموت هناك، لن أغادر المنزل، أنت قلت بأنني اختبأت هنا لأنني أعلم بوضعي الصعب، وضع اليائس من الحياة ويتعجل فراقها، لماذا تريد إزعاجي، هل لكي تطيل بضعة أيام أنا لست في حاجة إليها، لن أذهب للمستشفى .
نظر سامي إليه وكأن الأمر لا يعنيه وقال بصوت مثلج :

— من فضلك لا تنهك أعصابي يا عادل، فهيا أعد نفسك للذهاب للمستشفى فلقد أحضرت معي من سيصطحبك إلى هناك وهو ينتظر بالخارج .

لاحظت لفتة من عادل نحو الباب، لأول مرة ينتبه أنه لم يُغلق تماما، إندفع نحو الباب ليغلقه وهو يصيح، لن أذهب معك أو مع أي إنسان آخر، قبل أن تصل قدماه للباب انفتح ودخلت وصوتها يزغرد :

— حتى لو كنت أنا التي ستصطحبك يا حبيبي .
قبل أن ينتبه عادل جيدا كانت ميرفت تسجنه بين أحضانها وتغلق فمه بقبلة محمومة .

تخلص عادل من بين ذراعيها ووجهه يبدو وكأنه ترك الصحوة ودخل في طور النعاس، لسانه يلوك كلمات يخرج نصفها ويحبس نصفها بالداخل .. ميرفت .. ميرفت حبيبتي ..

ميرفت حبيبتي لماذا قبلتني .. لقد ابتعدت عنك لأحميك من موتي .. لماذا تعرضين نفسك يا حبيبتي للهلاك ؟!

لم تدع له ميرفت فرصة للمزيد واندفعت تقبله ثانية، قبله اثنتان آلاف القبلات .. تلقى لكزة في ظهره من أخيه سامي وهو يقول ضاحكا :

— ألا ترد لها قبلاتها أيها الثلاجة المتحركة ؟

ضحكت ميرفت ضحكة تقول بأن السعادة لم يتبق منها شيء لأحد غيرها، تسند رأس عادل لصدرها بقوة، ألجمت المفاجأة كل كيانه، همست في أذنه، مبروك يا حبيبي، نتائج التحليلات تقول بأن لا أثر للمرض في دمك . عادت حياة الدنيا كلها لكيانه المسترخي وأمسك بيديها يعتصرهما وهو يرد بصوت انتعش داخله الأمل :

— هل ما تقولينه صحيح يا حبيبتي ؟

أجاب سامي نيابة عنها وقد تحولت الابتسامة الباهتة المفتعلة على وجهه لضحكة متوردة، قال وهو يطلق تنهيدة وكأنه يزيع من داخله كابوس الأيام الماضية :

— نعم يا عادل، كما قالت لك ميرفت، النتائج كلها سلبية من المرض، والتمثيلية التي أجدت تمثيلها عليك، كانت من إخراج المخرجة البارعة ميرفت من أجل عقابك على هروبك.

ألقى عادل بنفسه على المقعد كحائط ينهار وهو يجذب معه ميرفت لتجلس فوق ركبتيه، يأسرها خلف أسوار ذراعيه وكأنه يخشى هروبها، حاول أن يلفظ لكن دموعه لفظت كل شيء بداخله، أيام لو قال أنها سوداء لا غتاب حقها، دموع ميرفت تقبله هامة، كفى يا حبيبي فمن اليوم ستكون بيضاء. صاح صوت سامي جذلاً .. هل سأظل أراقبكما لوقت طويل، انطلقت ضحكاتهما لتعلن عودة الحياة والحب .

انتهت لحد ما المفاجأة التي يشعر بأنه غير قادر على استيعابها، نظر إلى ميرفت وسامي وقال بصوت غير مصدق أنه صوته، هل خففت عني وقع المفاجأة التي تكاد تذهب بعقلي وتخبراني كيف تم كل هذا .

ضحك سامي وقال :

— عند حضوري إليك المرة السابقة، قلت لك بأن ميرفت، اتصلت بي، وأخبرتني باختفائك، الحقيقة أن ميرفت بعد اختفائك أصبحت كمجنونة تبحث عن عقلها، ظلت تجري هنا وهناك . وفي يوم وأثناء بحثها في المنزل عن أي دليل يقودها لمكانك، عثرت على مذكرات من كانت تظنه أبيها، ناجي عنايت، وأيضاً عثرت معها على الورقة التي سجلت بها أنت بعض الإيضاحات، علمت ميرفت منها أن هناك منزلاً لأسرتها في أمريكا، سارعت بالاتصال بي وهي التي أوحى لي بفكرة البحث عنك هنا

وصدقت توقعاتها ووجدتك. لكن حفاظا على وعدي معك، لم أخبرها بأني عثرت عليك إلا بعد أن علمت من نتائج التحليلات بأنك غير مصاب بهذا المرض اللعين . منذ يومين فقط . اتصلت بها فورا، أخبرتها بكل شيء، رجنتي وهي تجهش بالبكاء ألا أخبرك عن شيء لأنها تريد أن تكون مفاجأة لك، ويبدو أنها ألفت بنفسها داخل سماعة الهاتف وسبحت في أسلاكه حتى هنا .

بعض التردد مع نظرة خجلة في عيني عادل، أمسكت ناديه بيده وكأنها تشجعه على أن يستفسر عن سؤال هي تعلمه، سرت حرارة يدها في جسده وشجعته ليبوح بسؤاله وهو ينظر إلى الأرض :

— ولكن كيف تقول بأنني خاللا أحمل المرض اللعين وحدث ما حدث في تلك الليلة المشنومة؟

— التحليل الوحيد والمنطقي، وبحسب ما أخبرتني به بأنك فقدت الوعي بعد بضعة كؤوس من الويسكي، قد تكون ذهبتما للفراش معا لكن لم يحدث الاتصال بينكما، لأنك وقتها كنت فاقداً للوعي وهذا من حسن حظك . أما ناديه عندما استيقظت وبحكم مرض انفصام الشخصية الذي تعاني منه، توقعت بأنه تم الاتصال، هاجمها صراع مرير لسببين أولهما لأنها اعتقدت أن المرض انتقل إليك، والثاني أنها اتهمت نفسها بالخيانة لأعز صديقة لها،

- تغلب صراعها على كل قواها وانتهى الأمر بانتحارها.
- تھاوت دموع میرفت وألقت برأسها فوق صدر عادل
وقالت بصوت حزين
- كنت أتمني لو لم تنتحر ناديه، وعملت ما في وسعي
لعلاجها وتخفيف آلامها النفسية .
- قبلها عادل وهو يربت على رأسها كطفل صغير قائلاً :
- كم أحببت فيك هذا القلب المفعم بكل الخيرات .
صاح سامي ضاحكاً :
- دعونا من هذا وهيا فزوجتي وابني كامى في انتظاركما،
مسموح لكما أن ترتشفا بعضكما هناك .
- ترددت في الجو ضحكة انقشعت أمامها كل أحزان الأيام
السابقة وقالت ناديه وهي تحيط عادل بذراعيها :
- أنت مدين بوعد لبابا ناجي بأنك ستساعدني في البحث
عن عائلتي، هذا ما قرأته في المذكرات .
- سيسعدني هذا يا حبيبة قلبي، قالها عادل وهو يغلق باب
المنزل بشدة خلفهما، وكأنه يغلق على أيام العذاب التي
أمضاها وحيداً بين جدرانہ .

الخاتمة

هذا القدر العجيب، هل كُتب على الإنسان منذ ولادته؟!، أم أنه مجموعة الظروف التي تحيط به في الحياة وتشكل طريقه منذ البداية وحتى النهاية، أحياناً ننظر إلى السماء ونسألها!!، لماذا يحدث هذا؟!، لا نصل إلى جواب يُشفي الغليل، تهاجم قوى الشر رؤوسنا في محاولة لنزع الإيمان من داخلنا، ولولا هذه القوة الرحيمة التي لا ندرك كنهها لفر دون رجعة . عندما انتهيت من كتابة هذه الرواية لم أستطع أن أضع «نادية» داخل قفص الاتهام، ورأيت أن يكون عنوانها «إمرأة تحت سيف الأقدار» .

تمت ؛